

بائع الحلوى

آر. كي. نارايان

ترجمة: ميسون جحا

بائع الحلوى

تأليف: آر. كي. نارايان

ترجمة: ميسون جحا





فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

بائع الحلوى
آر. كي. نارايان

الطبعة الأولى 1430 هـ 2009 م

PR9499.3.N3, V4512 2009
Narayan, R. K, 1906-2001
[The Vendor of Sweets]

بائع الحلوى / تأليف آر. كي. نارايان؛ ترجمة ميسون جحا.- ط.1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
258ص : 21x14 سم
تدمك: 978-9948-01-424-9
1 - القصص الإنجليزية. أ- جحا، ميسون. ب- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
R.K Narayan, The Vendor of Sweets



info@kalima.ae
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+



www.cultural.org.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 300 6215 2 971+ ، فاكس: 059 6336 2 971+

المحتويات

رواية بائع الحلوى

يعد آر. كي. نارايان، كاتب رواية «بائع الحلوى» من أشهر الكتاب الهنود الذي صاغوا كتاباتهم باللغة الإنجليزية، ما أهله لنيل عدة جوائز أدبية هندية وأجنبية.

ولد راسيبورام كريشنا سوامي نارايان في عام 1906 في مدراس، وتوفي في عام 2001 عن عمر ناهز 94 عاماً. وكان الثالث بين ثمانية أبناء. وقد رعته جدته من أمه في ظل تقاليد صارمة للطبقة البراهماتية المتوسطة للتاميل. وقد ظهرت آثار تلك التقاليد والمبادئ بجلاء بين صفحات رواية «بائع الحلوى». كما تعلم على يد جدته فن سرد الحكايات الشعبية، ومحبة الموسيقى الكلاسيكية في جنوب الهند.

تأثر بكتابات الأدباء الإنجليز وعلى رأسهم شكسبير، وأمثاله من المشاهير. كما اطلع على المجلات الإنجليزية التي صدرت في زمنه، فكوّن فكرة عامة عن الحياة الأدبية في لندن. درس نارايان في مدرستين بمدراس وكان تلميذا جاداً، وقد أشرف والداه على تعليمه مع أخوته الثمانية. ورغم ذلك، أخفق نارايان في الانتساب إلى الجامعة مرتين متتاليتين، إلى أن قبل في جامعة المهراجا في ميسور، حيث كتب أولى قصصه القصيرة. كما كوّن هناك عدداً من الصداقات التي تناولها في رواياته في وقت لاحق. وقد اختار لمعظم رواياته مسرح مدينة مالجودي الخيالية التي تقع في جنوب الهند. فقد وصف أدغال المدينة وغاباتها وأنهارها، وجبالها وطرقها وأزقتها وعادات سكانها

وطريقة عيشهم واحتفالاتهم وطقوسهم الدينية.

وقد جمعت صداقة أدبية عميقة بين نارايان والكاتب البريطاني جراهام جرين، والذي أشاد بكتاباته وحسه الأدبي المرهف. وقد ألف نارايان 15 رواية، فضلاً عن عدد كبير من القصص القصيرة. وقد دارت أحداث معظم أعماله في مالجودي.

صدرت أول روايات نارايان بعنوان «سوامي والأصدقاء» في عام 1935، وتبعها «خريج قسم الفنون» في عام 1937. ومن ثم صدرت له رواية «الغرفة السوداء»، و«مدرس اللغة الإنجليزية» وغيرها من الروايات الشهيرة، وعلى رأسها «الدليل» التي أكسبته جائزة أكاديمية الآداب الهندية.

وقد صدرت رواية «بائع الحلوى» لأول مرة في الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا في عام 1967، ثم توالى نشرها عدة مرات.

يتسم أسلوب نارايان بالبلاغة والصدق والواقعية. كما أنه بارع في وصف الشخصيات وتحليل دوافع أصحابها واستبطان أفكارهم. وقد تبدى ذلك في أوضح صورة في رواية «بائع الحلوى».

تصور الرواية مجتمع الطبقة المتوسطة في الهند في الخمسينات من القرن الماضي، مع وصف دقيق للحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي سادت في تلك الفترة.

لقد أبدع نارايان في صياغة روايته، والتعبير عن أفكاره الفلسفية العميقة. وهي لذلك جديرة بالقراءة الواعية.

وتحكي رواية «بائع الحلوى» للروائي الهندي الشهير آر. كي. نارايان حكاية رجل يدعى جاجان يقوم على تربية ابنه مالي، ويدير محله الصغير للحلويات.

يكرس بطل الرواية حياته لرعاية ابنه الوحيد بعد وفاة زوجته، فيوفر له كل ما يلزمه من طعام وشراب، واهتمام أبوي لا حد له.

ويحرص نارايان من خلال تفاصيل صغيرة وأحداث عديدة أن ينقل لنا فكرة واضحة عن عادات وتقاليد وقيم ومبادئ يتمسك بها المجتمع الهندي الملتزم. إنه يصف لنا طفولة جاجان وصباه وكيفية اختياره لزوجته، ومن ثم إقامة أفراح واحتفالات كبيرة وفقاً للتقاليد الهندية العريقة.

ومن المؤكد أن كاتبنا كان من أنصار المهاتما غاندي، الزعيم الوطني الهندي، الذي قاد شعبه نحو الاستقلال من الاستعمار البريطاني. فقد جعل نارايان من بطل الرواية «جاجان» أحد أتباع المهاتما ومناصريه. كما تبنى أفكاره التي دعت إلى مقاطعة المنتجات البريطانية، ونظرية «اللاتعاون السلمي» والاعتماد على الصناعة المحلية، ولو تطلب ذلك غزل خيوط قطنية من أجل صنع قماش قطني يدوي. وقد اتبع جاجان مبادئ غاندي في علاقاته مع عماله وأصدقائه، ومع ابنه أيضاً.

كما وصف نارايان شخصية ابن العم المنافق والانتهازي، والذي لا يقدم خدماته دون مقابل. وربما نجد هذه الشخصية في معظم

المجتمعات، ولكن نارايان أبدع في وصفها وفضح أطماع صاحبها من خلال تقربه من جاجان، وحرصه على استغلاله بشتى الوسائل.

ولا ينسى نارايان لفت أنظار القارئ إلى الأخطاء التي يرتكبها بعض الآباء عندما يفرطون في تدليل أبنائهم ويلبون جميع رغباتهم، فيفسد الأبناء، ولا يرجى منهم رجاء في نهاية الأمر.

وهذا ما جرى بين جاجان وابنه مالي الذي ما عاد يبالي بما يقوله أبوه، بل هو يسخر من آرائه و مهنته أيضاً، ويعامله بجفاء ولا مبالاة.

لكن صبر جاجان ينفذ عندما يكتشف أن ابنه ما عاد باراً ورافضاً لكل ما هو هندي ومحلي، وخاصة بعد عودته من أميركا. إنها حكاية جيلين مختلفين وثقافتين متباينتين.

إن رواية «بائع الحلوى» شيقة وجديرة بالقراءة، وتنضح بأفكار فلسفية عميقة، ومبادئ وقيم سلوكية تطبق معظمها في بلادنا، بوصفنا من الشعوب الشرقية الأصيلة.

الفصل الأول

قال جاجان لرجلٍ جلس إلى جانبه «تغلبْ على حاسة التذوق، وسوف تتغلب على النفس». وعندما سأله الرجل «ولماذا نتغلب على النفس؟»، أجاب جاجان «لا أدري، ولكن جميع حكمائنا ينصحوننا بذلك».

فقد الرجل اهتمامه بالإجابة على سؤاله، وتركز هدفه في متابعة الحديث، في حين جلس على مقعد خشبي منخفض بجانب كرسي جاجان، والذي جلس بدوره تحت صورة مؤطرة للآلهة لاكشيمي علقت فوق جدار. وكان يفتتح يومه بالصلاة إليها عن طريق وضع طوق من أزهار الياسمين أعلى الإطار. كما اعتاد جاجان على إشعال عود بخور بعد دسه داخل فجوة في الجدار. وفي ذلك المكان اختلط شذا الياسمين والبخور برائحة قطع من الحلوى تقلى بالزبد داخل مطبخ أُنشِئ في نهاية الردهة.

كان ذاك الرجل هو ابن العم. وقد اكتسب تلك الصفة، رغم ادعائه القرابة لعدة أشخاص في البلدة (وهو أمر متعذر حدوثه في كثير من الأوقات). وكثيراً ما استعان ابن العم بعلم الأنساب، عندما واجهه المرتابون بادعائه القرابة منهم. وقد اشتهر في البلدة، وكان يمضي يومه في زيارة عدة أماكن وبيوت. كما دأب على زيارة جاجان في دكانه، عند الرابعة والنصف من كل مساء. وقد اعتاد على إلقاء التحية، ومن

ثم الاتجاه ناحية المطبخ ليخرج بعد عشر دقائق، وهو يمسح فمه بمنشفة يعلقها على كتفه، ويقول «يجب مراقبة تقلبات أوضاع السكر، فقد سمعت أن الحكومة عازمةٌ على رفع أسعاره. كما أن أسعار الدقيق جيدة. وقد سألت المورد عن أسعاره يوم أمس، أثناء مروري بشارع جودون. ولا تسألني ما الذي أخذني إلى ذلك المكان. ينتشر أصدقائي وأقاربي في جميع أنحاء البلدة، وكل منهم يدعوني لحضور مختلف أنواع المناسبات. وأنا، بالطبع، لا أمانع في خدمة الآخرين، فما نفع الحياة إن لم نخدم، أو نساعد، بعضنا بعضاً».

سأله جاجان «هل تذوقتَ طعم الحلوى الجديدة التي جرَّبها الطباخ هذا اليوم؟».

«نعم بالطبع، إنها لذيذة الطعم».

«أعتقد أنها وصفة قديمة في شكل جديد. فإن جميع أنواع المربى متشابهة. هل توافقني الرأي؟».

قال ابن العم «لا يا سيدي. ما زلت أرى فروقاً كبيرة بين أنواع الحلوى. آمل أن لا أتحول إلى يوغاني (مزاول رياضة اليوغا) وأفقد حاسة التذوق نهائياً».

في ذلك الوقت أطلق جاجان فلسفته «تغلب على حاسة التذوق، وسوف تتغلب على النفس». وقد واصلا الحديث لمدة نصف ساعة أخرى، ثم سأله جاجان «هل تعرف نوعية الأطعمة التي أتناولها في هذه الأيام؟».

سأل ابن العم «هل من جديد؟».

قال جاجان بفرح من حقق انتصاراً «توقفت عن تناول الملح منذ صباح هذا اليوم». وقد شعر برضا ناتج عن الأثر الذي أحدثه قراره، وأضاف «يجب على الإنسان أن يأكلَ الملح الطبيعي، وحسب».

سأل ابن العم «ما هو الملح الطبيعي؟ هل هو الملح الذي يجف على ظهر من يجري لمسافة ميل تحت أشعة الشمس؟».

تجهم جاجان جراء ذلك التلميح الفج، وبدا كرجل تحررت روحه من جسده، وبات يطوف بعيداً عن أقذار الأرض. وقد كان له، وهو في سن الخامسة والخمسين، جسدٌ نحيلٌ، وقد التمعت بشرته البنية، واتسعت جبهته بأثر صلع خفيف، وتدلى شعره على شكل أمواج خلف عنقه. كما غطت شعيرات بيضاء ذقنه نظراً لقلة حلاقتها، لأنه رأى في الوقوف أمام المرآة يوميا عادةً أوروبيةً سيئة. وكان يرتدي جبة فضفاضة ودوتي[1]، صنع قماشهما من نسيج غزله بيده. فقد كان يغزل لمدة ساعة يومياً، وينتج من القماش ما يكفي لتأمين حاجته من الثياب. ولم يحتفظ قط بما يزيد عن مجموعتين من الملابس، وكان يرسل في لفائف أنيقة ما تبقى من نسيج قطني أو صوفي إلى لجنة النول اليدوي مقابل ثمن مناسب. ولكن ما كان يكسبه لم يزد قط عن خمسة روبيات شهريا. ورغم ذلك، كان يتملكه عند تسلمه تلك الأموال شعور عاطفي ورضا لا حد له، وخاصة أنه بدأ في

1- الدوتي Dhoti: مئزر يلبسه الرجال في الهند.

ممارسة عادة الغزل اليومي إثر زيارة غاندي للبلدة قبل عشرين عاماً، ونصيحته لأتباعه بممارستها. وكان جاجان يضع نظارة لوزية الشكل ذات إطار أصفر، ويطل على العالم من خلال عدساتها الشاحبة. وقد اعتاد على تغطية كتفيه بشال من القادي (قماش قطني منزلي النسيج في الهند) طبعت فوقه رسومات صفراء زاهية، وكان ينتعل صندلاً سميكاً صنع من جلد حيوان، لم يتم صيده، بل نفق في سن متقدمة. ولكونه من أتباع غاندي، وضّحَ مبادئه وأفكاره بقوله «لا أحب التفكير بقتل كائن حي من أجل راحة قدمي». ومن أجل تطبيق مبادئه، ذهب إلى قرى بعيدة عند سماعه بموت بقرة أو عجل. وبعد حصوله على ضالته، كان ينقع القطع الجلدية في محلول خاص، ثم يسلمها إلى صانع أحذية عجوز وجد محله الصغير لإصلاح الأحذية، تحت ظل شجرة داخل مجمع إرسالية ألبرت.

وعند بلوغ ابنه سن السادسة، غدا مساعداً له في أعمال الصباغة في الشرفة الخلفية لبيته. لكن، عندما أصبح يافعاً بات يشتكي من الرائحة النتنة حالما جلب أبوه الجلود إلى البيت. ولم تكن زوجة جاجان أقل امتعاضاً من ابنها، فقد كانت تغلق الباب على نفسها، وترفض الخروج من غرفتها إلى أن تنتهي عملية الصباغ. ونظراً لكونها عمليه طويلة، وتستغرق عدة أيام، يمكن للمرء أن يتخيل مقدار الفوضى التي ألمت بالمنزل، كلما حاول جاجان تجديد حذائه. فقد انطوت تلك العملية على مخاطر صحية، فضلاً عن صعوبة

تنفيذها. كما هدد وجود الجلود داخل المنزل بتعكير صفو أجوائه. ولذلك كله، اضطر جاجان للاحتفاظ بها في مراحل الصباغ الأولى داخل كوخ مخصص للوقود، رغم احتمال أن تقرضها الجرذان. وعند احتضارها، دعته زوجته للاقتراب منها، وتمتمت بشيء ما. ولم يفهم كلماتها، ولكن راعه احتمال أن تكون قد قالت له «تخلص من القطع الجلدية». ولذا سعى لتلبية ما يحتمل أن تكون آخر رغباتها، وتبرع بآخر قطعة جلدية إلى جمعية خيرية، وشعر بسعادة لتمكنه من مساعدة شخص ما على انتعال حذاء، دون الإقدام على قتل حيوان بريء. وفيما بعد، وضع ثقته في صانع الأحذية العجوز للقيام بتلك العملية المعقدة.

وفي تلك اللحظة، أثارت إشارة ابن عمه للملح الطبيعي هدوءه واتزانه، واحمّر خجلاً. وقد اكتفى ابن العم بالأثر الذي أحدثه في نفس جاجان، وحاول الترفيه عنه بأن قال له «قبل أيام قلت للطبيب إنك بت تعيش حياة بسيطة للغاية، وأصبحت معتمداً على نفسك بشكل كامل». وقد كان لذلك الكلام الأثر المطلوب في نفس جاجان، حيث قال «وكما تعلم امتنعتُ عن تناول السكر، وأجد بأنه يكفيني يومياً شرب عشرين قطرة من العسل مع كوب ماء فاتر. وتلك هي الطريقة الطبيعية للحصول على حاجتنا من السكر».

قال ابن العم «لقد أنجزتَ فن الحياة من العدم».

متشجعاً قال جاجان «وقد توقفت أيضاً عن تناول الأرز، وبت

أسلق قمحاً مطحوناً بواسطة حجر، ثم أتناوله إلى جانب العسل والخضار».

فقال ابن العم «ورغم ذلك أتعجَّب من استمرارك في العمل وكسب المال، وتحمل كل هذا العناء». وأشار بيده إلى الحلويات المعروضة فوق صواني خلف واجهة المحل. ولكنه لم يسأل جاجان عن السبب الذي يدفعه لبيع الحلويات إلى الناس، ولم يعكر مزاجه مرة ثانية. فقد شعر ابن العم بأن ما قاله يكفي، وتحرك في كرسيه، لأن ساعة إحصاء الغلة قد اقتربت، وهو يعلم أن جاجان يكره أن يرصد أي شخص أمواله.

قاربت الساعة السادسة مساءً، وانتهت عملية البيع، وسيأتي الصبي المسؤول عن الكشك الامامي بمحصول اليوم الرئيسي. في تلك اللحظة يتخيل جاجان نفسه كملكٍ متوجٍ على عرش، وأمامه يقف أفراد رعيته (وهم أربعة طباخين، وفتى مسؤول عن البيع في الكشك الأمامي) ليتسلموا أجورهم. وكان العرش عبارة عن كرسي خشبي مسطح مغطى بوسادة رقيقة، وموضوع فوق منصة تساعده على مراقبة كل ما يدور حوله في عالمه الخاص من الحلويات، وحركة بيعها. وقد صنِعَ الكرسي قبل قرابة مائة عام، كما زُين مسنديه وظهره بأسلاكٍ نحاسيةٍ، وحفرت على أرجله نقوشٌ جميلةً. وقد صنع والد جاجان الكرسي عندما بنى بيته خلف تمثال لولي. وفي الأحوال الطبيعية، لم يكلف والد جاجان نفسه عناء تصميم قطعة

أثاث، لأن جميع أفراد العائلة كانوا يجلسون فوق البلاط المصقول. ولكن السيد نوبل، وهو انجليزي وعمل جابي ضرائب في المنطقة، لطالما زاره لتلقي دروس في علم الفلك، وقد وجد صعوبةً في الجلوس على الأرض، وصعوبةً أكبر في النهوض بعد انتهاء الدروس. وقد حملت لوحة رسماً للسيد نوبل. ولكن آل مصير تلك اللوحة إلى العلية، حيث رميت هناك، واصفر لونها بفعل الزمن، بعد أن كانت تعد من بين ممتلكات الأسرة القيّمة. وقد نقلت اللوحة إلى العلية عقب استبدالها بصورة لأحد الآلهة، وبعد أن أصبحت كلعبة في أيدي الأطفال الذين كانوا يحدقون بشارب السيد نوبل، ويضحكون طويلاً.. وفي أيام الحر الشديد استعملت اللوحة كمروحة، وأخيراً اختفت في العلية وسط مجموعة من كتب الحساب والقراءة القديمة، وغيرها من سقط متاع الأسرة.

جالساً هناك، تملك جاجان شعور بالرضا. فمن جهة كان قادراً على سماع ورؤية وشم كل ما يجري داخل المطبخ، من حيث خروج الصواني محملةً بقطع المربى الملونة في طريقها نحو منصة البيع. ولم يكن جاجان يبالي بأي شيء، طالما تواصلت عملية القلي ونقل الصواني، كما اعتاد على تثبيت بصره على خطوط سانسيكريتية وردت في نسخة ذات مغلف أحمر من البهاجافاد جيتا (كتاب ديني). ولكن، لو انقطع ضجيج العمل للحظة واحدة، سرعان ما يصيح دون أن يرفع عينيه عن النص المقدس قائلا «ما الذي يجري؟» وقد دأب

كبير الطباخين على الرد بإجابة روتينية «لا شيء». ومن شأن تلك العبارة أن تهدئ روع جاجان الذي يعود لقراءة أقوال «الآلهة» إلى أن يلاحظ مرة ثانية بعض التراخي في العمل عند الكشك الأمامي ويصيح «كابتن، إسألْ الفتاة الصغيرة ذات التنورة الصفراء عما تريد، فقد طال وقوفها». وكان من شأن صياحه أن ينذر الصبي الواقف خلف الواجهة الأمامية، وكذلك الحارس عند الباب، وهو عسكري سابق يرتدي زياً من الخاكي، وكان من عادته أن يغفو وهو مسترخٍ فوق مقعده الخشبي. وفي بعض الأوقات، كان جاجان يصيح «كابتن، يجب أن لا يتواجد هذا الشحاذ هنا، إلا في أيام الجمع. ليس هذا المكان جمعية خيرية».

وفي نفس الوقت من كل مساء، يهدأ المكان حول السيد الذي ينهمك في إحصاء غلته. ورغم أن الصبي الواقف عند الكشك الأمامي يتسلم النقود، لم يكن يفترض به أن يعلم حصيلتها الإجمالية. فقد اعتاد على رمي القطع النقدية داخل جرة برونزية طويلة العنق، ومن ثم يحملها إلى سيده، عند السادسة مساءً، ويعود إلى مكانه. ثم يأتي عند إغلاق المحل في السابعة مساءً، بجرة صغيرة. ولم يكن من عادة جاجان أن يحصي مكسبه قبل ذلك الوقت، بل يواصل قراءة أقوال الآلهة. ودون أن يرفع بصره، كان يدرك أن عملية القلي قد توقفت، فهو يسمع هسيس الفرن بعد إطفاء النار، وصلصلة القدور والمغارف أثناء غسلها. ومن ثم يأتي صوت أقدام تقترب منه، وهي

أربعة أزواج من الأقدام خرجت من المطبخ، وزوج جاء من مكان وقوفه عند الكشك الأمامي حمل صاحبها ما تبقى في الصواني، كآخر مهمة له في ذلك اليوم. وعندما يعلم جاجان أن الجميع باتوا على مقربة من كرسيه، كان يخاطبهم بطريقة روتينية ويسأل «كم تبقى من الحلوى»؟

«ليس كثيراً».

«كن دقيقا في إجابتك».

«نستطيع بيعه غداً».

«حسنا، أذهب».

وعند ذاك يحمل الفتى ،المسؤول عن الكشك الأمامي، الصواني الباقية، ويبتعد دون تطفل. وينتظر الطباخون إذنه للمغادرة. ويسأل جاجان من جديد «هل جميع النوافذ مغلقة»؟

«نعم».

ويخاطب جاجان حينها كبير الطباخين «لن يتبقى غداً شيء من الحلويات. ماذا يعيبها؟» فقد أزعجه التفكير ببقايا الطعام أو الحلويات، وشغلت دماغه كأن لها صوتاً أحدث شقاً في الجمجمة. كما أحب رؤية الصواني اللامعة، وهي عائدة إلى المطبخ في نهاية اليوم. وأعقب ذلك بعض النقاش. ويسأل جاجان «ما الذي سنفعله بالبقايا؟».

يجيب كبير الطباخين بلطفٍ كعادته «سنجرب غداً نوعاً جديداً

من الحلوى، إذا سمحت لي بذلك. لن تشكل لنا البقايا أية مشكلة. نستطيع قلي كل شيء مرة ثانية وتصنيع الحلوى في شكل جديد».

عندها يقول جاجان بلهجة فلسفية «على كل حال، إن كل شيء مكونٌ من دقيق وسكر ومنكهات». ويحاول إعمال فكره ومعرفة لماذا يمانع دوماً في إعادة تشكيل الحلويات، ويصل إلى نتيجة بأن المرء يجب أن يكون عملياً وسط استمرار ارتفاع أسعار المواد الغذائية.

وعند مغادرة عماله الدكان، يضع جاجان الكتاب المقدس جانباً، ويفتح درج طاولته نصف فتحة، وقد بطنّه بمنشفة مثنية من أجل إخماد صوت النقود عند إسقاطها من الجرة البرونزية. وقد دأب على تصنيف القطع النقدية إلى خمسات وعشرات وأرباع، بحماس موسيقي يمرر أصابعه فوق لوحة مفاتيح. وكانت عيناه تمسحان الحصيلة بنظرة واحدة، وتحصيها خلال خمس عشرة دقيقة. وكان يدخل أرقاماً في كراسة صغيرة، ويسجل أرقاماً تفصيلية أخرى في سجل كبير كي يدققه شخص ما. وفي كراسته الصغيرة، كان يسجل الأموال التي كسبها بعد السادسة مساءً، والتي تخرج عادة من جرة صغيرة. كما اعتاد على وضع تلك الأموال في خانة خاصة، باعتبارها في رأيه، أموالاً مجانيةً معفاة من الضرائب، بغض النظر عما يعنيه ذلك الرأي. وفي أول فرصة تسنح له، كان يحول تلك النقود إلى عملة ورقية، ويضعها في رزم، كي تحفظ بعيداً في العلية في صحبة رسم السيد نوبل.

ألقى جاجان نظرة أخيرة على النقود داخل الدرج، وأقفله بإحكام، وحرك القبضة عدة مرات، ثم سحب كرسيه محدثاً ضجة كبيرة. كما وضع قفلاً نحاسياً ضخماً على الباب، وأغلقه بمفتاح دسَّه لاحقاً داخل جيبه. وقال «كابتن، تأكد من إقفال القفل». أمسك الكابتن بالقفل بقبضة قوية، وكأنه قنبلة يدوية، وهزه للمرة الأخيرة، وقال «هذا قفل قوي جداً يا سيدي، لا نستطيع الحصول عليه، في هذه الأيام. أعرف الشيء الكثير عن الأقفال، ولا بد أن يكون قد صنع في مسبك قروي». وقد أسهب في الحديث عن عالم الأقفال والحدادين، إلى أن قاطعه جاجان بقوله «حسناً كن حذراً». وقد ألقى الكابتن تحية عسكرية، وانتهى اليوم.

الفصل الثاني

عند عودته إلى بيته بعد السابعة والنصف بقليل، ساد هدوء في شارع ماركت. كما تسلل إلى الطريق ضوء أزرق هائل من صيدلية كريشنا الذي كان واقفاً خلف طاولته يتفحص حنجرة مريض. وقد استلقى كلب شارد فوق كومة من الأحجار تركت إلى جانب الطريق، منذ انتخاب أول مجلس بلدي في الهند الحرة في عام 1947، وذلك من أجل رصف الطريق. كما تسلل نور من تحت باب مطبعة الحقيقة رغم أنه كان مغلقاً في إذعان لقانون ساعات العمل. وأدرك جاجان بأنه لو طرق الباب فإن ناتاراج سيفتحه، وأنه سيكون مستعداً للإجابة عما إذا كان الكتاب قد أصبح جاهزاً. وتذكر جاجان أن مخطوطه دخل المطبعة قبل عدة سنين، بعد أن ضمنه معلومات قيمة حول العلاج والغذاء الطبيعي. وأدرك جاجان أن ناتاراج سيكرر قوله بأنه ينتظر أحرفاً مطبعية ، ولكنه كان دوماً يجلس على أحد الكراسي ليناقش الأوضاع السياسية. وفي ذلك اليوم، كبت جاجان رغبته في السؤال عن الكتاب، وواصل طريقه قائلاً في سره «لا وقت لديَّ اليوم . يجب أن أعود سريعاً إلى البيت حتى لا يبقى الصبي وحيداً». واستغرق في تفكير عميق، وهو يمشي على حافة الطريق مختلياً بنفسه. ومرت إلى جانبه عربات صاح سائقوها بخيولهم كي تجري بسرعة، ومن ثم اقتربت بضع دراجات وسكوتر وسيارتان علت أبواقهما على ما عداها من أصوات. ثم ضعفت حركة المرور وتلاشت، وعرف

أنه تجاوز شارع كابر، لأن المكان خلا من أنوار مصدرها المحلات المنتشرة على جانبيه. وعند منعطف طريق ماركت وامتداد لولي، وجد متراساً صغيراً ثبت فوق مجرور تحت سطح الطريق. وكالعادة، جلس المتسول فوق المتراس ناقلاً نظراته بين المارة، ووقف حمار إلى جانب جدارٍ، وكأنه يعرض نفسه للخدمة. وقد عرف جاجان ما ينتظره الشحاذ. إنه ينتظر أوراق أشجار تحوي بقايا طعام يرمى بها من المنازل المطلة على شارع كابر. إنه سيجمعها ويلتهمها بيديه، ويملأ بطنه بما تيسر له من خضار وأرز.

وقد حدث جاجان نفسه «يجب أن يغير شعبنا عاداته، وذلك بأن يأكل الناس في أطباق، عوضاً عن وضع طعامهم فوق أوراق الأشجار. وفي تلك الحالة ستُغسَل الأطباق، وتحفظ بعيداً، على خلاف الأوراق التي ترمى للمتشردين كي يلتقطوا بقايا ما تبقى بها». وفي تلك اللحظة انشغل فكره بمشكلة التطوير الوطني في مختلف المجالات. وحدث نفسه «لو تخلى كل شخص عن أوراق الطعام، فإن العاملين في تجارة الأوراق سيفقدون وظائفهم، ولا بد عندها من إيجاد وظائف بديلة لهم. لكن في بداية الأمر يجب إجراء إحصاء لعدد السكان الذين يستخدمون الأوراق كأطباق، (ولأعداد الذين يأكلون من أطباق صناعية، وما هي نوعية تلك الأطباق؟ وهل هي من الفضة أو من الألمنيوم أم من معدن آخر؟). وكم عدد العاملين في جمع الأوراق الجافة من غابات مامبي، وما عدد الذين يخيطونها

بواسطة دبابيس صغيرة، وكم عدد العاملين في تطوير أنواع خاصة من أوراق الموز، لاستخدامها كأطباق خاصة بالموائد؟ وإلى أن يتم ذلك على المستوى الوطني، سيبقى ذلك المتسول ينتظر ما يرمى له من فتات الأطعمة. سيخرج في كل ليلة من ذلك المجرور ويسير في الطرقات صائحاً عند كل باب «أيتها الأم الطيبة امنحي حفنة من الأرز إلى هذا الجائع المسكين.....». وكان لذلك المتسول صوت عميق يتسلل من الباب ويصل إلى المطبخ من خلفه. وكان لنبرة صوته أثر مخيف على الأطفال المشاغبين، وخاصة أنه كثيراً ما وصف بأنه رجل بثلاث عيون». وعلّق جاجان في سره عند وصوله إلى تمثال لولي، وكان رأسه مليئاً بعدة قضايا إنسانية ووطنية «إن ذلك مهينٌ للأمة بأكملها». وقد وضع تمثال السير فريدريك لولي في مواجهة المدينة، وكان من المفترض أن يمثل ظهره نهاية لحدودها الجنوبية. لكن تلك النبوءة لم تتحقق عندما أنشئ امتداد شارع لولي، والامتداد الجنوبي، والامتداد الجديد، وكلها شوارع تجاوزت التمثال، ومنزل جد جاجان الذي عُدَّ في حينه آخر بيت عند ضواحي البلدة. ومن ثم أصبح أول بيوت المستعمرات الجديدة.

وعند اقتراب جاجان من التمثال شعر بسعادة غامرة، ليس لأنه رأى الرجل الضخم يقف في وضعية نابوليونية، متذكراً تاريخ وأمجاد بلدة مالجودي (وقد كف جاجان عن ملاحظة التمثال منذ أكثر من أربعين عاماً)، بل لأنه توقع رؤية ابنه مالي عند الجانب الآخر من

التمثال. وقد أحاط بقاعدة التمثال درجات عريضة تحولت إلى مقاعد يجلس فوقها فتية، وعجائز من سكان المنطقة المجاورة. هناك جلس متقاعدون ومتسكعون وعمال متعبون، ومواطنون مرضى نصحهم أطباؤهم باستنشاق هواء نقي. وقد جلس هؤلاء فوق الدرجات في الاتجاهات الأربع. كما شكَّل طلاب استندوا على دراجاتهم الهوائية مجموعة أخرى عند الجهة الجنوبية من التمثال، وقد ارتدوا سراويل ضيقةً، وقمصاناً ملونة، وانهمكوا في نقاشات حامية حول أفلام سينمائية ومباريات الكريكيت، وآخر صرعات الموضة والاتيكيت. ومرَّ جاجان بالتمثال من جهته الشمالية بغية عدم إرباك ابنه، لكنه أراد التيقن من وجوده. وبنظرة سريعة إلى المجموعة رأى مالي بقميصه الأصفر، وقد غمرته تلك اللمحة السريعة بسرور بالغ. وسار بعيداً على أطراف أصابعه قائلاً في سره «سأترك الصبي المسكين لشأنه». وكان فخوراً بطول ابنه ووزنه ونموه. وفكر ملياً «يقف بين مجموعة من الفتية، لكنه متميز عنهم. ترى ماذا يخبئ له الإله؟ لا بد أن يمنحه حظاً سعيداً». وقد وصل بيته وأفكاره ما زالت تدور حول ابنه. دخل البيت، وأنار الغرفة الأمامية، وخلع قميصه وعلقه على مسمار في الجدار، ثم نزع عنه جبته ورمى بها داخل سلة كي تغسل في اليوم التالي. ومر من خلال البيت القديم، وعبر ساحاته وردهاته الثلاث، ورفع الحاجز الصليبي الشكل، ودخل في هدوء. ثم وقف برهة يتأمل النجوم، وقد سره منظر القبة الزرقاء، وحدث نفسه «ما

زال الإنسان يتساءل ويتعجب، لكن يبقى السؤال مطروحاً: ترى من يعيش هناك؟ وتراءى له احتمال وجود الجنة الحقيقية هناك. وربما يعيش هناك حكماؤنا القدماء، وقد يتأملوننا من على بعد. وما هي تلك المجموعات من النجوم؟ وقد عجز عن معرفة كنهها. وقد اقتصرت معلوماته الفلكية على موقع النجم القطبي وحزام أو سيف أوريون، فضلاً عن معلومات أخرى أكسبته جائزة المرتبة الثانية حين كان عضواً في فرقة الكشافة، قبل سنين طويلة. ولم تتجاوز حصيلته الفلكية تلك المعلومات. فمن بين آلاف النجوم اللامعة التي أَولاها اهتمامه، لم يعرف سوى النجمين اللذين تعلم كيفية الاستدلال عليهما. وبالإضافة إلى سيف أوريون والنجم القطبي، كثيراً ما لاحظ لعبة نارية حية في السماء أطلت على الأرض من الجهة الجنوبية. وقد أطلق عليها أحياناً اسم فينوس، وتارة أخرى اسم المشتري. وكم كان معجباً بتلك النجوم، وشعر بفخر بأنه جزء من نفس الكون. وقد شكّل كل ذلك جزءاً من طقوسه اليومية في التفكير لحظة دخوله الحمام في الساحة الخلفية.

وكان الحمام عبارة عن كشك صُنِع سقفه من ألواح حديدية مموجة، ورُكِّب له باب من الصفيح، وأحيط بإطار خشبي وفصالات صدئة. وقد انحرف الإطار الخشبي عن مكانه، مما منع إغلاق الباب بإحكام، وترك فجوة يستطيع المرء أن يرى من خلالها كل من يستحم هناك. ولكن أصبح من عادة سكان البيت، ومنذ عدة أجيال، أن لا

ينظروا من خلال فتحة الباب.

وقد بقي ذلك الحمام على حاله، كما كان في أيام أبيه الذي عارض جميع محاولات إصلاحه قائلاً «في نهاية الأمر، ليس من المتوقع أن يسكن أحد ما داخل حمام. ومن الأفضل له أن يخرج على الفور، كي يعطي الفرصة لمن هم بحاجة لتنظيف أجسادهم». كما مالت شجرة جوز هند سامقة فوق سقف الحمام، مغطية السطح بأغصان ذابلة، فضلاً عن نباتات أخرى نامية. وقد كان لكل شيء في ذلك البيت قدسية الاستخدام. ولذلك السبب، استحال إجراء عمليات إصلاح أو ترميم. وفي بداية الأمر، أقام والد جاجان، كما يعرف الجميع، في كوخ من القش خلف ذلك البيت. ويتذكر جاجان لعبه ولهوه بالرمال خارج الكوخ. كما غطت أرضية الكوخ طبقة من الطين البارد، مما وفر لكل من وضع خده عليه في أيام الحر الشديد، شعوراً بالبرودة والاسترخاء. كما غرس أبوه بعض الشجيرات، واهتم بها وتابع نموها باهتمام شديد. وعندما توفر له بعض المال أشاد جدران الحمام واضعاً أحجار القرميد بيديه. وكانت تلك نقطة البداية لبناء البيت. وكانوا يأتون بالماء من بئر قريبة، ويخزنونه داخل صفائح، وبراميل كيروسين قديمة. وقد وسَّع أبوه البيت من الساحة الخلفية باتجاه واجهته الأمامية(ورغم ذلك رفض بعناد شديد تطوير الحمام).

وفي طفولته، لم يكن لدى جاجان أية فكرة عن كيفية جمع أبيه للثروة، رغم سماعه كلمات غامضة مثل «استئناف، و«محامون» و«المحكمة

العليا» و«المحكمة الدنيا». وعندما بلغ سن الرشد، وأصبح قادراً على فهم تلك الأمور، انتهت تلك القضايا، ولم يعد أحد يذكر شيئاً عنها، وعمن اشتكى على من، ومن كان صاحب الحق. وجاء وقت هدم فيه الكوخ، واستخدمت أعواده الخشبية لتسخين قدور من الماء لأجل الاستحمام، ونزعت أرضيته الطينية، ووزعت داخل حفر من أجل زرع شجيرات جوز الهند. وقد أمضى والده أسبوعاً بأكمله في تنفيذ تلك الأعمال، وساعده جاجان وأخوته في حمل سلال من التراب المجروف، وهم يصيحون بمرح «هيا نبني جبلاً». وكان لأبيه نظرياته في رعاية أشجار جوز الهند، وقد ملأ الحفر بكميات كبيرة من الملح، كما اعتاد على تكرار عبارات مثل «إن الملح هو الشيء الوحيد الذي يساعد جوز الهند على النمو. دلني على رجل يستطيع تنمية أشجار جوز الهند بسرعة كبيرة، وسوف ترى رجلاً يحمل فوق كتفيه رأساً عملياً».

وعند الخامسة من كل صباح، كان جاجان ينهض من فراشه، ويقطع عوداً من شجرة مارجوزا نمت في الساحة الخلفية، ثم يمضغ رأس العود، قبل أن ينظف به أسنانه. وقد عارض استخدام معجون الأسنان قائلاً «إن شعيرات الفرشاة مصنوعة من ذيل خنزير. وليس من المعقول أن يستهل أي إنسان يومه بالعض على ذيل خنزير». وقد استحال فصله عن مصادر نظرياته، وما يدين به من فضل للمهاتما غاندي. كما تشرب جاجان أفكاراً من أبيه، ذلك الرجل الذي أمضى

حياته في إنجاز نظرياته في الحياة الهادئة، وفي تطبيقها على نفسه وعلى شجراته من جوز الهند، وعلى أطفاله وزوجته. وحتى عند ظهور شعيرات النايلون، لم يغير جاجان وجهات نظره مصمماً على رأيه بأن للنايلون أثراً سيئاً على مينا الأسنان. ويقول «ألا تصدقوني. تذكروا أن أبي مات في سن التسعين دون أن يهتز شيء في فكه».

وكان لجاجان إيمانٌ راسخٌ بفوائد شجرة المارجوزا، ورغم مرارة طعمها أطلق عليها وصف «آمريتاـ أي عطر الآلهة وغذاءها، وهي التي أبقت على حياة الآلهة». وفي بعض الأوقات أطلق عليها اسم «سانجيفيني «وهو نبات نادر ذكر في الأساطير الهندية بأنه يحيي الموتى إذا دسَّ داخل فتحات أنوفهم. ولطالما شعر بالامتنان لأبيه الذي زرع شجرة مارجوزا صغيرة، مما وفر له مصدراً لا ينضب من الأعواد تسد حاجة جيله والجيل المقبل من بعده. وقد اعتاد على مضغ الأوراق المرة الطعم مرة في كل شهر، لأنها تقضي، باعتقاده، على جميع أنواع البكتيريا في جسمه. ولطالما شعر بانتعاش كبير حين هبوب نسمات، وتغلغل الهواء بين أغصان المارجوزا، والذي يصبح، برأيه، عنصراً مضاداً للتيفوئيد. وخلال موسم الأمطار الصيفية تعطر المكان بفضل تساقط الأزهار الصفراء على الأرض كأنها شلال جميل. وقد دأب على جمع الأزهار وقليها مع الزبد، واستخدام عطرها نظراً لقيمته البالغة، مرة واحدة في الأسبوع. لكن زوجته رفضت مشاركته في أي من نشاطاته الصحية. كما كرهت نظرياته،

وعاشت حياةً خاصةً بها. وكان أول صِدام وقع بينهما عندما منعها من تناول الأسبرين، واقترح استبداله ببعض أزهار المارجوزا المقلية بالزبدة من أجل معالجة الصداع. في ذلك اليوم، جلست زوجته بجوار العمود القديم في ساحة البيت، وقد لفت رأسها بمنشفة قديمة، وتمايلت بجنون إلى الأمام وإلى الوراء متوسلة برجاء كبير. ولا شك بأن جاجان تعاطف معها، ولكنه أيقن بأن الأسبرين لن يجديها نفعاً. ومن ثم رفعت رأسها إليه وقالت «كلامك أشد وطأة من ألم هذا الصداع. أعتقد بأنك ستراني ميتة بعد لحظات».

عندها استشاط غضباً وقال «أصابني صداعك بالجنون». وقد كره رؤيتها بشعرها الأشعث، وهي عاقدة تلك المنشفة حول رأسها. بدت رهيبة المظهر، ولا عجب في معاناتها من صداع شديد. وقد أدرك فجأة حقيقة موقفه، وعدَّله بتفكير مترو قائلاً «لك الحرية في التصرف كما تشاءين. أرجو أن يتلاشى صداعك».

وردت عليه «دعني بمفردي».

وأراد جاجان أن يسألها «ما سبب كرهك لي؟» ولكنه دخل غرفة مالي. وكان الصبي قد أصر على الاستقلال في غرفة خاصة به. ولم يكن ذلك صعب المنال في ذلك البيت الكبير. كما حصل مالي على غرفة مستطيلة الشكل تخلو من نافذة، أو مروحة تهوية. وقد سميت تلك الغرفة، في تلك الأيام، باسم «الغرفة الباردة». ويوجد في وسط الغرفة طاولة دائرية يعلوها حجر رخامي، وإلى جانبها كرسي. وقد

بدا مالي سعيداً بتخصيص تلك الغرفة له، وذلك لقربها من المطبخ، ومن الغرفة الرئيسية. وكان بوسعه التمتع بخصوصية دون أن يفقد ميزة الاطلاع على كل ما يجري في البيت، كالنقاشات بين أبيه وأمه، أو أحاديثهما مع الزوار. وقد كوَّم بضعة كتب فوق الطاولة الدائرية، وبعض أحجار البناء.

وقد سأله جاجان «هل تعرف يا بني، أين تضع أمك حبوب صداعها؟».

«أعرف لكنها لن تسمح لي بلمسها».

«لماذا؟».

«لأني قد آكلها. هذا هو كل شيء. فهي تبدو لذيذة الطعم».

وقد ارتعدت فرائص جاجان من تلك الفكرة، وقال «بني، لا تقترب من تلك الحبوب. إنها سامة».

رفع الصبي بصره عن طائرة ورقية كان يلهو بها، وسأل ببراءة «ما هو السم؟».

بدا جاجان بائساً، وحاول تجنب لفظ كلمات مشؤومة، ولكنه لم يجد بداً لذلك.

وقال لابنه «يموت الناس عندما يأكلون السم». أنصت مالي باهتمام، وكأنه يستمع إلى قصة، وسأل «وماذا بعد؟». وقد بدا بأن الأمور تسير في اتجاه غير متوقع. وسأل جاجان «أين توجد الحبوب؟». أشار الصبي إلى خزانة في الردهة وأجاب «هناك في أعلى

مكان، وتظنون أني غير قادرٍ على الوصول إليها».

رأى جاجان في انجذاب ابنه إلى الأسبرين أمراً خطيراً. وأجاب «سأجلب لك أشياء ألذ طعماً من هذه الحبة. انسَها، هل تفهم ما أقول؟».

ثم اتجه نحو الخزانة، ووجد حبوب الأسبرين وحملها إلى زوجته.

جرى ذلك قبل عدة سنين، وقد كبر مالي الآن؟

الفصل الثالث

قال مالي صباح ذات يوم «عندي فكرة».

شعر جاجان بشيء من التوتر، وقال له «حدثني عنها».

توقف الصبي ريثما يبتلع لقمته ثم أضاف «لا أستطيع الاستمرار في الدراسة».

بدا الأب مذعوراً «هل أساء لك أحدهم في الكلية؟».

قال الصبي «وهل يجرؤون؟»

«إذن، أخبرني ما الذي جرى؟»

«لا شيء، لا أجد متعة في الدراسة. هذا هو كل شيء». وتابع مضغ طعامه خافض البصر.

لم يره جاجان قط جاداً، كما رآه في ذلك اليوم. وبدا كأن الصبي قد كبر فجأة. لم يتحدث قط إلى أبيه بمثل تلك النبرة.

وكرّر جاجان قوله «أخبرني إن كان هناك شيء أستطيع تقديمه، أو مساعدة تنفعك في فهم دروسك».

كرر الصبي قوله «لا أريد أن أدرس. هذا هو كل شيء».

تسللت شمس الصباح عبر زجاج النافذة، ولامس بريقها كمية من الفلفل الأخضر وضع مع قليل من الزيت في طبق، مما جعله لامعاً جذب بصر جاجان. وقد تساءل عما إذا كان قد أعد لابنه نوعاً من المجوهرات المأكولة، بدلاً من سميد مع بعض البهارات. وسرعان ما أبعد تلك الصورة الخيالية عن رأسه، وقال «حسناً، سأذهب إلى

ما أبعد تلك الصورة الخيالية عن رأسه، وقال «حسناً، سأذهب إلى كليتك، وسوف أتباحث مع أولئك الأشخاص». ولكن الفتى رفع رأسه بغضب، وقد غدا فظاً وعدوانياً من خلال حماسه لنقل فكرة جديدة لأبيه. واحمرَّ وجهه. وقال جاجان في سره «إننا في الصباح الباكر والفتى متوتر الأعصاب». ذلك ما خطر في بال جاجان، وكأنه لتعكير المزاج والتوتر أوقاتٌ متفقٌ عليها. وتمتم «حسناً، أكمل فطورك، وسنبحث هذه الأمور لاحقاً». وأوشك أن يقول «ازدرد طعامك وأسرع لمتابعة دروسك».

كان أباً جباناً خشي التلفظ بكلمة فصل أو كلية كي يتفادى احتمال أن يصيح ابنه في وجهه، أو أن يركل طعام فطوره. وقد استحوذت على فكر جاجان هواجس بشأن تغذية ابنه بشكل سليم. كما أمضى معظم أوقاته داخل البيت وهو يطهو له. وقد بدأ تنفيذ تلك المهمة منذ إصابة زوجته بأولى نوبات حمى الدماغ، ودخولها المستشفى.

وعندما كبر مالي بما يكفي لإدراك طبيعة الأشياء، والتعليق عليها سأل أباه «لماذا لا تستعين بطباخ؟».

«لا أرى ضرورة لاستقدام طباخ».

«ولماذا؟»

«وهل نستخدم خادماً كي يتنفس بالنيابة عنا؟ إن إعداد الطعام شيء مشابه للتنفس».

وقد صاح الصبي «أبي ألا تستعين بطباخين لإعداد الحلوى في دكانك؟».

«ذلك أمر مختلف. إن دكاني أشبه بمصنع، وعمالي من المتخصصين في صنع الحلوى». قال جاجان ذلك، وقد أرخى العنان لمخيلته.

ولم يفلح الصبي في استيعاب الفرق، وقال بيأس «لا أريدك أن تطهو من أجلي. لدينا مطعم في الكلية. سأدبر أمري».

وتمسك مالي بالفكرة ملطفاً من قراره إلى حد قبول الفطور الذي يعده جاجان. وبقي الوضع على حاله. فقد غدا جاجان بعد وفاة زوجته مهووساً بغذاء ابنه، وكان دائم التفكير بالأمر ليلاً ونهاراً.

وقبل الخلود إلى النوم، اعتاد جاجان على إجراء حديثٍ مطولٍ مع ابنه بشأن ما تناوله من طعام في ذلك اليوم، وما يفضل أكله في صباح اليوم التالي. وفي تلك الساعة من كل مساء، وجد الصبي نفسه محاصراً بالأسئلة، وقد اعتاد على الإجابة بكلمات مقتضبة، وجملٍ قصيرة.

وينتهي اليوم باستعراض جاجان لنظرياته في التغذية، والتي غالباً ما قاطعها مالي بالابتعاد عن أبيه، وإقفال باب غرفته. وكثيراً ما أمضى جاجان بضع لحظات محدقاً في الباب، إلى أن ينهض، ويبسط فراشه في الشرفة المفتوحة في القسم الآخر من المنزل، ويغط في النوم قبل أن ترن ساعة مكتب تالوك التاسعة مساءً.

وفي تلك الفترة، شعر بلهفة لمعرفة ما سيفعله ابنه إن ترك الكلية

أو مطعمها.

وسأل ابنه ذات صباح ببلاهة «أين ستأكل؟».

ابتسم مالي بلا مبالاة، وأجاب «لماذا تشغل بالك، وأنت القائل دوماً بأن الإنسان لا يحتاج إلى الطعام؟». وارتدى قميصه الأصفر، وركب دراجته وغادر البيت.

اضطر جاجان لإخفاء اضطرابه لحين وصول ابن العم في المساء. وقد ناداه فور دخوله الدكان «تعال» مما أدهش ابن العم الذي أراد قبل أي شيء دخول المطبخ وتذوق الحلويات فور إخراجها من المقلاة. فتح ذراعيه وكأنه يقول «قضاياك التافهة تستطيع الانتظار». وتابع سيره، وقد رآه جاجان وهو يختفي داخل المطبخ، وقال في سره «سيأتي آجلاً أم عاجلاً. لا يستطيع أي إنسان المكوث طويلاً في ذلك الجو المشبع بالحرارة والدخان. وفضلاً عن ذلك، سرعان ما سيشعر بالشبع من تلك الحلويات». في ذلك الوقت ثارت ضجة وجلبة في شارع ماركت مصدرها صياح تلاميذ خرجوا لتوهم من المدرسة. وكالعادة وقف قلة منهم، وقد علقوا حقائب على أكتافهم، أمام محل الحلويات فاغرين أفواههم عند رؤية المنتجات المعروضة خلف الواجهة الزجاجية. وقال جاجان في سره «من واجب آبائهم تزويدهم بثمن الحلويات. لا أستطيع توزيع أكياس الحلوى كما توزع الصدقات».وشعر بالأسف لجلوسه هناك وجمع النقود. وقد عاوده ذلك الشعور بوخز ضمير منذ عهده في الخدمة العامة. وفكر بأنه لو

شاركه بعض الناس في تجارته، لغدا قادراً على تخصيص حصة من أرباحه من أجل توفير الحلوى لكل طفل يقف محدقاً أمام محله. لكن هذا بلد فقير لا يتعدى دخل الفرد فيه ثلاثة آنات[1].

وقد علق ذلك الرقم في رأسه منذ أن قرأه في الكلية في كتاب «الفقر والحكم غير البريطاني في الهند»، ومنعه من مطالبة آباء البلدة من إنفاق ثماني آنات يومياً في دكانه. وكثيراً ما حدث نفسه «البلد فقير، ولا يستطيع معظم الناس توفير الأرز لأطفالهم. وعندما أعتزل التجارة سأقدم ... لكن أسعار السكر في ارتفاع، وكذلك كلفة الدقيق والزبد، سواء كان نباتياً أم حيوانياً، هذا فضلاً عن أسعار المنكهات. فقد تضاعفت قيمة جوزة الطيب بعد أن اعتادوا على أسعارها الزهيدة. ولا قيمة للحلوى ما لم تمزج بقليل من مسحوق جوزة الطيب».

وعندما خرج ابن العم من المطبخ، وهو يمسح فمه بمنشفة، قال له جاجان، في تواصل مع أفكاره بشأن المشاكل الاجتماعية التي أثارت، قبل قليل، أحزانه الشخصية «هل تدرك أن قلة من الأشخاص يقدرون قيمة أوضاعهم الجيدة، وحسن طالعهم». أومأ ابن العم برأسه في موافقة عادية، واحتار في سره عما يرمي له ذلك المفكر العميق. وأضاف جاجان معبراً عن فلسفة يمكن أن تنطبق على أية حالة اجتماعية «ينسى الجميع، أو يعتادون على توفر الأشياء من

1- آنة: anna عملة هندية.

حولهم. ذلك هو حال العالم اليوم، وخاصة الشباب فيه. إنهم يثيرون المتاعب في كل مكان. هذا ما قرأته قبل أيام في أحد الكتب». وقد حاول الاستشهاد بتقرير يبحث في أحوال شباب اليوم، لكنه لم يتذكر أين قرأه، ولا عما ورد فيه.

قال ابن العم «لا يفيد ذلك في التوصل إلى نتيجة». وقد حامت أفكاره حول حلويات تناولها قبل لحظات.

واستمر الحديث بسلاسة إلى أن قال جاجان فجأة «يستعرض مالي أفكاراً غريبة».

فتح ابن العم عينيه للتعبير عن رد الفعل المناسب، لكنه لم يكن متأكداً من درجة انتقاد الأب لابنه. وعلى الفور، أدرك ابن العم بأنه مطالبٌ باتخاذ موقف. وقال «من الأفضل معرفة كيف يفكر الفتى، وخاصة في ظل أساليب تعليمنا الحالية». وقد وجد سهولة في تحميل النظام التعليمي المسؤولية عند غياب أسباب أخرى.

واضاف جاجان متنهداً «لطالما تمنيتُ أن يتابع دراسته الجامعية. فإن الشهادة الجامعية مؤهلٌ أساسي يفترض بالإنسان تحصيله. ألا ترى ذلك؟ ولو حصلتُ على شهادة جامعية لاستطعت أداء أعمال عديدة أخرى».

«لم تكن مضطراً لذلك. وما الذي ينقصك في وضعك الحالي؟».

«اضطررتُ لهجر الكلية حين أمرنا غاندي بعدم التعاون مع قوات الاحتلال. وقد أمضيت معظم سنوات الدراسة في السجن».

وقد تملكه شعور بطولي. وتناسى عند استرجاعه لذكريات ماضيه حقيقة إخفاقه عدة مرات في حصوله على شهادة البكالوريوس، وأنه توقف عن الدوام في الكلية، وأخفق في امتحاناته، قبل وقت طويل من توجيه غاندي نداءه الشهير إلى الشعب الهندي. وسأل جاجان، من جديد «ولكن ما الذي يمنع الطلاب اليوم من الدراسة؟».

كرر ابن العم المعروف بحذره الشديد ما قاله قبل قليل «يجب معرفة السبب من خلال الفتى نفسه. لماذا لا تتحدث معه؟».

سأل جاجان بنبرة تحدٍ لا معنى لها «ولماذا لا تحدثه بنفسك؟» وأضاف بتعاطف «إنه يخاطبك بلقب عمي منذ أن نطق أولى كلماته».

قال الرجل «إنه الشخص الوحيد الذي لا أناديه باسم ابن العم». وضحكا معاً.

ومن جديد، بدا جاجان مهموماً، وقال بإلحاح «لا بد من معالجة الأمر في هذه الليلة، وأخبرني بما توصلت إليه».

وعند العاشرة مساءً، جاء ابن العم وطرق الباب برفق. وكان جاجان، وللمرة الأولى في حياته، ما زال مستيقظاً إلى ما بعد التاسعة. وكان الفتى قد عاد إلى البيت، ودخل غرفته، دون أن يعطي فرصة لأبيه كي يسأله عن مجريات يومه. كما لاحظ جاجان وجود نور في غرفته، وقاوم رغبة جامحة في التلصص من خلال ثقب المفتاح.

وبعد أن سارا على أطراف أصابعهما، وخرجا للتمشي في الطريق

المحاذي لتمثال لولي، ثم جلسا على قاعدة التمثال الرخامية، قال ابن العم «يا ليتك نظرت من ثقب المفتاح، حيث كنت ستعرف ماذا يفعل».

هبت، في ذلك الوقت، نسمات ليلية عليلة. وأطل السير فريدريك برأسه بعدوانية من بين النجوم.

سأل جاجان «ماذا تعني بقولك؟»، وقد استند إلى دعامات تمثال السير فريدريك، وجالت في رأسه جميع أنواع الأفكار المخيفة والكئيبة. تساءل في سره عما إذا أقدم مالي على تزييف العملة، أو أنه قتل شخصاً ما؟ وقد تخيل عشرات الاحتمالات السيئة. وأمسك برسغ ابن العم، وقال «أخبرني بكل شيء. لا تخفِ عني أمراً».

تخلص ابن العم من القبضة بازدراء وقال «إنه منشغل بالكتابة. ذلك هو كل شيء. وهو يسعى لأن يصبح كاتباً».

لم يكن لكلمة «كاتب» معنى في قاموس جاجان سوى كلمة «كاتب» في محل تجاري أو «مكتب» أي أنه آنجلو- هندي، وهي سمة استعمارية تعود لعهد ماكولاي الذي ابتدع نظاما تعليمياً يوفر خدمات كتابية دائمة لصالح شركة الهند الشرقية. وقد شعر جاجان بالذعر. إنه يعدُ الفتى كي يصبح ارستقراطياً وخريجاً جامعياً يرتدي ثياباً أنيقة، وهو يريد أن يصبح «كاتباً». إنه شيء غريب!

وسأل «ولماذا يريد أن يصبح كاتباً؟»

«لا أدري. عليك أن تسأله».

قال بصوت مرتفع «وأين ينوي العمل؟ إنه أمر مخجل. ضيَّع ابني كل الجهد الذي بذلته لتكوين سمعة ومكانة طيبة». وضرب على رأسه بيأس بالغ.

لم يخطر ببال ابن العم أنه أساء فهم كلمة كاتب. وقال «بعد لقائنا هذا المساء، لم أضيع وقتاً في البحث عن الفتى. وقد انتظرته عند باب الكلية ...».

قال جاجان بحماس «وهل ذهب رغم كل شيء إلى الكلية». وقد استنتج أنه تناول طعامه بالتأكيد في مطعم الكلية.

أجاب ابن العم «نعم. ذهب في زيارة وداعية. رأيته خارجاً مع مجموعة من رفاقه، ممن ربتوا على ظهره وصافحوه بحرارة مودعينه بود ومحبة. كما خرج أستاذان ونظرا إليه وقالا شيئاً. وقد سمعته يقول لهم «عند أبي خطط أخرى، وقد يرسلني إلى أميركا».

صاح جاجان «ما الذي سيفعله في أميركا؟ أميركا حقاً!».

أجاب ابن العم ببطء «لا تتسرع. كان عليه أن يخبرهم بشيء ما قبل هجر الكلية. وإلى حين مطالبته بالرحيل إلى أميركا، تجاهل الأمر».

ردد جاجان بيأس، وهو يطرق بأصابعه على حجر الجرانيت «جميع أنواع الأفكار، جميع أنواع الأفكار».

وقال ابن العم «قد يصبح في يوم ما مثل بهاراتي أو طاغور أو شكسبير. لا تتسرع في الحكم على الأشياء».

أخيرا استدرك جاجان الحقيقة، وصاح بسعادة «يالِيَ من أبله. نعم بالطبع سيغدو كاتباً شهيراً. لقد أصبحتُ أمياً». وشعر بارتياحٍ كبير لأن الفتى لا ينوي أن يصبح كاتباً من النوع الآخر.

أضاف ابن العم «بأي شيء آخر كنت تفكر؟ سمعت بأن الكتاب يكسبون أموالاً طائلة في هذه الأيام، فضلا عن اكتسابهم الشهرة».

«وماذا يريد أن يكتب؟».

«لا أدري. ربما يقرض الشعر، وهو أسهل بداية. وقد يؤلف قصصاً قصيرةً». وأضاف ابن العم، وهو غير راغبٍ في الخوض في بحار مجهولة «وماذا يكتب الناس غير ذلك؟ وفي الواقع كان من الصعب استخلاص أي شيء منه. فقد قابلته في المدرسة».

قال جاجان مصححاً «الكلية» وقد شعر بشيء من الاستياء.

«نعم، نعم. قصدت بقولي الكلية. إني دائم التفكير بمالي كصبي صغير، ومن الصعب تذكر أنه لم يعد مجرد تلميذ في المدرسة. نعم قابلته عند باب الكلية وقت خروج المدرسين. وقد توقف ليسألني عما جاء بي إلى ذلك المكان. ولم أرغب في الظهور بمظهر الفضولي فقلت شيئاً ما، ثم دعوته لشرب فنجان من القهوة في مكان ما. وبالفعل كان بحاجة لتناول الطعام، وليس مجرد شرب القهوة».

قال جاجان بأسى «الفتى المسكين، لا بد أنه كان يتضور جوعاً».

أجاب ابن العم «ليس بالضرورة، فالشباب، كما تعرف، يأكلون ويشبعون، ثم يطالبون بالمزيد من الطعام».

قال جاجان «بالتأكيد، وما الذي يمنعه من تناول ما يحلو له من الأطعمة في جميع أوقات النهار؟».

«وهل تعطيه ما يكفيه من المال»؟.

قال جاجان «بالطبع، وهل اشتكى من شيء؟».

أجاب ابن العم «لا، لا مطلقاً. إنه ليس من ذلك النوع من الشباب. إنه لن يشتكي حتى لو جوعته، وحرمته من كل شيء».

شعر جاجان بالفخر عند كيل تلك المدائح بابنه، ولكنه ظل مهموماً، وأخذ في تأمل النجوم الثابتة في مساراتها.

ومر كلبان يلاحق أحدهما الآخر، وتحرك الشحاذ أثناء نومه عند الجانب الآخر من التمثال، وتمتم ببضع كلمات.

نظر جاجان حوله وقال «من المخجل أن دولتنا عاجزة عن إيجاد حل لمشكلة المتسولين. لا بد أن أقوم بعمل ما في الوقت المناسب».

تجاهل ابن العم المشكلة الاجتماعية الأكبر، وواصل حديثه «اصطحبته إلى آناندا بهافان، وأنت تعرف المكان حيث يصمُّ مكبر الصوت أذنيك».

قال جاجان متوسلاً «لا أريد سماع شيء عن مطعم آناندا بهافان. أرجوك حدثني عن الفتى».

«نعم، نعم إصبر سأخبرك بكل شيء. أعلم أنك لا تحب أصحاب آناندا بهافان، وأعرف أنهم حاولوا ابتزازك بواسطة ضرائب المبيعات».

«أوه، ركز على الموضوع الرئيسي. لا أبالي بما فعلوه سابقاً، وما يقومون به حالياً. أخبرني بما قاله الصبي. هل بدا تعيساً؟».

«نعم ولا، إنه سعيد لكونه سيصبح حراً ومتفرغاً للكتابة. وهو غير سعيد لأنك ترغب بأن يكمل دراسته في ...» أكمل جاجان «الكلية» وهو شبه خائف من أن يخطئ ابن العم، ويلفظ كلمة «مدرسة» مرة ثانية.

وقد التقط ابن العم الإشارة وقال «الكلية، الكلية، بالطبع الكلية. إن تلك الكلمة بالذات تصيبه بالجنون. إنك تحبها جداً، وهو يكره المحاضرات والمنهاج الدراسي، وجميع كتبه. إن الفكرة ذاتها تثير غضبه. هل تعلم بما فعله؟ كان يحمل كتبه، وكنت قد طلبت له حلوى، وجلسنا بانتظارها. وفجأة مزق صفحات كتبه بوحشية، ونادى نادلاً وقال له «أحرق هذه الكتب في فرن المطبخ».

«ألم تستطع منعه؟ ألم تنصحه بوجوب معاملة الكتب باحترام لأنها تمثل صورة عن ساراواتي؟ وكيف يمكن لهذا الصبي أن ينال شهادته الجامعية؟».

قال ابن العم متأملاً «لست أدري. لم يخطر ببالي قط مناقشته في الأمر. وما جدوى ذلك على كل حال؟».

صاح جاجان «هل جننت أنت أيضاً؟ ألا ترى ...؟».

قال ابن العم «عندما مزق الكتب بدا لي الأمر عادياً، وخاصة بالنظر لحال التعليم في بلادنا».

«أوه أصمت. أتمنى لو أنك لم تخبرني بشيء».

تجاهل ابن العم ذلك التلميح وأضاف «هل تعلم ما قاله بعدما رمى بكتبه في النار؟ لقد نظم بيتاً من الشعر يقول «هيآ نبجل النار التي تأكل كتبنا الكريهة». وقد بدا تصرفه ذكياً وعاقلاً. كما تناول الحلوى، وعدداً من الأشياء، وبلغت الفاتورة الإجمالية ثلاث روبيات».

قال جاجان «فتى عظيم». وقد سر لدى سماع بيت الشعر الذي نظمه ابنه. كما سر لأنه شره، ويقبل على الطعام بشهية بالغة. وأضاف «سأسدد لك ما أنفقته. ذَكرني غداً عند قدومك إلى المحل».

قال ابن العم «لا حاجة إلى العجلة. تستطيع رد المال في أي وقت».

وقد بدا من الصعوبة بمكان التركيز على نقطة محددة، وخاصة أنه لا توجد نقطة معينة، ولا موضوع رئيسي يمكن العودة إليه. وظلا يتجولان على غير هدى إلى أن دقت ساعة تالوك الثانية عشرة ليلاً، وتردد صداها في جميع أرجاء المدينة الساكنة.

وقال جاجان «عاد الجميع بمن فيهم المتسولون إلى بيوتهم كي يناموا، وأنا لم أتوصل بعد إلى شيء. لا أدري لماذا لا يستطيع كتابة وقراءة كتب الكلية».

قال ابن العم موضحاً «قال بأن كتبه الدراسية تتداخل مع ميوله الأدبية».

وبعد فترة صمت قصيرة، سأل جاجان فجأة «هل كان شكسبير خريجاً جامعياً؟» وهو سؤال ما كان لأحد القدرة على الإجابة عليه

في ذلك المكان وتلك الساعة من منتصف الليل.

قال ابن العم «ولماذا نذهب بعيداً. أعرف أن كاليديسا لم يلتحق قط بأية كلية».

رد جاجان بسرعة «لأنه لم يكن في زمنه، قبل ثلاثة آلاف عام، كليات أو جامعات».

«وكيف لك أن تعلم فيما إذا وجدت كليات أم لا؟. أعلم أن كاليديسا كان فلاحاً أبله عمل في رعي الأغنام إلى أن خدش الإله ساراواتي لسانه فألف على الفور أغنية سيامالادانداكام. ثم كتب قصيدة ساكونتالا، وغيرها من القصائد».

قال جاجان «أعرف القصة، وقد سمعتها مراراً».

قال ابن العم بلطف «إن كنت تعرف القصة، يجب أن تصدقها، وأن تأمل بأن يصبح مالي في يوم ما كاليديسا آخر».

وفي أول فرصة سنحت له، وقف جاجان أمام غرفة مالي، ونظر من خلال ثقب المفتاح. وقد أدرك أن الفتى يعمل على تجنب أبيه، ولذا أغلق باب غرفته طوال ساعات النهار.

أعد جاجان الفطور وتركه على الطاولة في القاعة الكبيرة، كما وضع ورقة نقدية من فئة خمس روبيات تحت الطبق، حتى يتمكن الفتى من تناول طعام يومه في أي مكان يختاره. وكان مالي يخرج ويعود إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل، ويغلق على نفسه باب غرفته.

ومضى جاجان في صنع حلواه دون إظهار إمارات ألم، لكنه كان ممزقاً في أعماقه. ولم يكن قادراً على معرفة أين يمضي ابنه أيامه، أو ماذا يأكل. لم يظن قط بأن حماسه للعلم سيدمر علاقتهما، وأراد إصلاح ما انقطع مع ابنه.

ومن خلال ثقب الباب رأى المصباح مضاءً داخل غرفة مالي الذي كان جالساً على مقعد، وقد أسند مرفقيه على الطاولة مطرقاً ومستغرقاً في التفكير. وشعر بخيبة أمل لأن الصبي لا يكتب شيئاً. فقد تخيل جاجان بأن الكاتب يمضي لياليه في الكتابة، وأنه يملأ سطح الطاولة بأوراق دوَّن عليها إلهامه. فهاهو كاليديسا آخر يكتب أنشودة ملهمة، وسرعان ما ستردد جدران البيت العتيق أصداء أنشودة جديدة ستبقى على شفاه الناس على مدار ألف عام قادمة. لكن الصورة التي رآها جاجان مختلفةً كلياً. فقد بدا الصبي غارقاً في بحار من الغم والملل. وجاء وقت إخراجه من تلك الأجواء.

بالفعل أدرك جاجان ضرورة نسيان أمر التعليم في الكلية، والاعتراف بتطلعات ابنه وتخيلاته، إلى أن يتخلص، على الأقل، من كآبته. وطرق على الباب بقبضتيه، وقد انحنى ونظر من ثقب المفتاح بعد أن شعر بالتعب.

سأل الفتى وهو يفتح الباب «ما الذي جرى؟ لماذا تريد هدم البيت؟»

اقتحم جاجان الغرفة قائلاً «بني، أعجبتني فكرتك. هيا نتحدث بشأنها».

وسار بضع خطوات ثم جلس فوق مقعد، وتبعه الفتى صامتاً شارد الذهن.

ومسح جاجان جبينه ووجهه كي يمحو أي أثر لعبوس، ونجح في إبراز ابتسامة عريضة وتعبيرٍ عن رضا تام.

وقد نظرا طويلاً إلى بعضهما بعضاً، ثم اقترب الفتى وجلس فوق الطاولة الدائرية ذات السطح الرخامي.

سأل جاجان برقة «هل تريد طاولة جديدة؟».

سأل الصبي، وهو يتأرجح بين الشك والثقة «ولماذا؟» وكان من شأن أي ضغط خفيف على الطاولة أن يقلبها إلى الجانب الآخر. ولذا قال جاجان «إن الكاتب بحاجة إلى مكان فسيح يتسع لمخطوطاته، لأنها ثمينة، كما تعلم».

سر الفتى لأن فكرة جلب طاولة جديدة غير مرتبطة بكتب وكراسات الكلية. وقال «من الذي أخبرك بذلك».

«مثل تلك الأشياء تُعرفُ بسرعة. لقد برز كاتب جديد». وقد دهش من طلاقته.

«أوه. لا يهمني ذلك».

نظر جاجان حوله. لم يكن هناك أي أثر لكتاب يتم تأليفه. كان السطح الرخامي خالياً، وقد استبعدت جميع كتب الكلية، واختفت من المكان.

وشعر بفضول، وتساءل في سره عن مصير تلك الكتب، ولكنه

كبح جماح فضوله، وقال لنفسه إن ذلك ليس من شأنه.

وسأل جاجان بتواضع صحفي شاب يجري حواراً مع أحد المشاهير هل تريد أن أشتري لك ورقاً أبيض. وهل لديك قلمٌ جيد؟ أعتقد بوجوب جلب طاولة جديدة ذات أدراج. وماذا تؤلف حالياً؟

بدا بأن الهدوء والتفاهم قد عادا إليهما، وباتا قادرين على شق طريقهما في عالم الأدب، وكل منهما يعتقد بأن الآخر يفكر بطريقة مختلفة.

قال الفتى بكياسة ولطف «رواية».

«رائع، وأين تعلمت كتابة الروايات».

لم يجب مالي على السؤال، وكرره جاجان.

وسأل الفتى أباه «هل تختبرني؟».

لا إني مهتم وحسب. ما موضوع القصة التي تكتبها؟

«لا أستطيع أن أطلعك على مضمون القصة، فقد تتحول في نهاية المطاف إلى قصيدة، لا أدري».

«لكن، ألا تفكر بما ستكتب عنه قبل الجلوس إلى الكتابة؟».

قال الفتى بتكبر «لا، إن الكتابة ليست كصنع الحلويات في محلك».

كان ذلك أمراً غامضاً بالنسبة للصحفي الشاب الذي قال بتعاطف «أخبرني إن كنت بحاجة إلى مساعدتي في أي شيء».

تلقى الفتى ذلك بصمت مطبق.

«وهل أصدقاؤك كتابٌ أيضاً؟».

«وكيف لهم أن يكونوا كتاباً؟ إنهم مجرد قراء يريدون الحصول على درجاتٍ علمية. هذا هو كل شيء».

وقد نجح جاجان في إخفاء إعجابه بسلوك أولئك الأصدقاء. وأضاف الفتى «إنهم جميعاً رفاق عاديون لا يصلحون لأي شيء آخر».

وقال جاجان محاولاً استغلال كل فرصة لكسب مزيد من الفهم لفكر ابنه «ظننتُ أنك معجبٌ بأصدقائك».

وقد تراءى له بأن أولئك الأصدقاء قريبون من قلب الفتى، وخاصة عندما رآهم، وهم مستندين على دراجاتهم، ويتحدثون بصوت عالٍ بالقرب من التمثال. وفي الوقت نفسه، أحدث ذلك الموقف نوعاً من الارتياح في نفس جاجان الذي خشي من احتمال إفساد أولئك الأصدقاء لابنه. وقد شعر برضا لأن ابنه ابتعد عنهم من تلقاء نفسه. وحدث جاجان نفسه «لمدة عشرين عاماً نشأ وكبر معي تحت نفس السقف، ولكن لا أعرف عنه إلا القليل. لقد خطط هذا الفتى لشيء ما سيعلن عنه آجلاً أم عاجلاً».

شرح مالي أفكاره بقوله «قرأت في مجلة آناندا فيكاتان إعلاناً عن مسابقة في الرواية، وسيتلقى الفائز بالجائزة الأولى خمسة وعشرين ألف روبية».

«وما هي شروط المسابقة؟»

«يجب أن تُرسَل الرواية قبل تاريخ 30 سبتمبر، إلى جانب ملء كوبون من المجلة. هذا هو كل شيء».

اسند جاجان ظهره وأخذ في قراءة تواريخ ظهرت على رزنامة علقت على الجدار «إننا في شهر مايو (أيار)».

قال الصبي بحدة «أعلم، أمامي خمسة أشهر».

سأل جاجان برفق «هل بدأت في الكتابة؟»

«لست من نوعية الأشخاص الذي يفصحون عن رواياتهم قبل إنجازها».

سأل جاجان بإلحاح «ماذا تتناول في روايتك؟»

انتفض الفتى وابتعد عن أبيه، وكرر بصوت عالي النبرة «هل تمتحنني؟»

«لا، لا أقصد ذلك».

قال الفتى بصوت خائب الرجاء «إنك لا تصدقني. أعلم ذلك».

شعر جاجان باضطراب وأعاد تأكيد ثقته بابنه بصوت عالٍ، لكنه تساءل في سره عن سبب وجود حاجز غير مرئي بينهما. إنه لا يتذكر أنه عامله قط بقسوة، كما أنه وفر له كل ما احتاج إليه طوال عشرين عاماً، وخاصة خلال السنوات العشر الأخيرة بعد أن فقد الصبي أمه. وقد بقي ذلك المشهد حياً في ذاكرة جاجان ـ يوم الجمعة الرهيب عندما لاحظ طبيبهم صعوبة تنفسها، وقال «لا يستطيع أي طبيب أن يفعل شيئاً آخر. فقد أصيبت بورم في المخ نادر جداً. ولو عرف أي طبيب سبب الإصابة به، لعرف أيضاً كيفية القضاء عليه».

كانت الساعة قد شارفت على منتصف الليل. وقد جلس الطبيب إلى جانب المريضة طوال ثمانٍ وأربعين ساعة، وهو مزود بحقنة وأوكسجين وكيساً من الثلج.

ولم يوفر الطبيب أية وسيلة ناجعة، أو علاجاً من أجل إنقاذ حياتها. وقد أصابه إرهاق شديد، وكاد أن يجن من تلميحات جاجان بأن علاجاً طبيعياً يمكن أن ينفعها. وقد رد بحدة بعدما أدار وجهه عن سرير المريضة «ماذا تقول؟ علاج طبيعي؟ إن الطبيعة ستجدنا عما قريب موتى. وليس هناك علاج لورم خبيث. هذا هو كل شيء».

وقد أطبق جاجان فمه شاعراً بأن اللحظة غير مناسبة لاستعراض نظرياته. لكن عندما خرج الطبيب واتجه نحو سيارته، تبعه جاجان ولم يستطع منع نفسه من التطرق إلى الموضوع، وقال «سترى بنفسك صحة كلامي عندما أنشر كتابي الذي يحوي على جميع أنواع العلاجات الطبيعية».

أبدى الطبيب نفاد صبر وقال له «عد إلى زوجتك، وكن إلى جانبها خلال الساعات القليلة المتبقية لها في حياتها. إن ابنك يراقبنا، اهتم بمشاعره وَأولِهِ حنانك وعطفك».

وعندما أدار ظهره إلى السيارة، رأى جاجان ابنه مالي واقفاً عند باب البيت ينظر بحيرة وحزن. اعتراه ألم كبير، وهو ينظر إلى جسده النحيل (اكتسب فجأة عند بلوغه الثامنة عشرة وزناً وطولاً) وسأل الصبي «ماذا قال الطبيب؟».

وأمضى مالي الأسابيع الأخيرة من حياة أمه في رعايتها والاهتمام بها. وفي لحظات صحوها النادرة، كانت تشير إليه، وتقبل على الطعام إذا أطعمها بنفسه. وكان يعود من المدرسة جرياً كي يطعمها. ونادراً ما خرج إلى اللعب مع أصدقائه. وعند سؤال الصبي فَقَدَ جاجان أعصابه، وأمسك بيدي ابنه وانهار باكياً بصوت عالٍ. وقد خلَّص مالي نفسه من قبضة أبيه، ووقف يراقبه عن بعد بنظَرات ملآى بالأسى والحيرة.

ورغم مرور الوقت، لم ينس جاجان قط تلك اللحظات، والألم الشديد الذي شعر به عند رؤية مالي في ذلك اليوم. وقد أصبح الحاجز بينهما واقعاً ملموساً. فقد كف الفتى عن مخاطبة أبيه بشكل طبيعي.

قال جاجان معتذراً «أوه، لا يا بني أنا واثق بأنك ستؤلف شيئاً جيداً. لا أشك لحظة في ذلك، وإنما أردت معرفة موضوع القصة. هذا هو كل شيء. وأنت تعلم كم أهوى القصص، وهل تذكر الحكايا التي كنت أرويها لك في الليل؟ وهل تذكر قصة القرد الأسود التي كنت تحبها كثيراً؟».

فقد تعمّد جاجان، بعد أن تولى أمر رعاية ابنه، العمل على صرف ذهنه عن طريق سرد القصص من البانشاتانترا (أساطير هندية)، لكن الفتى لم يبد أية إشارة بأنه تذكر تلك الأيام، أو أنه رغب بتذكيره بها. لم يظهر أي رد فعل، وأضاف جاجان «أنت تعلم بأني أيضاً كاتب، وسوف تطلع على كتابي عندما يخرج من مطبعة الحقيقة». وضحك بصوت مكتوم.

وقال الفتى بوضوح «أبي، أنت لا تفهمني. أريد كتابة شيء مختلف».

«بالطبع، بالطبع. لا تتردد في طلب المساعدة إن كنت بحاجة إليها».

وبدت الكتابة وكأنها وسيلة سهلة لكسب خمسة وعشرين ألف روبية دون الحاجة لقلي أو خبز أي نوع من الأطعمة.

وجلسا يتحدثان حتى الواحدة ليلاً. وقد استخلص جاجان معلومات وأشياء من ابنه. علم أن الفتى قص كوبون من مجلة وجدها في مكتبة الكلية معرضاً نفسه للمهانة والعقاب. قال الفتى باسماً قصصت الكوبون بواسطة سكين في وجود أمين المكتبة.

سأله جاجان بحيرة «وهل كان ذلك أمراً عادياً؟».

أجاب الفتى وقد أخرج الكوبون من بين صفحات مفكرة جيب صغيرة «بالطبع لا، لكن استطعت انتزاع الكوبون؟».

قال جاجان وهو ينظر إليه «إن كانت المجلة متوفرة في مكتبة فيكاتان كان باستطاعتك شراء نسخة مقابل أربع آنات، أو شراء عدد من النسخ قدر حاجتك».

أضاف الصبي بغموض «ذلك شيء يستطيع كل شخص فعله. لكن لطالما أردت تلقين أمين المكتبة درساً. فقد ظن أنه فائق الذكاء».

شعر جاجان بحماس كبير وهو يتحدث عن ابنه بوصفه كاتباً، وعند توجهه في صباح اليوم التالي، إلى محله لبيع الحلوى، استوقف ما لا يقل

عن ثلاثة معارف وحدثهم عن ابنه. وكان رابع شخص تحدث إليه هو كبير الطباخين، الذي ما إن وصل إلى محله، حتى استدعاه إلى عرشه وقال له «يعمل ابني حالياً على تأليف كتاب». فقال كبير الطباخين، وكانت أفكاره مشغولة بإعداد حلوى ذلك اليوم «إنها أخبار عظيمة». وقد أعرب عن اهتمامه بالتقدم الأدبي الذي أحرزه مالي. «يقول أنه سيكسب خمسة وعشرين ألف روبية لقاء ذلك، وأنه سينتهي من تأليف كتابه قبل نهاية شهر سبتمبر (أيلول). إنه فتى رائع. لم أعرف قط بأن ابني عبقري. وفي الواقع، أنت تعلم أنه ليس بحاجة لكل هذا العناء من أجل الحصول على خمسة وعشرين ألف روبية لأنها متوفرة لديه. ولكن لا أريد إعطاءه ذلك المبلغ كي يتصرف فيه، فذلك ليس من طبع جيلي. لقد تشبعنا بأفكار وقيم غاندي، وقيمة العمل والكسب الشريف».

«وبالرغم من ثروتك الطائلة، أنت رجل بسيط لا تأكل شيئاً».
قال جاجان مصححاً «إننا نأكل كي نعيش. هذا هو كل شيء. ستعرف ذلك عندما يصدر كتابي. إني أيضاً كاتب من نوع ما. هل تدري ذلك؟»
قال الطباخ «لا عجب إذاً في إقبال ابنك على الكتابة بسعادة بالغة».

وجاء ابن العم في موعده اليومي، وسمع القصة. كرر جاجان ما قاله ثم ختم قائلاً «أتمنى أن يطبق أيضاً فلسفتي في الحياة، وهي العيش ببساطة والإمعان في التفكير. هذا ما علّمنا إياه غاندي».

«صحيح، صحيح، ولكن لا أفهم لماذا تكره نفسك على العمل التجاري، وتكديس الثروة».

قال جاجان «لا أكدس المال، بل هو ينمو بشكل روتيني. ما الذي بيدي فعله؟ وبالإضافة لذلك، أعمل لأنه من واجب الإنسان أن يعمل».

وسحب الدرج وأخرج كتاب بهاجافاد جيتا، وقرأ «من واجبي الاستمرار في أداء عمل ما». ورفع صوته مضيفاً «فضلاً عن ذلك، فإن هذا الرجل وزميله الواقف هناك يعتمدان في عيشهما على العمل في محلي. ماذا كان كبير طباخينا سيفعل لولا وجود هذه المنشأة؟»

«كان لا بد له أن يعد الحلوى في مطبخ آخر. إنه طباخ ماهر، سيجد عملاً في أي مكان».

«إنك مخطئ، يا عزيزي، إن محلي هو أكبر محل للحلويات في المنطقة. هل تشك في ذلك؟».

«لا مطلقاً. كما أن طهاتك يقدمون لنا منتجات غير مغشوشة».

شعر جاجان بالرضا لدى سماعه ذلك الإطراء. ورغم ذلك، قال «لا عجب في تطلع مالي للسير في طريق جديد، ولا بد أن تختلف وجهات النظر بين جيل وآخر، وإلا لن يطرأ أي تقدم».
وقد واصل جاجان استعراض نظرياته في الحياة، والتي بدت متناغمة كروائح الزبد وجوز الطيب، والزعفران المنبعثة من المطبخ. وفجأة قال، دون أي مبرر لقوله «لطالما رفضت إضافة النكهات والملونات

الصناعية إلى حلوياتي. تستطيع استيراد أية نكهة من ألمانيا. ومن السهل خداع الناس، في هذه الأيام، وحتى أن الذواقة منهم لن يميزوا الطعم الأصيل من سواه».

علق ابن العم بلهجة فلسفية «ياله من خداع وكذب».

وقال جاجان مصدقاً على كلامه «لن أستخدم تلك المواد الضارة طالما بقيت سيداً لهذه المنشأة».

وقد عبر ابن العم عن موافقته التامة على ذلك الرأي، وخاصة أنه يأتي في كل يوم، ويبدو كمن يجمع عينات، ويرضى عن نتائج فحصها.

ساد البيت هدوءً لم يقطعه سوى تبادل بضع كلمات بين الأب وابنه. وقد بدا مالي سعيداً لأنه ماعاد مطالباً بالدراسة. وبقي جاجان راضياً عن ابنه الذي خط لحياته مساراً جديداً من صنعه.

وكثيراً ما كلَّم جاجان نفسه بفخر «بدلاً من قراءة مؤلفات الآخرين، سيقدم مالي مادة مقروءة للناس. إنه يقدم خدمةً جليلةً على طريقته». وعندما تذكر كلمة «خدمة» بدا له بأنه لكل عمل أو نشاط أهميته ونفعه. وقد حركته كلمة «خدمة» وكأنها تفسر كل شيء. كما أن جاجان سمع تلك الكلمة لأول مرة في عام 1937 عندما زار غاندي مدينة مالجودي، وألقى خطاباً في حشدٌ كبير من الناس تجمعوا حول ضفتي النهر. تحدث عن «الخدمة» موضحاً كيف أن كل عمل إنساني يحمل دلالة ومعنى، بشرط أن يقدم على سبيل خدمة المنفعة العامة. وعندما تبنى تلك المبادئ، انضم جاجان إلى حركة تحرير الهند من الحكم الأجنبي، وهجر كتبه وبيته وحياته العادية، وانتهك القوانين البريطانية التي سادت في تلك الفترة. ولم تثنه ضربات رجال الشرطة، ولا فترات السجن المتعاقبة عن التمسك بمواقفه خاصة عندما أيقن بأنه يؤدي خدمات إلى شعبه ووطنه. وكثيراً ما قال في سره «يجب أن يكون كل إنسان حراً في خدمة الإنسانية على طريقته. كما أن مالي يساهم بالفعل، من خلال كتاباته، في خدمة الإنسانية». وتساءل في قرارة نفسه ما الذي يكتبه حقاً؟ هل يؤلف قصصاً؟ وأي نوع من

القصص تلك التي يكتبها مالي؟ أم هو ينظم قصائد، أو يقدم أفكاراً فلسفيةً؟ وقد ساوره شكٌّ بشأن خبرة ابنه في الحياة، وأدواته اللازمة كي يصبح كاتباً.

وفي بعض الأوقات، اعتملت في رأسه أفكارٌ شتى، وخاصة عند جلوسه على عرشه يقلب صفحات بهاجافاد جيتا. ورغم عمق الأفكار الواردة ضمن سطور ذلك الكتاب، كانت أفكاره أقوى وأقدر على إبعاد جميع الطروحات الفلسفية، وبدا مدفوعاً للتركيز على مخطوطة مالي. أراد أن يعرف ماهي اللغة التي اتخذتها آلهة الوحي عند ابنه، وفيما إذا كتب بلغة التاميل أم بالإنجليزية أو بأية لغة أخرى. وفكر بأنه لو ألَّف مالي كتابه بلغة التاميل، فإنه سيشتهر في وطنه وحسب، ولكن إن استخدم اللغة الإنجليزية، فإنه سيعرف في جميع أنحاء العالم.

شعر جاجان بالقلق وتزاحمت التساؤلات في رأسه، وأدرك صعوبة استيضاح الأمر من مالي نفسه. فما الذي سيتحدثا عنه؟ وتراءى له بأن الفتى ابتعد عنه، وأصبح أكثر جفاءً من أي وقت مضى. وقد أصبحت الصلة الوحيدة بينهما هي عملة الخمس روبيات التي اعتاد على وضعها في كل صباح فوق الطاولة وسط القاعة الكبرى، ومن ثم يعود ليتأكد فيما إذا تم أخذها.

وخطر بباله احتمال أن يتناول الفتى غداءه وعشاءه في مطعم آناندا بهافان. وشعر بحنقٍ شديدٍ لأن أمواله تجد طريقها إلى ذلك

الصندوق. وما كاز بيده عمل أي شيء، فقد أشتهر المكان بأنه أفضل مطعم في المدينة.

لكن جاجان علم بأنهم لا يستخدمون الزبدة النقية، بل زيتاً نباتياً مهدرجاً يحفظ داخل عبوات من الصفيح، خالية من أية كتابات تدل على محتوياتها. وقد رأى بأن أصحاب المطعم سذجاً لاعتقادهم بأن خلو عبوات الصفيح من أية كتابات ستجعل الناس يصدقون بأنها زبدة حقيقية.

ومرت أيام على نهاية شهر سبتمبر، دون أن تصل إلى أسماع جاجان أية أخبار عن مصير المخطوطة، وفيما إذا تم إرسالها أم لا؟. ولم تظهر أية إشارة على ذلك. فقد كانت خطوات الفتى وتحركاته خارج قوقعته محسوبة بدقة، لدرجة أنهما، ورغم عيشهما تحت سقف واحد، تصرفا كأنهما ينتميان إلى عالمين مختلفين. وقد أدرك جاجان عند رؤيته النور من خلال شق الباب، بأن الفتى جالسٌ داخل غرفته. ولم يجرؤ قط على طرق الباب. ولأنهما نادراً ما عادا إلى البيت في نفس الموعد، لم تسنح فرصة لالتقائهما أثناء مرورهما في الردهة. وانتاب جاجان غيظ لافتقاره إلى معلومات جديدة. وعندما وصل ابن العم في موعده المحدد، وجد جاجان ساهماً وقلقاً لدرجة أنه تردد في التكلم إليه عند خروجه من المطبخ. لكنه بادره بالقول «أنعم الله عليك بنعم كثيرة، ورزقت ثروة يسعى معظم الناس لامتلاكها. كما أنك تنعم برضا ذاتي جُرِمَ منه معظم الناس. ولكنك لم تتعلم شيئاً

واحداً، وهو فن الاستمتاع بالحياة والشعور بالسعادة. إنك قلقٌ ولا تعرف السكينة طريقاً إلى قلبك».

«إن بدا الإنسان مهموماً، فإن الله وحده يعلم بأن أسباب همه موجبة. هل التقيت بمالي؟».

«لم أره منذ وقت طويل. وقد لمحته ذات مساء راكباً دراجته في شارع فيناياك. ولا تسألني ماذا كنت أفعل هناك. كما تعلم، أقصد عادة مناطق بعيدة لتقديم خدمة، أو تلبية طلب أحدهم. لا أقوم بعمل فيه مصلحة شخصية».

«وهل تحدث إليك؟».

«بالطبع لا. كان يقود دراجة، كما ذكرت لك».

«وما الذي كان يفعله في ذلك المكان البعيد؟».

سأل ابن العم «ولم لا تسأله بنفسك؟».

قال جاجان «إنه لا يجيب. وهذا هو كل شيء».

«هل حاولت؟».

«لا».

«إذن جرب ثانية».

«قد يعترض على السؤال، ويظن أني أتدخل في شؤونه».

«إن التقيت به سآتيك بمعلومات إن أردت ذلك».

«أرجوك لا تفعل. سيظن أني أرسلتك إليه».

«بالطبع، سأخبره أني أتحدث بالنيابة عنك».

بدا جاجان خائفاً عند سماعه تلك العبارة، وتصبب العرق من جبينه. وقد وجد ابن العم ضرورة لأن يقول «إنك تحيرني. لماذا أنت خائفٌ؟».

«أكره إزعاجه. لم إزعجه قط في حياتي».

«ذلك يعني أنك أوصلت الأمور إلى درجة أنك تجد صعوبة في التحدث إليه».

قال جاجان «ليس الأمر على هذا النحو». وقد رفض تقبل رأي ابن العم.

«هل تستطيع تذكر متى جرى آخر حديث بينكما؟».

ساد صمت في حين استرجع جاجان أحداثاً جرت فيما بينهما. وقد راقبه ابن العم بقسوة وهو يأكل الحلوى ببطء. وتذكر جاجان أن آخر حوار جرى مع ابنه، قد تم قبل ثلاثة أشهر ونصف. كان جالساً في الردهة يقرأ في جريدة عندما خرج ابنه من غرفته.

«هل أنت مستعد للخروج؟».

«نعم».

أصاب ذلك جاجان بالذعر، وامتنع فجأة عن الاستفسار حول أي شيء. ثم سأل ابنه «هل قرأت صحف اليوم؟».

«لا».

«ألا تريد قراءتها؟».

«إنها لا تحوي شيئاً يهمني». وسار الفتى عبر الردهة الطويلة،

وسمع جاجان حركة الدراجة، وصوت إغلاق الباب الأمامي. وجلس ساكناً وقد تسمرت عيناه في الجريدة، وقال لنفسه «حمداً لله لا يوجد مخرج يفضي مباشرة من غرفته إلى الشارع، كما عزم أبي يوماً على تنفيذه، وإلا غابت عني صورة ابني منذ وقت طويل».

ولم يكن من حاجة لذكر تفاصيل ذلك اللقاء إلى ابن العم، ولذا قال له «تكمن المشكلة في اختلاف مواعيدنا. إذ عندما أنتهي من صلاتي يكون مالي قد خرج، وقد اعتادوا في بيتنا وجوب عدم قطع صلاتي. لكن أعتقد أن جميع تلك الأشياء ثانوية. فقد ابتعدنا عن الموضوع الرئيسي. أود أن تساعدني. أرجوك إسأله عما يفعله في الوقت الحالي. كما أرجو أن تتصرف كأنك مدفوع بفضول شخصي. اعرف منه أين يذهب يومياً، وماذا حل بالقصة؟ هل أنجزها؟ اسع للقائه واجمع لي بعض المعلومات. سأكون شاكراً لك مساعدتك». «لا داعي للشكر، فمن واجبي أن أكون في خدمتك. سأبذل كل ما بوسعي لمساعدتك». وقد تصبب عرقاً لأهمية ووزن المهمة. وشعر جاجان بالارتياح.

وعاد ابن العم بعد أربعة أيام، وأخذ مكانه إلى جانب العرش. وقال «أحمل إليك أخباراً جديدة. يريد ابنك الذهاب إلى أميركا. ألم أقل لك منذ وقت أن تلك الساعة قادمة».

صعق لدى سماعه ذلك النبأ، وسدَّت الصدمة الأولية أفق تفكيره. ثم تنهد كي يهدئ من روعه، وليقلل من خوفه من

احتمال سفر ابنه، وإقامته في مكان يبعد عن الهند مسافات طويلة. وكرر في شرود «أميركا، ولماذا ينوي الذهاب إلى أميركا؟ وماذا جرى لكتابه؟ هل انتهى من كتابته؟ هل ألَّفه؟» «يعتقد أنه سيتعلم فن الكتابة في أميركا».

غضب جاجان من تلك الفكرة. فقد وجدها مشينة، ومسّت كبرياءه الوطني.

وقال، وقد غلت في عروقه عواطفه الوطنية «يريد أن يذهب إلى أميركا كي يتعلم فن سرد القصص، والأجدر به أن يقصد عجوزاً في أية قرية من قرانا القريبة».

ردد ابن العم «هذا بالضبط ما قلته له».

سأل جاجان بحدة «هل ذهب فالميكي إلى أميركا أو إلى ألمانيا كي يتعلم فن كتابة الرامايانا؟ يتمسك شباب اليوم بأفكار غريبة». وقال ذلك متفادياً ذكر ابنه، أو التلميح له. وفي تلك اللحظة قاطعهما كبير الطباخين جالباً معه روائح النكهات من المطبخ وقال «نفد مخزوننا من الزعفران، ولن يكفي ما لدينا سوى ليوم واحد». نظر إليه جاجان بذهول غير قادر على استيعاب ما قاله. وقد أجاب ابن العم بالنيابة عنه واعداً بجلب كمية طازجة. وعند عودة الطباخ إلى المطبخ سأل جاجان «هل عرفت أين يمضي يومه؟» «في المكتبة العامة».

سأل من جديد «أين تقع المكتبة». ولم يحلم قط بوجود مكتبة

عامة في مدينته. ولم يكن ابن العم واثقاً من معلوماته فأشار بيده ناحية النهر وقال «لا بد أن تكون من تلك الأشياء التي يوضع لها حجر الأساس عند قيام أحد الوزراء بزيارة إلى المدينة. وأضاف «كان لا بد أن أعرف المكان لو كان له أية أهمية. على كل حال، هل يسمحون له بالبقاء هناك لساعات طويلة؟».

«يبدو أنه يحب المكان، وينجز فيه عمله».

سأل جاجان وقد خشي أن يكون مالي قد أصبح مساعداً لأمين مكتبة «ما طبيعة عمله؟» ثم أضاف بصوت يائس «وماذا تمَّ بكتابه؟».

أجاب ابن العم «سيكتبه في أميركا».

شعر جاجان بأنه مسحوقٌ ومهموم، وبدا كأن قوى متصارعة تحوم حوله، وسأل «ما دور أميركا في تأليف الكتاب؟» «قرأ في إحدى المجلات في المكتبة حول كلية يدرسون فيها فن كتابة الرواية».

مرة أخرى شعر جاجان بأنه سينفجر غضباً لدى تذكر الروائي الشهير فالميكي أو جدة قروية، ولكنه ضبط نفسه «وما مصير الجائزة؟».

أجاب ابن العم «ربما ذهبت إلى شخص آخر. إنه لم يؤلف كتابه بعد. على كل حال، لا يمكن التسرع في تأليف كتاب».
قال جاجان، وقد تذكر فجأة كلمات ابنه في تلك الليلة «صحيح،

صحيح». ثم أدلى برأيه الشخصي حول الكتابة «رغم ذلك، أعتقد بوجوب تأليف كتاب ما».

وقد أمضيا بعض الوقت في مناقشة آليات إنتاج الكتب. وكرر جاجان السؤال «ولماذا يذهب إلى أميركا؟» وقد تجاهل وصول مبلغ من المال إلى درجه، في حين لم يظهر ابن العم رغبة في الانصراف.

«ربما لأنها البلد الوحيد الذي يعلِّمون فيه مثل تلك الأشياء».

«لا يأكلون هناك سوى لحوم البقر والخنزير. وقد تعرفت على أميركي قال لي ذلك».

وأضاف ابن العم مشاركاً بما لديه من معلومات «كما أنهم يحتسون كميات كبيرة من المشروبات المسكرة، ولا يشربون الماء أو الحليب. وتتمتع النساء هناك بالحرية التامة. لقد تصفحت بعض مجلاتهم السينمائية. كما تختلط النساء الأميركيات بحرية مع الرجال، وتنشأ فيما بينهم علاقات زوجية وعاطفية دون أي لغط، وتتعرى النساء تحت أشعة الشمس».

سأل جاجان «من أين حصلت على تلك المعلومات؟ «ولم ينتظر الإجابة من ابن العم الذي فتح ذراعيه بلا مبالاة. وتابع جاجان قوله «قد لا يكون كل ذلك صحيحاً». ولم يكن راغباً في التفكير بأن بلداً سيقيم فيه ابنه سيفسد جسده وروحه بالنبيذ والنساء واللحوم، وأشياء أخرى. ثم أضاف بتصميم مفاجئ «لكن سفر مالي أمر غير معقول. يجب أن يبقى هنا».

ابتسم ابن العم بخبث. وشعر جاجان للحظة بطعنة شك وبأن هذا الرجل يقف وراء كل ذلك، لكن سرعان ما زال شكه.

قال ابن العم «لقد أجرى جميع الاستعدادات».

صاح جاجان « بدون إذني أو مساعدتي».

«يوجد في المكتبة آلة طباعة، وقد استخدمها».

وقد شعر جاجان بشيء من الإعجاب بابنه ممزوج بالغضب من تلك المكتبة. وفجأة صاح دون أن يفكر بما يقوله «إن كانوا سيستخدمون المكتبة لتنفيذ أعمال شائنة كتلك ... !».

وقال ابن العم «هل تعلم بأنه سافر إلى مدراس، وأمضى هناك عدة أيام؟».

«هل ذهب بدون إذني أو مساعدتي، ودون إبلاغي بأي شيء؟ ظننت أنه في غرفته». وتذكر حينها الأوراق النقدية من فئة خمس روبيات، والتي لم تمس على مدار أيام متتالية. وقد ظن جاجان أن ابنه يقتصد في المصروف.

«استخرج جواز سفر، واستحضر لوازم الرحلة».

«وكيف سيؤمن تكاليف السفر؟».

«يقول إن لديه ما يكفيه من المال . قال بأنه عرف دوماً مخبأ النقود في البيت».

شعر جاجان بالصدمة للحظة، ولكنه شعر أيضاً بالإعجاب وقال بحنان «إن هذا الفتى واقعي».

وجلس ممعناً التفكير لبعض الوقت، ثم قال محاولاً التظاهر بالسعادة «كما تعلمْ نشأ معتمداً على نفسه. وكنت دوماً مؤمناً بتركه يكبر وينضج بنفسه، دون الاعتماد على مساعدة خارجية. وكما يقولون في الجيتا (قصائد الإله كريشنا عند الهندوس) «في نفس كل إنسان شيء من روح الله».

أضاف ابن العم «والإله قادر دوماً على حفظ نفسه».

قال جاجان «تلك هي النقطة الأهم. ولهذا السبب رفضت التدخل عندما قرر فجأة الانقطاع عن دراسته. وقلت لنفسي «ربما يود تعليم نفسه من مدرسة الحياة». وقد ردد صدى أفكار وتداعيات خبِرها في حياته، أو وجدها في قراءاته العشوائية.

قال ابن العم «ذلك هو بالضبط مبدأي في الحياة. أعرف الكثير عن الناس ومشاكلهم والعالم من حولهم. وهل التحقتُ بكلية حتى أتعلم فن الحياة؟».

وضحك جاجان ساخراً وقال «لكن ما زلت مندهشاً من اعتقاده بأنه يستطيع تعلم فن الكتابة في كلية أميركية. أرجوك، بوصفك ابن عمي الطيب، أقنعه بعدم الذهاب. لا أدري كيف لي أن أعيش في ذلك المنزل بدونه. إن الفكرة ذاتها تصيبني بالاكتئاب».

استجاب ابن العم للطلب بشكل تلقائي، ودون اقتناع، وقال «نعم سألبي رغبتك. لكن هل تعلم أنه أعد جميع التفاصيل بدقة متناهية؟ لقد جلب ملابسه الأميركية الطراز من مدراس».

«طلبت منه مراراً شراء كميات وفيرة من الملابس، وخاصة أن الإنسان يرتدي في الدول الأجنبية ربطة العنق والحذاء من الصباح وحتى المساء. وهل هو بحاجة لأي نوع من المساعدة من جانبي؟».

طرح جاجان ذلك السؤال مشفقاً على ابنه. وكاد أن يتوسل إلى ابن العم كي يتدخل ويفعل أي شيء لصالحه.

وسأل ابن العم بفظاظة «ما الذي تستطيع فعله؟».

«لدي صديق في مدراس، وهو نائب وزير، وكان زميلاً لي في سجن بيللاري».

«لا ضرر في طلب مساعدة صديقك، لكن مالي لا يحتاج إلى مساعدتنا. إن لأمين المكتبة شقيقاً يعمل في شركة طيران، وقد رتّب له كل شيء».

سأل جاجان، وقد شعر بخوف شديد «هل سيسافر بالطائرة؟»

«ومن ذا الذي لا يستخدم الطائرة في هذه الأيام؟»

أوشك جاجان على البكاء «أرجوك أطلب منه السفر بالباخرة. إنها أكثر أماناً. أتمنى له السلامة. لا أحب الطائرات».

قال ابن العم، وهو يستمتع بارتباك واستياء جاجان «دفع قيمة بطاقة الطائرة».

قال جاجان كطفل يهذر بكلمات لا معنى لها «لا بد أنها مكلفة».

أجاب ابن العم «تمكّن بدون شك من تأمين قيمة البطاقة».

«أمر طبيعي. ما قيمة المال بالنسبة لي. إنه ملكه بالكامل. يستطيع

الحصول على كل ما يريده». قال جاجان ذلك، وسجل في ذهنه ملاحظة بوجوب إحصاء ما لديه من مال في العليَّة في أقرب فرصة ممكنة. كما فكر بنقل كامل المبلغ إلى حقيبة سيخفيها خلف موقع آلهة العائلة في غرفة بوجا.

وفي منتصف الليل الحالك، وضع السلم وصعد إلى العليَّة. لقد أُخِذَ من ماله المخبأ هناك، عشرة آلاف روبية. وأجرى عملية حسابية سريعة «قرابة أربعة أو خمسة آلاف ثمناً لبطاقة الطائرة، والباقي لشراء ثياب وغيرها من الأشياء. ويفترض بمالي أن يطلب مزيداً من المال إن أراد، ومصروفاً شهرياً في وقت لاحق. ولم لا يطلب؟». وسمع صوت الباب الأمامي، وأطفأ المشعل وجلس ساكناً إلى أن تيقن من أن مالي أغلق خلفه باب غرفته، شاعراً كأنه لص، وليس شخصاً يتفقد ماله الذي أخذ منه عشرة آلاف روبية.

لم يخطر بباله قط أنه سيشعر بالتميز بشأن سفر ابنه إلى أميركا. وفي ذلك الوقت، وجد بأن الأمر يستحق إنفاق تلك الأموال ومعاناة ألم الفراق. وفي كل يوم كان يقول وبفخر شديد لأكثر من عشرة أشخاص «ابني في أميركا». وقد أدى ذلك لتأخير وتيرة أيامه المعتادة. ففي طريقه إلى متجره، دأب فور رؤيته طيف أحد معارفه لاعتراض طريقه. وبدلاً من الحديث معه كعادته حول أحوال الطقس والسياسة، كان يقوده بلطف إلى الحديث عن أميركا، وعن وجود ابنه هناك. وبعد أيام وأيام من الانتظار اليائس، وعندما وصلت عن طريق البريد رسالة جوية ملونة، شعر جاجان بفرح غامر، وكأن مالي قد رجع إليه. ولم يتحل بالصبر لفض الرسالة وفق تعليمات كتبت على المظروف «افتح من هنا»، بل دس أصبعه ومزقه إلى أن فتح طولياً، وأخرج الرسالة التي لم يرد فيها سوى العبارات التالية «وصلت. نيويورك مدينة كبيرة. المباني شاهقة ليست كمبانينا. تسير آلاف السيارات في الشوارع. الطعام غير مستساغ. أنزلُ في فندق صغير. سألتحق بالمدرسة خلال الأسبوع المقبل».

قرأ جاجان الرسالة بفرح وسعادة رغم انزعاجه من ذكر الفتى لكلمة «مدرسة» عوضاً عن «الكلية». وقد وصلت الرسالة في الصباح الباكر، وجلس على كرسي في القاعة الكبرى وانكب على قراءتها لأكثر من ساعة متفحصاً كل كلمة، ومتخيلاً مالي في تلك

المدينة الهائلة. ولم يستطع الاحتفاظ بتلك المعلومات لنفسه. وكان أول مكان وجد بابه مفتوحاً هو مطبعة الحقيقة، وكان مالكها ناتاراج جالساً خلف مكتبه وحاضراً دوماً للترحيب بزواره. وكان الباب نصف مفتوح وعندما اقترب جاجان منه رفع ناتاراج بصره عن سجلاته وابتسم، وسرعان ما أبلغه جاجان الخبر «وصل مالي...».

«هل تسلمت برقية؟».

«أوه لا، إنه مقتصد. لن يضيع عشره روبيات في حين تفي عشرة سنتات بالغرض. هل لديك أية فكرة عن قيمة السنت في عملتنا؟».

أجرى ناتاراج عملية حسابية سريعة، وقال «يساوي الدولار خمس روبيات، وسبع روبيات في السوق السوداء، كما أخبرني أحد زبائني، وإن كل مائة سنت تساوي دولاراً».

ثم توقف عن عمليات الضرب والقسمة، وفضل تغيير مجرى الحديث «ستردك فوراً معلومات مؤكدة».

«نعم، أدري أنك ما إن تتابع أمراً، حتى تحصل على معلومات وافية عنه. وكما تعلم فإن الاطلاع على أسعار العملات يقدم لنا خدمة جليلة».

وبعد ذلك التصريح تحول في حديثه إلى أميركا. قال «إنه بلد يحوي مباني شاهقة وأعداداً كبيرة من السيارات. آمل أن يجد ابني غرفة في طابق أرضي، وليس في مكان شاهق».

قال ناتاراج «أبناؤنا فائقو الذكاء، وقادرون على رعاية أنفسهم في أي مكان في العالم».

لدى سماعه ذلك الرأي السديد وإقراره به، خرج جاجان من باب المطبعة متجهاً إلى محله. وقد لمح عند تقاطع خط كابير طيف محامي الاستئناف، وصفق له واستوقفه. وكان بوسعه التعامل مع المحامي بتلك البساطة نظراً لأنهما درسا معاً في مدرسة آلبرت ميشين قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وانضما أيضاً إلى الحركة الوطنية (رغم نجاح المحامي ببراعة في الإفلات من السجن).

ابتسم المحامي كاشفاً عن لثة فارغة إلا من سن واحد. وقد تناثرت ذرات من الغبار فوق وجنتيه غير الحليقتين، وقال «يجب أن أعود سريعاً إلى البيت حيث ينتظرني بعض الأشخاص».

قال جاجان «لن آخذ من وقتك أكثر من دقيقة. أشعر بأنك ستكون سعيداً لو علمت أن مالي بعث لي رسالة».

«هل تلقيت برقية؟».

«ما خطب الناس؟». وقد شعر جاجان بالغيظ لشدة انشغال الناس بالبرقيات.

«على كل حال لماذا تنفق عشر روبيات عندما تفي أربعة سنتات في إيصال رسالة خلال أربعة أيام؟».

قال المحامي «أربعة أيام! لا، لا بد أنك مخطئ. تستغرق الرسالة أكثر من ذلك. يتطلب وصولها ما لا يقل عن خمسة عشر يوماً».

عند ذاك انتهى الحديث بينهما. كيف يجرؤ ذلك الرجل على التحدث عن أميركا بينما يوجد هناك من يعطيه معلومات صادقة. إن أفكار الناس متحجرة. إنهم كضفادع داخل بئر.

وعلى بعد خطوات، رأى الصيدلاني واقفاً عند مدخل صيدليته ينظر بعيداً ناحية الشارع. وقد حياه جاجان بحرارة فرد التحية بود كبير «أراك متأخراً اليوم؟».

قال جاجان وهو يقترب منه بشوق «نعم، أعلم. فقد تأخر ساعي البريد اليوم، وكما تعلم عندما يكون لشخص ما ولد في الغربة...».

«هل وصل بسلام إلى أميركا؟».

«نعم كنت قلقاً على مدار يومين أو ثلاثة. وإن بعض الشباب يبددون أموالهم على البرقيات، في حين لا تكلف الرسالة سوى عشر تلك الكلفة، ولا يستغرق وصولها أكثر من يومين. إنه مقتصد كما تعلم».

«ماهي كلفة الرسالة بالبريد؟ أريد الحصول على كاتالوج توزعه بالمجان مؤسسة سيرس روباك. إنه كتاب مفيد، كما تعلم، ويحوي معلومات مفيدة حول مختلف الأشياء». وأوشك جاجان على التأوه عندما سأله الرجل «ماقيمة خمسين سنتاً، وهي أجرة إرسال الكاتالوج؟» ومضى في طريقه، وقال في سره «لا مثيل لابن العم، الذي يستحق كل ما يتناوله من حلويات لقاء استعداده إلى الاستماع. كما أن باقي سكان المدينة منشغلون بأفكارهم الشخصية، وهم جهلة يمانعون في تنويرهم حول أميركا. وعندما كان جالساً على كرسيه، اقترب منه كبير الطباخين ليسأله حول برنامج ذلك اليوم. وقد كرر جاجان الصيغة

المعتادة، ثم أضاف عبارة بدت كأنها من نكهات الوجبة «وصل مالي بسلام إلى الطرف الآخر من العالم، وقد سرني ذلك. إنه بلدٌ كبير يحوي عدداً هائلاً من السيارات. هناك يملك كل شخص سيارة».

أنصت الطباخ باحترام ثم استدار دون تعليق. وقد شعر جاجان بارتياح لأن الرجل لم يتوقف ليسأل عن البرقيات أو عن قيمة السنت. وكان عليه الالتزام بالهدوء حتى الرابعة والنصف مساءً عندما وصل ابن العم ودخل مباشرة كي يأكل ثم خرج من المطبخ. قال جاجان بصوت خفيض «وصل الفتى بسلامة إلى الطرف الآخر من العالم». وعرض جزءاً من الرسالة كتكريم خاص يقدمه لابن العم حيث يسمح له برؤية الرسالة، بينما اكتفى بذكرها لآخرين.

قال ابن العم متلمظاً بشفتيه «أخبار رائعة. عرفتُ أنه سيكون بخير».

«لم يرسل برقية».

«حسناً، ولماذا يرسل برقية؟ إن الرسائل تصل بسرعة في هذه الأيام. يجب أن تقدم جوزتي هند للإله جانيشا القابع عند ركن في المعبد».

قال جاجان «سأفعل ذلك بالتأكيد». وبدا كأن هناك عقداً مبرماً بينه وبين الإله يتعلق بسلامة ابنه. «سأقدم الهبات للإله مساء هذا اليوم».

قال ابن العم «سأشتري في طريقي جوز الهند». وعلى الفور أخرج جاجان من درجه عملة معدنية وأعطاها له.

«أشعر وكأن حملاً ثقيلاً قد أنزاح عن كتفي اليوم. إذ عندما يسافر شخص ما في رحلة طويلة، وخاصة إن كانت بالطائرة، أشعر دوماً بقلق رغم محاولتي تجاهل الأمر».

قال ابن العم «أعرف ذلك، ما أخباره؟».

«إنه بالطبع معجب بالتجربة الجديدة. تكثر هناك المباني الشاهقة والسيارات. آمل أن يكون حذراً في تنقله بين الشوارع. يقول إن الطعام جيد، وقد سررت لذلك. تعلم أن أميركا بلد أصحاب الملايين. إن الجميع هناك أغنياء».

وقد أثبت مالي أنه أكثر تواصلاً عبر البحار، ورغم أنه بدا، في بعض الأوقات، جافاً وغريب الأطوار، إلا أنه استفاض في وصف المظاهر الحضارية التي تحيط به من كل صوب. وقد كثرت الرسائل الجوية الزرقاء حتى شكلت ملفاً. ولو حرص مالي على ترك هامشٍ كافٍ في رسائله، لكان جاجان قد جمعها في مجلد صغير وأنيق في مطبعة الحقيقة، ولكان ناتاراج قد أدرك بالتأكيد أهميتها، وعمل على تصنيع المجلد بسرعة. وقد ملأ جاجان جيب جبته بالرسائل، وكان يخرجها كي يقرأ بعض مقاطعها إلى جميع الناس بلا استثناء، وعلى الأغلب لابن العم الذي، كعهده دوماً، ظل مستمعاً صبوراً. وشيئاً فشيئاً حلت الرسائل الجوية الزرقاء مكان قراءته لمجلد بهاجافاد جيتا. ومن خلال دراسته للرسائل رسم صورة لأميركا، وغدا قادراً على الحديث باستفاضة وثقة عن الريف والثقافة والحضارة الأميركية. ولم

يكن يبالي بمن يستوقفه ليتحدث إليه، حيث بدا كل من يلتقيه في الطريق أهلاً لذلك. وخشي معارفه أن يكون قد أصيب بمرض الثرثرة. ومنذ لحظة خروجه من بيته، دأب جاجان على إلقاء نظرة سريعة على الحي بحثاً عن وجه مألوف، وسرعان ما قفز كصقر نحو الضحية الغافلة كي يتحدث عن ابنه بحماس. وقد وصل به الأمر إلى درجة إيقاف المتسول يوماً من أجل وصف الجراند كانيون في نيويورك. وقد أنهى حديثه بالقول «في الواقع ليس هناك مثيل له في العالم». وقد أعطاه خمس بيزات تقديراً لحسن استماعه. وبدا الأمر كأنه مسألة حظ بالنسبة لرجل آخر، فإما أن يهرب بعيداً في الوقت المناسب، أو يعلق في حبال العادات والتقاليد الأميركية. وقد وجد جاجان جميع الناس ضجرين أثناء حديثه، ولذا عمل على نقل أخبار مالي بسرعة كبيرة. وقد تولد لديه شعور بوجوب كبح جماح أفكاره لحين الموعد المبارك لوصول ابن العم، والذي أظهر حماساً للاطلاع على المزيد من المعلومات عن أميركا.

وقد أعرب ابن العم عن رغبة دائمة لرؤية الرسائل بنفسه، لكن جاجان قاوم تلك الرغبة، واحتفظ بالرسائل في مكان أمين، ولم يسمح لشخص ثالث بلمسها.

ويوماً بعد آخر، جمع ابن العم معلومات حول الحياة والعادات الأميركية ونقلها إلى دائرة مستمعيه. وسرعان ما علم معظم سكان مالجودي أنه، في كل عام، يقضي في أميركا خمسون ألف شخص

بسبب حوادث الطرق، وكيف انهار الناس في الطرقات عند سماعهم نبأ اغتيال كنيدي، وتجمعوا حول كل شخص لديه راديو من نوع ترانزيستور من أجل الاستماع إلى آخر الأخبار. كما شعر جاجان بأنه قادر على وصف الحادث كأنه شاهده بنفسه. وصف بدقة بالغة موكب كنيدي في ذلك اليوم المشؤوم، وكيف أنه اختلط في ذات الصباح في مدينة دالاس بجماهير حاشدة، وكيف لامس المئات ملابسه وشعره تعبيراً عن عواطف جياشة. ولم يوفر على مستمعيه أية معلومة حول مقتل أوزولد (قاتل كنيدي) لاحقاً.

وكانت الرسالة الوحيدة التي كتمها جاجان هي التي كتبها مالي بعد مرور ثلاث سنوات على عيشه في أميركا وكتب فيها «اعتدت على تناول لحم البقر، ولا أظن أني مخطئ في ذلك. فإن لحم العجل لذيذٌ وشهي. وأتساءل حالياً عن السبب الذي يمنعكم من تناول لحم البقر. فإن من شأن ذلك أن يحل مشكلة قطعان البقر العديمة الجدوى في بلدنا، ولن نحتاج بعدها لطلب الغذاء من أميركا. أشعر أحياناً بالخجل عندما تطالب الهند بمساعدات أميركية. وعوضاً عن ذلك، لم لا نذبح الأبقار العديمة الفائدة، والتي تسرح في الشوارع وتعيق حركة المرور؟». وفي ذلك اليوم، شعر جاجان بغضب شديد. فقد حددت الشاستراس الذنوب الخمسة القاتلة، وعلى رأسها قتل الأبقار.

وبينما أمعن التفكير في الأمر، وجمع أقوالاً وردت في الشاستراس وبعض كتابات غاندي، كي يضمنها في رسالته إلى مالي، وصلت برقية

ذات صباح «عائد إلى الوطن، وبصحبتي شخص آخر». شعر جاجان بالإرتباك، وتساءل «من يكون ذلك الشخص؟» وانتابته هواجس وظنون فضلاً عن حيرة منعته من التباحث في الأمر مع ابن العم، خشية انتشار خبر وصول «شخص آخر» في جميع أرجاء المدينة. وقد صحت أسوأ ظنونه عند وصول القطار ذات مساء ونزل مالي وفي صحبته «الشخص الآخر» إلى جانب عدد كبير من الحقائب وضعت فوق رصيف المحطة. وكان مشهد الحقائب بالذات مع الصناديق المثبتة بشرائط لاصقة، والتي شكلت في مجموعها خطاً انسيابياً، قد أصاب جاجان بالانزعاج والشعور بالدونية. كما تمكن الحمال العجوز بالكاد من حمل ذلك العدد من الحقائب، رغم قدرته عادة على رفع عشرات الصناديق والسلال، دون مشقة. وفي الوقت ذاته، وجد ضرورة لطلب المساعدة من فتى يعمل في محل لبيع السجائر. وظل مالي يتمتم دون تحريك رأسه أو شفتيه «كونوا حذرين. توجد أشياء قابلة للكسر. كما كلَّف شحن هذه الحقائب أموالاً طائلة». وتراجع جاجان إلى الخلف، دافعاً ابن العم أمامه كي يتحدث إلى مالي، ويتم عملية الاستقبال. فقد بهت عند رؤية ابنه الذي بدا أطول قامةً وأعرض بنيةً، وأكثر بياضاً. وكان يسير بخطوات واسعة، وهو يرتدي بزة سوداء ومعطفاً، ويحمل حقيبة صغيرة، وكاميرا ومظلة.

وشعر جاجان أنه يتابع شخصاً غريباً. وعندما اقترب مالي منه ماداً يده، حاول الابتعاد والوقوف خلف ابن العم. وعندما توجب

عليه مخاطبة ابنه، كبح نفسه بصعوبة كبيرة من مناداته بلقب «سيد» واستخدام لغة التبجيل والتعظيم.

وقد زاد الطين بلة عندما أشار مالي إلى الفتاة الواقفة بجانبه وقال «أعرفك بجريس، زوجتي. وهذا هو أبي، يا جريس».

إنها مفاجأة كبيرة، هل تزوج؟. متى تزوجتَ؟ لمْ تُخبرني. أما كان من واجبك إبلاغ أبيك؟ ومن تكون تلك الفتاة؟ على كل حال تبدو كأنها صينية. ألا تعلم بأن المرء لا يستطيع، في أيامنا هذه، الزواج من فتاة صينية؟ لقد غزت القوات الصينية حدودنا... وقد تكون يابانية. وكيف يمكن للمرء أن يعرف الحقيقة؟ ومن شأن أية أسئلة طائشة أن تزعج الرجل الأنيق حامل الكاميرا. ورمى جاجان ابن العم بنظرة خائفة، وسار بعيداً بحجة الإشراف على تحميل الحقائب في سيارة غفور. وقد تبعهم أشخاص مذهولين وهم يتمتمون «عاد من أميركا». وقد حيّا مالي السائق غفور بقوله «سيارتك القديمة قوية». ولم يعرف غفور تفسيرا لتلك العبارة أهي مجاملة أم نوعاً من السخرية. وجلس جاجان وابن العم في المقعد الأمامي بجانب غفور تاركاً المقعد الخلفي لمالي وجريس. وقال غفور دون أن يدير رأسه «لماذا لم تجلب لي سيارة؟». وقد خشي جاجان أن تزعج عفوية غفور ابنه مالي، لكن الشاب القادم لتوه من محيط ديموقراطي، قال «يا ليتك طلبت مني ذلك. لقد بعت سيارتي من نوع بونتياك قبل عودتي». ورغم انشغاله بقيادة السيارة، أخذ غفور في وصف حالة البلاد مع

تلميح للسيارات التي يتوجب عليك الانتظار لمدة خمس سنوات حتى تحصل على سيارة من نوع فيات، وإن كنت سفيراً تنتظر لمدة ثلاث سنوات فقط. واستطرد غفور في وصف حالة الاستيراد المحظور، وكيف تم تحطيم سيارة من طراز بلا يموث بعدما صادرها رجال الجمارك. وقد ابدى الشاب القادم حديثاً من أميركا استياءه، وأطل برأسه من نافذة السيارة قائلاً «لم يتغير شيء».

وأما جريس فقد نظرت بإعجاب إلى الشوارع والأسواق وقالت «المكان رائع، رائع».

قال مالي «عزيزتي، عيشي في هذا المكان، وسترين كيف يكون عليه الحال». ولدى سماعه ذلك، تساءل جاجان عما إذا كان من الأفضل مناداتها بلقب «عزيزتي»، أو باسم جريس.

إن الوقت كفيل بتسوية المسألة. وعند اقترابهم من التمثال، سألتْ «ما هذا؟». ولم يجبها أحد. وقد انتاب جاجان شيء من التوتر عند اقترابهم من البيت الواقع خلف التمثال. ولدى توقف السيارة، قفز منها، وصعد السلالم كي يفتح الباب الرئيسي. وقد أمضى أسبوعين في ترتيب بيته كي يلبي متطلبات ابنه. وتحت إشراف زوجة الطبيب التي يعرفها ابن العم، أنفق جاجان ثروة لبناء حمام ومرحاض مجاورين لغرفة نوم مالي. كما أجرى عملية طلاء للجدران، وجلب طاولات وكراسي جديدة. وقد توجه مالي مباشرة إلى غرفته كي يغتسل، ويبدل ثيابه. وغادر غفور وابن العم بعد أن كوّما الصناديق

في الردهة. وتُركَتْ جريس واقفة بمفردها داخل القاعة الكبرى. قال لها جاجان «إجلسي في ذلك الكرسي»، ولم يجد ما يقوله لها غير ذلك، لكنه سرعان ما قال لها «أطلبي ما تشاءين، وسأجلبه لك. لا أدري بالضبط ماذا تريدين».

قالت وقد سُرتْ باهتمامه ولطفه «كم أنت لطيف!».

وجرّت كرسياً وقالت «إجلس من فضلك. لا بد أنك تعب».

قال جاجان «شكراً، أنا رجل فائق النشاط، وذلك هو سر الطاقة البشرية... «وقطع كلامه عندما لاحظ حيرة وارتباكاً في وجه الفتاة. «يجب أن أخرج، فكما تعلمين يجب أن أعود إلى متجري، وإلا...».

«حسناً، أرجو أن تعود إلى عملك».

قال بصوت عالٍ «خذي راحتك». ثم خرج بسرعة بينما لا زال مالي في الحمام.

فيما بعد، آثر جاجان تجنب الناس. واعتراه خوف من احتمال أن يستوقفه المحامي أو صاحب المطبعة أو أي شخص آخر، كي يسأله عن زوجة ابنه. كما حرص على السير بسرعة نحو محله، وقد أطرق رأسه. وقد وصل به الأمر إلى درجة أن لم يعد يتحدث طويلاً إلى ابن العم، كما امتنع عن ذكر ابنه، وغدا كل ما يتعلق به غير مقبول. وقد أراد ابن العم معرفة ما حققه مالي في أميركا، وما هي خططه المستقبلية، والاستفسار عن تلك الفتاة القابعة في البيت. كان يتحرق

شوقاً لمعرفة طبيعة الترتيبات الغذائية المتبعة داخل منزل جاجان، وعما إذا كانا يطهوان اللحوم. وقد استفسر بطريقة غير مباشرة، عندما قال «هل ما زال مالي يحب قهوتنا، أو يطلب الشاي كما يفعل بعض العائدين من بلاد أجنبية؟».

وقد فهم جاجان الهدف من سؤاله، وقال كي يضع حداً نهائياً لجميع التساؤلات «لا يهمني ما يأكله أو يشربه أحدهم. ولا داعي لتدخلي في هذا الشأن. يوجد في المطبخ معدات لإعداد الطعام، ومن واجبهما معرفة كيفية تدبير أمورهما».

«كل شيء سيكون على مايرام بالنسبة لمالي. لكني أفكر بالفتاة».

«أوه، إنها بخير. كانت تطهو له وتطعمه من قبل، وأعتقد أنها ستكون حالياً قادرة على ممارسة نفس المهام».

وعندما شعر فجأة بأن ابن العم جدير بعد كل ما قدمه أن يحصل على بعض المعلومات، أضاف «لا أستطيع أن أقدم لهما سوى ما اعتدت عليه. وإذا كانا يفضلان غير ذلك، يستطيعان تناول الطعام في أي مكان آخر».

«علمت أنهم يقدمون في البالاس هوتيل طعاماً أوروبياً». «مهما يكن الأمر، يستطيع المرء القيام بواجبه إلى درجة محددة. وحتى أنك تجد ذلك مذكوراً في الجيتا. إن واجب الإنسان محدد تماماً».

غيَّر ابن العم الموضوع، فقد وافق يوماً بعد يوم على كل ما جاء في الجيتا حتى ملّ منها. وعندما شكلت رسائل مالي الجوية الموضوع الرئيسي، تراجعت أهمية الجيتا وتعاليمها إلى المكانة الثانية. والآن

عادت الجيتا إلى الواجهة، مما سبب لجاجان الاضطراب والتوتر.

وبين الحين والآخر، حضر أحد أصدقاء مالي القدامى للقائه. وكان يجلس مع الصديق داخل القاعة الكبرى، ويتحدث إليه بصوت خفيض، كما هي عادة النبلاء. ولم تكن لدى جاجان أية وسيلة لمعرفة ما تحدثا به. ربما وصف لهم مالي المدفع الكبير، أو الجريت كانيون، كما أسماه، أو تمثال الحرية، وزحمة حركة المرور في شوارع نيويورك. وكان جاجان على معرفة واسعة بجميع تلك الأشياء، وبوسعه مشاركتهم الحديث، لكنه شعر بأن ذلك سيكون نوعاً من الجرأة إن لم يدع لذلك. ومن أجل تحقيق هدفه، عمد أحياناً إلى المرور عبر الردهة عندما كان مالي يعزف على الجرامافون، أو يشغل مسجلاً للصوت أو يستعرض أمام صديقه كاميرا البولارويد، أو أحد عشرات الأشياء التي جلبها معه، والتي ضمت هدية مغلفة خاصة بجاجان. وقد وضعتها جريس في يده قائلة «أبي، هذه لك». قدمتْ له علبة صغيرة صفراء تحوي ملاعق وشوك وسكاكين. وتفحص العلبة، وقلبها بين يديه وقال «جميلة، ولكن ما الفائدة منها؟» أجابت جريس «إنها علبة خاصة بالنزهات. ظن مالي أنك ستقدر قيمتها».

قال جاجان، وهو يتساءل عن كيفية استخدام محتويات العلبة «بالطبع، إنها رائعة». وقد وضع العلبة داخل خزانته الشخصية. ولم يعد مالي يلبس الدوطي داخل البيت، واستعاض عنه بسروال

أسود وقميص أبيض، وانتعل حذاء منزلياً. ولم يعد يغادرغرفته إلا نادراً، ولا يدخل إلى أي جزء آخر من البيت. كما أنه قليلاً ما خرج من المنزل، وحرص على زيارة أصدقائه في المدينة بعد حلول الظلام، وذلك بعد أن يرتدي بعناية فائقة سترة وربطة عنق، وجورباً وحذاءً. وكان يتأبط ذراع جريس، ويتمشى في طريق فرعي، ولم يقصد قط الاتجاه المؤدي إلى السوق. وقد تصرف كأنه أحد المشاهير الراغبين بتجنب العامة والغوغاء.

وفي ذات صباح، فتحت جريس الستائر الصفراء التي تفصل البيت إلى قسمين، ودخلت إلى القسم الخاص بجاجان، وقامت بتنظيفه. ولم يكن قد اعتاد على تلقي أية مساعدة، وشعر بشيء من الانزعاج عندما رأى فراشه وقد نفض عنه الغبار، ووضع في مكان خاص به. كما نفضَتْ الغبار عن وسادته القاسية المحشوة بالقطن، وغسلتْ الأطباق في مطبخه، ورتبتها بعناية فوق رف. وأمسكتْ جريس بمكنسة، ونظفت كل ركن في بيته قائلة «أبي، هل تظن أني كارهة لهذا العمل؟ لا، يجب أن لا أنسى أني أصبحت زوجة هندية».

لم يجد جاجان كلمات مناسبة فتمتم «صحيح بالتأكيد». وقد انحنت وأخذت في تنظيف الحوض في المطبخ المصنوع من الجرانيت، والموضوع على مستوى الأرض. وقد رفعتْ طرف ثوبها الساري (والذي تعلمت كيفية ارتدائه) كاشفة عن ركبتين عاجيتي اللون. وقد

احتج وقال «أوه يا جريس، ليس من واجبك تنظيف البيت. لم أتعود على ذلك. لا تتعبي نفسك، فأنا أؤمن بوجوب خدمة نفسي بنفسي».
قالت «وأنا أؤمن بوجوب مساعدتك وخدمتك. وهذا هو كل شيء. أحب العمل داخل البيت، وإلا كيف سأقضي بقية يومي؟».

وبات جاجان الذي كان يؤدي صلواته أمام الآلهة في غرفة بوجا، يلاحق جريس في أرجاء المنزل، ويتلاعب بالسبحة بين أصابعه. وقال لها «ماذا سيقول الناس إن رأوا فتاة عصرية نشأت في نيويورك وهي تؤدي كل هذه المهام الشاقة؟ وقد يعترض مالي أيضا».

قالت «ليس ذلك من شأنه. إنه يكتب الرسائل، وأنا أنظف البيت. هذا هو كل شيء. وهذا هو أجمل بيت رأيته في حياتي».

«ألا تجدينه قديماً، وبحاجة إلى إصلاحات؟».

«لا، إنه رائع. ولطالما حلمت بالعيش في مكان كهذا البيت».

وفي تلك الأثناء أصبح جاجان يتأخر في الخروج، بعد أن اعتاد على انتظار جريس. كما بات محباً للنظام والنظافة اللتين أضفتهما اللمسات الأنثوية على بيته.

وفي أحد الأيام قالت جريس «أتمنى أن تسمح لي بأن أطهو لك».

«أوه، هذا مستحيل. لقد عاهدت نفسي على أن أعد طعامي بيدي».

قالت جريس «شيء رائع». وكانت تلك أول فرصة تسنح له للحديث عن عاداته. وقد شجعه حماسها للاستفاضة في وصف

طعامه الخالي من الملح والسكر، وأنهى كلامه بالقول بأنه يفترض بها التطلع لقراءة كتابه عند صدوره عن مطبعة الحقيقة. فقالت بحماس «أنا متأكدة من أنه سيكون من أفضل الكتب مبيعاً في البلاد».

وعند أول فرصة سنحت له سألها «ما الذي حققه مالي؟ أعني بقولي هل أنهى دراسته، وحصل على شهادة دراسية في أميركا؟».

رفعت جريس بصرها عن طبق أخذت في دعكه، وسألت «ألم تعرف؟» عند ذاك شعر جاجان بضرورة التعتيم على علاقته بابنه، وعدم الإفصاح عن حقيقة الأوضاع بينهما، وقال «لم تسنح لي، في الواقع، الفرصة للتحدث مع مالي حول هذه الأمور، و...»

«نعم، نعم أفهم قصدك. ولكن كان من واجبه أن يبلغك».

صاح جاجان «لا تنظري إلى الأمر بهذه الطريقة. لست أشتكي».

أجابت بهدوء «بالطبع. لا. ما زلت أقول بأنه يفترض بمالي أن يبلغك. وأعتقد بأني سأطلب منه التحدث إليك. فإن الأمر مهم. وإذا لم يتحدث إليك، فما الداعي من وضع أية خطط؟»

«نعم، هذا ما كنت أفكر به. أود الاطلاع على خططه».

قالت «ستطلع عليها قريباً».

قال جاجان «ظننت أنه سيذكر شيئاً ما في رسائله، لكن كما تعلمين لم أطلع من خلالها سوى على معلومات خاصة بموطنك».

عند تلك النقطة، نهضت على قدميها بضحكة رنانة، وقالت

«أوه يا أبي، هات واحدة من تلك الرسائل وسأخبرك بـ ...».

سأل جاجان باستغراب «ماذا تقولين؟ وما معنى كلامك؟».

«هل لديك أي من تلك الرسائل؟ سأوضح لك...». اتجه نحو خزانته المفضلة، وأخرج صندوقاً من الكرتون المقوى صفت داخله جميع الرسائل الزرقاء، وأخذ يقلبها. «ها هي الرسائل. لا أدري ما الرسالة التي تريدين رؤيتها؟». وكان ما زال متردداً كونه لا يسمح لأي شخص بلمس تلك الوثائق الثمينة، ولكنه لم يستطع قول ذلك لجريس.

صاحت «أوه، لديك مجموعة كبيرة». وسحبت إحدى الرسائل بشكل عشوائي، وقالت «ها هو». وأشارت إلى توقيع ظهر في نهاية الرسالة، وأضافت «هل تستطيع قراءة هذا التوقيع؟».

وضع جاجان نظارته وقرأ بصوت مرتفع «ج. إم، أليس كذلك؟».

«صحيح. ألم تلحظ ذلك من قبل؟ ظننت أنك تعرف «ج. إم يشيران إلى الحرفين الأوليين من جريس ومالي، أي أنا وهو، إذا بعد أن....» وصمتت قليلاً ثم أضافت «كتبت جميع تلك الرسائل، مع أننا وقعناها سوية».

سأل جاجان وقد ابتلع لعابه بصعوبة «هل أنت من كتب تلك الرسائل؟ وكيف لي أن أعرف؟ لم أعلم قط أنك موجودة في حياته».

«ألم يكتب لك مالي بنفسه؟»

بقي جاجان صامتاً. إذ لن يفيد كلامه أحداً. وصلى بصمت إلى

روح غاندي كي يسامحه على الكذبة التي أوشك على النطق بها.

«نعم، نعم، لكن لم أكن أعلم بأنك أنت التي ألفت تلك الرسائل».

«ما الذي قاله مالي عني؟ هل صدمت؟»

«لم يصفك. وكيف يمكن لشخص أن يكتب عن آخر ويصفه بالكامل؟ فإن الكلمات لا تنقل عادة إلا القليل. ولهذا السبب رأيت أنه سيسير في طريق وعر عندما عبر عن عزمه بأن يصبح كاتباً...».

وكان يتحدث على نحو مفكك عندما وضعت جريس المكنسة جانباً، واقتربت منه وجلست إلى جانبه، وقد تدلت ساقاها على درجات الساحة الأمامية للبيت. وأضاف جاجان «لم أكوّنْ من خلال كتاباته فكرة وافية عنك. وقد ذكر لي مرة بأنه سيتزوج. ولم أعرف الكثير عنك، وحتى هذه اللحظة لا أعرف عنك شيئاً سوى أنك فتاة طيبة».

«هذا هو كل ما يفترض أن يشغل العقل، أليس كذلك؟ ولماذا نسأل أو نرغب بمعرفة المزيد؟».

لم يسمح جاجان لتلك الفرصة بأن تتسرب من بين يديه وقال «من عادات بلادنا أن نسأل عن مكان ولادة ونشأة المرء، وعن عمله وصفاته العامة، ومن ثم ننتقل إلى أشياء أخرى».

«لا يسأل عن تلك التفاصيل، في الدول الأخرى، سوى رجال الجمارك وجباة الضرائب. ورغم ذلك، ونظراً لكوني أصبحت الآن هندية، فمن واجبي التعود على بعض الأشياء، وأن أخبرك بشيء ما. إن أمي كورية الأصل تعرفت إلى أبي عندما كان يخدم في الجيش

الأميركي، في منطقة الشرق الأدنى، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد ولدتُ في نيوجيرسي بعد عودة أبي في إجازة إلى وطنه مصطحباً أمي. وقد استدعي ثانية إلى الجيش خلال فترة احتجاز أمي و...»

«وظلت صامتة لدقيقة ثم أضافت «لم يعدْ ثانية. وقررت أمي البقاء في أميركا. وقد درستُ في مدرسة مارجريت. هل سمعتَ عنها؟».

قال جاجان «لا، ما نوعية تلك المدرسة؟».

«إنها مدرسة خاصة بالإناث، أمضيتُ فيها أجمل أيام حياتي».

قال جاجان «لا بد أنها مدرسة جيدة». وقد اعتاد على التقاط المعلومات الصغيرة عن الحياة الأميركية، ومن ثم يبني عليها أشياء وأشياء.

«درست العلوم المحلية في جامعة ميتشيجن، وقد التقيت بمالي هناك عندما جاء لإجراء دورة في الكتابة الإبداعية. وقد جلس إلى جواري أثناء مباراة لكرة القدم. أوه، يجب أن تشاهد مباريات كرة القدم في ميتشيجن. هل لديكم أشياء مماثلة؟».

«نعم، نعم، لدينا مباريات كرة قدم يشارك فيها جميع طلبة المدارس».

«ظننت أنه كتب إليك حول جميع تلك الأشياء».

«نعم، ولكن الرسائل تضيع أحياناً. وقد علمت قبل أيام أن صديقاً اشتكى إلى مدير البريد بأن رسائله لا تصله بانتظام».

سألته فجأة «أنت سعيد في حياتك، ألست كذلك؟». وقد أومأ برأسه موافقاً.

وأضافت «سمعت كثيراً عن النظام الطبقي في هذا البلد، وخشيت المجيء، وعندما رأيتك في محطة القطار ارتعدتُ خوفاً. فقد ظننت أني لن أكون مقبولة بينكم. وكما تعرف، كان مو رائعاً وتحلى بجرأة كبيرة كي يصحبني معه».

قال جاجان بود «لم نعد نؤمن في هذه الأيام بنظام الطبقات. وقد ناضل غاندي من أجل إلغائه».

سألت ببراءة «هل اختفى حالياً؟».

أجاب جاجان كأنه سياسي محنك «إنه في طريقه إلى الزوال. لم نعد نفكر فيه في هذه الأيام». وتمنى في سره بأن تكف الفتاة عن تفحصه.

وفي أحد الأيام اقتحم مالي غرفة أبيه كي يسأله «ألا تستطيع جلب هاتف إلى المنزل؟».

قال جاجان «لم أفكر به قط».

«إن كل شيء يبقى على حاله. إنه وضع متخلف ورجعي.

كيف لنا أن ننجز أي عمل بدون وجود هاتف؟».

أراد جاجان أن يقول «على كل حال، ماجودي مدينة صغيرة، ومعظم سكانها متجاورون، ويستطيعون التحاور فيما بينهم بسهولة ويسر». لكن مالي تابع كلامه «يفيد الهاتف أيضاً في ترويج بضاعتك أيضاً. إذ لو كان عندك هاتف لانهالت عليك الطلبات. سيكون بمقدور الناس شراء الحلوى عن طريق الهاتف».

لم يرد جاجان سوى بعبارة «لم أفكر قط في الأمر»، في حين أنه أراد أن يجيب «إن مبيعاتي اليومية تصل إلى كذا وكذا بدون هاتف، مما يثبت حقيقة أن الراغبين في تناول الحلوى، يأتون إليه ويشترون منتجاته دون الحاجة إلى الهاتف».

قال الفتى «شعرت بالإحراج عندما عجزت عن إعطاء رقم هاتفي إلى شركائي».

«من هم شركاؤك؟ وما طبيعة تلك الشركة؟».

صاح مالي «جريس، هل تنضمين إلينا؟ إننا نبحث حالياً أموراً تجارية».

استولى على جاجان خوف مفاجئ من احتمال التباحث مع مالي في أمور تجارية، رغم سروره بأن ابنه سيتحدث إليه في نهاية الأمر. فقد كان في أحدى حالاته القليلة من التواصل وهدوء المزاج. وأدرك جاجان من خلال الأسلوب الحذر الذي اتبعته جريس، وذلك في احتجابها عن اللقاء، بأنها هي التي دبرت له. وقال مالي «أبي دعنا ندخل القاعة الكبرى. يوجد هناك كراسي». وكان جاجان يستعد للذهاب إلى محله، ولكنه رأى بأن الأمر يستحق تعديل روتينه اليومي. وقد طرأ مؤخراً، وبسبب أشياء كثيرة، بعض التغيير على جدول أعماله المعتادة.

أطاع جاجان ابنه وسار خلفه، وجلس على كرسي داخل القاعة التي لم تطأها قدماه منذ أسابيع خلت. وقد لاحظ أن جريس أدخلت تعديلات جميلة على المكان الذي ازدان بالستائر وقطع السجاد،

وأغطية الطاولات. كما عُلِّقت لوحتان حديثتان على الجدران. وقد وجدهما جاجان مدهشتين، ولكنه اكتفى بكلمة «نعم» عندما سألته جريس «أليستا رائعتين؟». كما وضعت وسائد ملونة فوق الكراسي المصنوعة من خشب الخيزران. وضم أصيص صغير وضع في وسط الطاولة، بعض أوراق المارجوزا. وقد خفق قلب جاجان لدى رؤيته للأوراق. وقال «المارجوزا هي طعام الآلهة كما ورد في الفيداس، هل تعرفين ذلك، يا جريس؟».

أوشكتْ على احتضان الأصيص، وصاحت «شيء رائع. كيف علموا بذلك؟ لقد ذكر كل شيء في الفيداس، إنهم يعرفون كل شيء».

«بالطبع هم يعلمون. لقد انبثقت الفيداس من أقدام الإله».

هتفت جريس «يا له من مفهوم رائع». وقد تأثرت بكل شيء في محيطها الجديد، وأثيرتْ في أعماقها عواطف رقيقة وشاعرية».

وقد حذرها مالي «لا تبتلعي أوراق المارجوزا، يا عزيزتي».

قال جاجان «لا ضرر منها. إنها مهدئ طبيعي، وتنقي الدم، وتزود الجسم بالحديد...». وقد برقت عيناه عند وصفه لمزايا أوراق المارجوزا. وأضاف «شرحتُ تلك المزايا بالتفصيل في كتابي. وعندما تقرئينه ستدركين فائدة تلك الأوراق...».

وقد أخذت جريس في تنسيق أزهار وأوراق المارجوزا داخل الأصيص باهتمام وتركيز فائقين، وكأنها حظيت بميزة التعامل مع عطور الآلهة نتيجة زواجها من رجل هندي.

وقد مضى وقت طويل لم ير فيه جاجان وجه ابنه عن قرب. وفي ذلك الوقت، رأى أن النضارة وشعاع الغربة اللذين ملآ وجهه عند وصوله قد تلاشيا، وبدا كأنه مريض. ولم يعد يقبل على الطعام الهندي النكهة، بل بات معلوماً بأن يتناول طعامه من علب محكمة الإغلاق. وقد تعمد جاجان الامتناع عن إبداء ملاحظاته، رغم شعوره بالحزن لدى رؤيته هالات سوداء تحت عيني ابنه. ما الذي يقلقه يا ترى؟ وانتظر جاجان بصبر كي يتحدث إليه مالي. وقد لاحظ أنه يرتدي جورباً تحت صندله. وكاد أن يصيح «يجب عدم ارتداء الجوارب، لأنها تؤدي بالتأكيد لتسخين الدماء عبر تداخلها مع الإشعاع الطبيعي الذي ينبثق من أخمص القدمين، فضلاً عن عزل الجسد عن الشحنات المغناطيسية المفيدة التي يبعثها سطح الارض. وقد شرحتُ في كتابي بأن هذا هو أحد الأسباب حدوث الأزمات القلبية في الدول الأوروبية...». وفي حين كان مشغولاً بتلك الأفكار، لم ينتبه إلى أن مالي كان يتحدث إليه. سمع الصوت لكن فاته فهم محتوى الكلمات. وقد توقع أن يطول الاجتماع، وأدرك في حينه وبخوف شديد، أنه ربما ضيع فرصة العمر. وقد تنبه بسرعة، واستدعى جميع قوى التركيز، لكن مالي أنهى حديثه بسؤال «هل فهمت الفكرة؟». وقد تردد جاجان واحتار في الإجابة بكلمة «نعم» أم «لا»، لكنه جلس محدقاً أمامه، وتنحنح بنحنحات مبهمة.

قال مالي «حسناً، فكر بالأمر. تتوفر لديك الآن جميع

المعلومات». ثم نظر إلى ساعته ونهض متمتماً «يجب أن أتحقق في محطة القطار عن موعد تسلم أمتعتي، التي لم أحملها معي، والمتوقع وصولها اليوم. لو كان عندنا هاتف .... «واتجه نحو الباب ثم استدار نحو جريس وقال «لا تنتظريني على الغداء». وقد سمعا صوت دراجته البخارية تبتعد شيئاً فشيئاً.

جلس جاجان ساكناً، يستمتع بهدوء وبهجة نابعتين من محاورة ابنه لبعض الوقت. وعندما نهض كي يخرج، فتحت له جريس الباب وسألته «هل كانت لديك أية استفسارات تريد استيضاحها من مالي؟ هل كل شيء واضح؟».

أجاب جاجان مبتسماً «أستطيع دوماً العودة إلى الموضوع، أليس كذلك؟».

قالت جريس «بالطبع».

الفصل السادس

في تلك الأيام، وجد ابن العم جاجان متردداً في الحديث عن ابنه. لكن اعتماداً على فرضية أن مواصلة الحوار أمر حتمي قال «هل علمت بأن مشاجرة عنيقة شهدها السوق مؤخراً؟ فقد احتكر تاجر السكر المخزون كعادته و....» قال جاجان، وكان جالساً على عرشه، ورائحة الزبد المقلي تملأ المكان «أصبح تجارنا قساة القلوب».

«ما عليك سوى الانتظار لترى ما سيحلِ بتجار الأرز. إنهم يلعبون بالنار».

«حتى عندما يرغب أحدهم بتحقيق أرباح، يجب أن يحتفظ بقدر من الشعور بالمسؤولية تجاه الناس، والعمل بمبادئ الخدمة العامة. لم أرفع الأسعار هنا، رغم أزمة السكر». قال ابن العم متملقاً «ليس كل الناس على شاكلتك». فقد امتهن المجاملات، واعتبرها مهنة تكسبه عيشه. وحتى عندما كان يمزح أو يذم أحدهم، فقد كان ذلك كله جزءاً من نفاقه. قال «لست من الأشخاص الذين يعرفون كيف يجمعون المال. ولو كنت قاسي القلب، لكان بوسعك بناء عدد من القصور».

سأل جاجان «وماذا يفعل المرء بعدد من القصور؟» وقد استشهد بشعر كتب بلغة التاميل ويقول بأنه لو طافت برأسك ثمانون مليون فكرة، .فإنك لن تستطيع ارتداء أكثرمن أربع

قطع من الثياب، أو تناول أكثر من طبق صغير من الأرز.
قال ابن العم ساخراً، وهو يحشو قطعة من التبغ داخل فمه «لهذا السبب أجزم أنك لا تجيد فن الحياة والرفاهية، ورغم ذلك اختارتك آلهة الثروة وفضلتك على سواك».

ضحك جاجان بسعادة، وشعر بأن الرجل يستحق جرعة صغيرة من المعلومات بشأن مالي، فقال «وصلت متأخراً هذا الصباح لأن مالي أراد التباحث معي بشأن خططه». وكان شديد الفخر لكونه أصبح قادراً على ذكر شيء جديد عن ابنه. وعند ذاك تنبَّه ابن العم، وجلس بهدوء كي ينصت لكل كلمة. وصمت جاجان قليلاً بعد ذلك التصريح، وملأ ابن العم الوقت بقوله «لمحته هذا الصباح على دراجة بخارية. هل اشترى واحدة؟».

«علمت أنها ملك لأحد أصدقائه. لا بد أن يكون لديه وسيلة نقل».
سأل ابن العم «من يكون ذلك الصديق ياترى؟ هل يقود أصدقاؤه دراجات بخارية؟ إن أحدهم هو ابن وكيل الكيروسين، والآخر هو الرجل الذي جاء من البنجاب ليؤسس مصنعاً للأزرار. وتعود دراجة بخارية أخرى لابن شقيق قاضي المنطقة ـ وأنت تعرفه. إنه يعمل في قسم الأعمال العامة، ويتولى حالياً مهمة الإشراف على شق الطرق في الهضاب».
قال جاجان معمماً الفكرة «في هذه الأيام يجب أن يحصل الأبناء على سياراتهم الشخصية، فهم لا يحبون الانتقال من مكان إلى آخر سيراً على الأقدام. ومن جانبي، أكره وسائل النقل، وأفضلّ تحريك

قدمي. لكن، هذا زمن السرعة، ويجب أن ينتقل الناس من مكان إلى آخر بسرعة كبيرة. إنهم مطالبون بأداء مهام أكبر من تلك التي كُلِفنا بها في شبابنا. ألا ترى ذلك؟ لم يحب مالي قط السير على قدميه، وامتلك منذ صغره دراجة هوائية. وقد اشتريت له أول دراجة عندما كان عمره سبع سنوات، واستطاع الوصول بواسطتها إلى أي مكان. وقد اكتشفت أنه وصل، في بعض الأوقات، بدراجته إلى شارع ايلام، غير آبه بكثرة الناس في شارع السوق.

«حتى الكبار يتجنبون شارع السوق في المساء».

«لكن ذلك الفتى لم يخش قط شيئاً. كما أحب الاعتماد على نفسه، منذ صغره، في حين اتصف أقرانه بالدلال والكسل».

«لكن الفتى المسكين كان حزيناً بسبب مرض أمه».

«ذلك سبب آخر دفعني لصرف ذهنه عن التفكير بمرضها».

وأخذ الحديث بين الرجلين يتشعب نحو سلسلة من القضايا الفرعية. لكن ابن العم حاول العودة إلى الموضوع الرئيسي، وقال «كنت على وشك أن تطلعني على خطط مالي. لا بد أنك مرتاح حالياً».

«نعم، نعم، وقد عرفت دوماً بأنه لا داعي للقلق، وأن كل شيء سيكون على خير ما يرام».

«والآن، هل لديك أية فكرة عن خططه؟».

«نعم. ولكنه كان مسرعاً في طريقه، هذا الصباح، إلى محطة السكة الحديدية، ولم يسعفه الوقت سوى لإعطائي فكرة عامة.

وسوف يطلعنا، بالطبع، على التفاصيل لاحقاً». وكان ذلك أقصى ما يمكن أن يفصح عنه جاجان دون أن يخون جهله. سأل ابن العم فجأة «هل تؤيد مشروعه؟».

سأل جاجان وقد بدا مندهشاً «أي مشروع؟». ولم يخطر بباله قط أن هناك أي مشروع. وصمت ابن العم للحظة، في حين ملأت الضجة التي أحدثها خروج طلبة المدرسة المكان. وكالعادة وقف مجموعة من الأطفال حول الكشك الأمامي محدقين في الحلويات المصفوفة في الصواني. وصاح جاجان «كابتن، لا تسمح للحشود بالوقوف هناك، إنهم يعيقون حركة السير». لكن، لم تكن حركة المرور هي شغل جاجان الشاغل، حيث كثرت العراقيل في شارع السوق، بل أشياء أخرى. فقد وقفت في وسط الطريق بقرتان تعودان لبائع حليب، بالإضافة لثور بني اللون لا يعود لأحد. وقد لاحق الثور البقرتين متودداً، مما أدى لتفريق المشاة والعربات والدراجات. كما حمل بعض الفلاحين الحبوب والفاكهة كي يبيعوها في السوق، وكانوا يقفون في حلقات وسط الشارع، مما اضطر الدراجات والعربات والسيارات للسير بينهم دون أن يؤدي ذلك لإيذاء أي منهم. ولم يعترض أحد أو يبدي انزعاجه. لكن جاجان كثيراً ما ذكر كلمة «عرقلة» لأن مشهد الأطفال أمام محله سبب له ضيقاً لدرجة الشعور بالذنب، أحياناً. وقد فضل أن يبتعدوا عن المحل دون النظر إلى الحلويات بشهية، وكأنهم جوعى. وكان من عادته، كلما شعر بتوتر عصبي، مناداة الكابتن، وإصدار أمر ما.

في ذلك الوقت، أدرك ابن العم أن كلمة «مشروع» أثارت ألماً في نفس جاجان، وقد راقب وجهه برضا. كما كره ابن العم تجنب جاجان ذكر ابنه، وشعر بأنه تحول فجأة إلى غريب ومتطفل. ولأنه كره تلك الصفة، وجد الفرصة مناسبة لكي يعود كفرد من أفراد العائلة. وقال «لم أجد ضرورة للتحدث إليك في الأمر، ولكني سعيد لأن الفتى ما زال يناديني بلقب «العم» كلما التقي بي. وعلى الرغم من سفره إلى أميركا، وتمضيته بضع سنوات هناك، لم ينس عمه. وكما تعلمْ، لم أرغب بالاندفاع نحوه عقب عودته إلى الوطن، لأن طباع الناس تتغير، وخاصة عندما يهاجرون إلى مناطق بعيدة. أعرف ضابطاً عاد من بلد أجنبي أنكر معرفته بوالديه عندما حضرا لاستقباله في محطة القطار».

«إنه شخص مرعبٌ، لا بد أنه مجنون. لا يمكن لمالي أن يكون مثل ذلك الشخص».

«أعلم ذلك، ولهذا السبب سأخبرك بما جرى معي. زرت في الأسبوع الماضي منزل الطبيب، وكان مالي يتحدث إلى ابنه. هل تعرف بيتهم في المنطقة الحديثة؟ ذهبت إليهم لأني وعدتهم بأن أجد لهم طاهياً جيداً، لأن زوجة الطبيب تعاني من مرض ما. وأجد لزاماً عليَّ تقديم بعض الخدمات إلى بعض الأشخاص».

«هل ابن الطبيب ومالي صديقان؟ ظننت أنهما ...؟».

نعم، وقد جلسا يتحاوران في الشرفة الأمامية. وأثناء مروري

ناداني مالي وقال «أرجو ان تعطيني، قبل ذهابك، بعضاً من وقتك».

وقلت «أجل يا مالي، أنا في خدمتك». وبعد إنجاز مهمتي داخل المنزل، خرجت وقال مالي «أريد مرافقتك».

«هل أراد المشي؟ ظننت أنه لا يحب المشي مطلقاً».

«سار حتى البوابة فقط. أراد أن يحدثني في غياب صديقه».

سأل جاجان، وقد أصبح كلياً تحت رحمة ابن العم «ماذا قال لك؟».

أجاب ابن العم بسرعة «يريد تصنيع آلات لكتابة القصص».

شعر جاجان بدهشة بالغة لدى سماعه تلك العبارة، ولم يستطع إخفاء دهشته. وطرح سؤالين مشوشين، ثم لاذ بالصمت.

راقب ابن العم وجهه مستمتعاً بالارتباك الذي علاه، وقال وقد رسم نظرة بريئة «ألم تسمع عن آلات لكتابة القصص؟». وقد ذكر اسم الآلة وكأنها شيء يستخدم يومياً. وعدَّ ذلك نصراً ثانوياً حققه فيما يتعلق بالمعلومات الخاصة بالحياة الأميركية. وفي ذلك الوقت، أدرك جاجان أنه من الأفضل له الاعتراف بالهزيمة، والتخلي عن جميع المظاهر الخادعة. وقد استغل ابن العم ذلك وأضاف «ظننت أنه أخبرك بكل شيء. وهل حدثك هذا الصباح عن أمر آخر؟».

ورغم شعوره بالإحباط والغضب، قال جاجان بعجرفة «اضطررنا للتباحث في أمور أخرى، وأخبرني عن أشياء مختلفة».

«لكنه مشغول هذه الأيام بهذه الفكرة، وهي لا تغيب عن باله ليلاً أو نهاراً».

قال جاجان «نعم، نعم، علمت بالطبع أنه كان يتحدث عن آلة، ولكن طرأ شيء ما قبل أن أطلب منه توضيح الفكرة».

قال ابن العم «هذه ليست آلة عادية».

في تلك اللحظة أطلق جاجان صحيته الدورية «كابتن، لماذا يتواجد حشد من الناس أمام المحل؟». لكن ابن العم تابع بنبرة تسلطية «استمع الآن بإمعان. إن هذه الآلة، كما علمت، أداة مفيدة لكتابة القصص».

سأل جاجان بدهشة حقيقية «كيف تقوم الآلة بهذا العمل؟».

أجاب ابن العم «لا تسألني. لستُ مهندساً. لقد استخدم مالي مراراً كلمة «إليكترونية» أو «كهربائية» أو شيئاً من هذا القبيل، وشرح لي الفكرة باستفاضة. يبدو لي الأمر مثيراً، لم لا تسأله بنفسك؟ أنا واثقٌ من أنه سيوضح لك كل شيء بسرور ورضا».

انتظر جاجان الفرصة المناسبة، وعندما حضرت جريس في صباح اليوم التالي لتنظيف المطبخ، تقدم بطلب لمقابلة ابنه «أريد التحدث مع مالي، هل هو مشغول حالياً؟».

«لا، وإن كان مشغولاً، فإنه سيفرغ نفسه من أجلك». وصمتت، ثم سُمِع صوت طقطقة الآلة الكاتبة في غرفة مالي. «أعتقد أنه مشغول. سأبلغه بطلبك». وخرجت ثم عادت بعد بضع دقائق، وقد بدا على وجهها سيماء الاهتمام «سيراك بعد ربع ساعة».

شعر جاجان للحظة كأنه متسول يقف أمام بيته، ولمعت في ذهنه صور من أيام سابقة، عندما كان مالي يقف بالباب، متوسلاً من أجل

تلبية رغبة أو لطلب المال، وقد دهش من مقدار التحول الكبير الذي طرأ، بمرور الوقت، على علاقته بابنه. ثم قال محاولاً إعادة الأهمية إلى شخصه «يجب أن أخرج الآن»، لكن جريس عادت إلى المطبخ دون أن تجيب. ولعجزه عن اتخاذ قرار سريع، فتح خزانة ووقف يحدق النظر في زجاجات فارغة وأوراق مجموعة في رزم، وقد احتفظ بها تطبيقاً لنظرية الاحتفاظ بالأشياء لمدة سبع سنوات متتالية. وجاء صوت جريس من المطبخ «في يوم ما سأرتب لك تلك الخزانة. إننا بحاجة لإجراء عملية تنظيف كبرى في هذا المنزل».

ولكن جاجان المذهول والخائف من تلك الفكرة، قال بشيء من الحدة «لا تقتربي من الخزانة». وفي نفس الوقت، توقفت الآلة الكاتبة، ورنَّ جرس، وقالت جريس «إنه مستعد للقائك. هل تريد الدخول إلى غرفته؟». بدا بأنها تحيط مالي برعاية واهتمام كبيرين، وتعامله كأنه شخصية مهمة. وسارت أمامه، وقالت «إنه نظامي، كما تعلم». سُرَّ جاجان من قولها، ودهش في آن معاً. وقد حضَّر نفسه للمقابلة. ونظر إلى ساعة جدارية، وتمتم «يجب أن أخرج في خلال ربع ساعة».

جلس جاجان في كرسي الزوار، ونظر إلى ابنه لبرهة، ثم تطرق مباشرة إلى الموضوع «كيف تعمل آلة سرد القصص بالضبط؟»

أجاب مالي «شرحت لك طريقة عملها يوم أمس».

«لم أستوعب بعض النقاط لأني كنت في سرعة من أمري».

نظر الابن بشفقة إلى أبيه، ونهض وفتح صندوقاً كبيراً، وأخرج مجموعة من الأوراق البنية اللون، ثم حمل جهازاً صغيراً، بدا كمذياع، ووضعه فوق الطاولة». انتظرتُ طويلاً وصول هذا الجهاز. وقد اضطررت صباح يوم أمس لتخليصه من مكتب السكة الحديدية. كم يضيع من الوقت عندنا. لم أر في حياتي بلداً يُضيّع أبناؤه أوقاتهم كما يجري عندنا». وقد امتنع جاجان عن التعليق. وأضاف مالي «وجدنا هذه الآلة مناسبة لتحقيق هدفنا». وفي ذلك الوقت، وقف مالي إلى جانب الآلة في وضعية الأستاذ المحاضر، وضرب على الآلة برفق وإعجاب وقال «بواسطة هذه الآلة يستطيع أي شخص كتابة قصة. اقترب، وسترى كيف تعمل». وقد أرجع جاجان ظهره. وللحظة من الزمن شعر بفخر به، وقال في سره «الله وحده يعلم ماذا يأكل من تلك العلب المغلقة. إنه يبدو متعباً، لكنه أصبح أكثر طولاً وضخامة». وفي نفس الوقت، أخذ مالي في توضيح كيفية عمل الآلة «هل ترى هذه المفاتيح الأربعة؟ أحد تلك المفاتيح للشخصيات، والثاني للمكان والحبكة الروائية، والثالث للعقدة، والمفتاح الرابع وضع على أساس أن القصة تتألف من شخصية ومكان وعقدة، وعن طريق الجمع الصحيح بين ....». وقطع كلامه للحظة كي يفتح درجاً وينظر إلى ورقة لفت على شكل إسطواني، وأغلق الدرج وعاد كي يكمل «تستطيع العمل على هذه الآلة وكأنها آلة طباعة. وما عليك سوى تحديد عدد الشخصيات، وعندها تعمل الآلة بواسطة

أداة الكترونية وصمامات عادية، وهي مضمونة تماماً. وعما قريب سنضيف إلى الآلة جهازاً صغيراً يمكننا من تقسيم أية قصة إلى فصول وأقسام».

وسأله جاجان «هل تريد استخدام هذه الآلة لكتابة القصص؟».

«نعم، سأقوم بتصنيعها وبيعها في هذا البلد. وقد عرضت شركة أميركية التعاون معنا. وبمرور الوقت ستتوفر هذه الآلة في كل بيت في بلدنا، وسننتج من القصص ما يفوق عددها في أي بلد آخر». ونحن اليوم متخلفون قليلاً. وباستثناء رامايانا وماهابراتا، تلك القصص القديمة، لا توجد لدينا كتابات عصرية، في حين أنه في أميركا لوحدها، يصدر في كل موسم ثقافي عشرة آلاف كتاب. ونظر ثانية نحو الورق الملفوف، وألقى عليه نظرة، قبل أن يكمل «نعم، عشرة آلاف عنوان. إنه شيء ضروري لكل بلد. وليس المطلوب من أي كاتب سوى شراء هذه الآلة والضغط على المفاتيح، وسوف يحصل، في خلال دقيقة واحدة، على الصيغة مطبوعة على ورق، ومن ثم يبني باقي القصة...».

ونهض جاجان من كرسيه، واقترب من الآلة كي يتفحصها، وكأنه كائن قادم من الفضاء الخارجي. اقترب منها بحذر وقال له مالي «المسها لترى بنفسك». ونظر جاجان إلى الجهاز عن قرب وقرأ ما كتب بأحرف واضحة «الشخصيات، طيبة، شريرة، محايدة، العواطف، الحب، الكراهية، الانتقام، الإخلاص، الشفقة، الشخصيات،

الأحداث، الحوادث. العقدة، المكان والنهاية». بدت الآلة جميلة المظهر بسطحها من خشب الماهوجاني ومفاتيحها الخضراء والحمراء والصفراء، والتي تشير إلى أقسام مختلفة. وسأل جاجان «كيف يمكن لشخص ما أن يكتب قصة بواسطة هذه الآلة؟».

أجاب مالي «كما يفعل بالضبط مع الآلة الكاتبة». وقد أعجب جاجان بكم المعلومات التي جمعها حول تلك الآلة.

وفي تلك اللحظة بالذات، دخلت جريس ووقفت إلى جانبهما، وقالت مازحةً «ألا تمتاز هذه الآلة بالذكاء؟». لم يجبها جاجان على الفور، فقد كان ذهنه مليئاً بالاستفسارات والاضطراب. وشعر بأنه مطوقٌ، وقد فقدت الغرفة صورتها الأصلية، وبدت كمكتب في بلد أجنبي. وتساءل ما الذي يفعله مالي، وما هو دوره في كل هذا العمل، وما طبيعة مشاركته فيه. وقال بشيء من الخوف «جريس، هل تعلمين أن أجدادنا لم يكتبوا الملاحم وحسب، بل رددوها عن ظهر قلب. وقد حُفظتْ تلك الكتب على ألسنة الناس، وانتقلت من جيل إلى آخر....».

وقبل أن يستطرد في كلامه، قال مالي باستهزاء «أوه، هذا ليس زمن أجدادك. علينا اليوم منافسة الدول المتقدمة، ليس في مجالات الاقتصاد والهندسة وحسب، بل في حقل الثقافة أيضاً». وإذ شعر جاجان بالسرور لأن ابنه بات منفتحاً، بعد سنوات من الصمت، شعر من جانب آخر بالحزن من نوعية التحول الذي طرأ عليه.

وتابع الفتى «إن كان عندك وقت، سأشرح لك نقطتين إضافيتين أو أكثر». ونظر جاجان إلى ساعة كبيرة وضعت فوق طاولة مالي، وهز مفاتيح محله القابعة في جيب جبته، وأضاف مالي «في نهاية الأمر ، قد تضطر للتخلي عن تجارتك وصناعتك للحلوى كي تعمل في مشروعنا. وسأخصص لك غرفة أنيقة مكيفة الهواء مع سكرتيرتين».
لم يعرف جاجان قط أن ابنه يتحدث بتلك الطلاقة، وتمنى في سره أن يتكلم بطريقة مختلفة. وقد وجد بأن الوقت أصبح مناسباً كي يطرح أسئلته «هل يكتبون في أميركا جميع قصصهم بواسطة هذه الآلة؟». وقد طرح السؤال كأنه يرغب في ملء ثغرة في معلوماته حول ذلك البلد وحضارته.

قال مالي «في معظم الأوقات».

أضافت جريس «باتت معظم المجلات تعتمد اليوم في أقسامها الثقافية، وخاصة القصصية منها، على هذه الآلة. كما أن ثلاثة كتب حققت أفضل المبيعات في العام الماضي، كانت نتاج هذه الآلة. وتقضي الخطة بأن يساهم شركاؤنا الأميركيون بحصة تبلغ مائتي ألف دولار بشرط أن نوفر واحداً وخمسين ألف دولار كبداية للمشروع».

سأل جاجان «كم يساوي واحداً وخمسين ألف دولار ...».

قاطعة مالي بشيء من الانزعاج ظهر في صوته «احسبها بنفسك. ودعني الآن أكمل كلامي. سيتولى الأميركيون مسؤولية تشغيل

الآلة، وتأمين العاملين، بالإضافة لمساعدتنا على تأسيس المصنع، وإدارته لمدة ستة أشهر. ثم سيعودون إلى وطنهم. كما أنهم سيوفرون لنا المادة اللازمة لتطوير عملنا. وقد دهش جاجان مما سمعه في حين أضاف مالي «علينا جمع تسعة وأربعين ألف دولار من المشاركات العامة، ومن ثم ستصبح إدارة المشروع في متناول أيدينا». حتى تلك اللحظة ظن جاجان أن ابنه مغفلاً. ونظر لبرهة من الوقت إلى جريس، ثم سأل «ماذا درستِ في الكلية؟».

أجابت «قلت لك أني أحمل شهادة في الاقتصاد المحلي من جامعة ميتشيجن».

سأل مالي «ولماذا تطرح الآن كل هذه الأسئلة؟».

قال جاجان «كنت أتساءل فيما إذا كانت جريس قد درست أيضاً مواد تجارية». وفي تلك الأثناء جاء دور مالي كي يتساءل عما دفع أبوه لطرح ذلك السؤال.

وقد خرج جاجان دون أن يجيب. وعند حضور ابن العم عند الرابعة والظهر مساء، سأله «هل لديك أية فكرة عن قيمة خمسين ألف دولار في عملتنا؟».

قال ابن العم «أكثر من لخين من الروبيات».

«كيف عرفت ذلك؟».

«عن طريق عملية حسابية بسيطة. وقد تحققت من ذلك عندما التقيت يوم أمس بدودهاجي، صاحب بنكنا، وذلك إثر لقائي بمالي».

تعجب جاجان «لخان اثنان. أين يجد المرء ذلك المبلغ؟».

قال ابن العم فجأة مازحاً «في دفتر حساباتك البنكية».

«هل يعتقد الناس أني جمعت ثروة طائلة؟».

«نعم، بالطبع، رغم أن الجميع معجبون بأسلوب حياتك البسيطة، وعاداتك الفكرية الراقية».

«كيف نستطيع جمع ثروة، وأسعار المواد الغذائية مرتفعة على ما هي عليه اليوم؟ لم احتفظ بهذا المحل، إلا من أجل هؤلاء العمال المساكين الذين سيرمون في الشارع إن فقدوا عملهم. وهذا هو كل ما في الأمر».

قال ابن العم «هذا ما يدركه الجميع. هل تنوي شراء الزبيب؟ رأيت كمية طازجة منه في السوق، وهو من نوعية جيدة».

«هل سألت الطاهي؟».

«أخبرني أنه بحاجة إلى الزبيب لأني لم أجد اليوم صنف السوهان بابدي لذيذاً بدونه».

صاح جاجان بغضب «إذن هذا ما كان. لماذا لم يخبرني؟».

قال ابن العم «لأنك لم تأت في الموعد المناسب، ولم يستطع الانتظار لكي أجلب له طلبه. ولماذا غضبت بشدة؟».

«لأني لا أحب خداع زبائني. هل تعلم أن سعر الحلوى بالنسبة للزبائن تبقى على حالها سواء بالزبيب أو بدونه».

قال ابن العم «ويرتفع هامش ربحك».

حدق جاجان به بدهشة، وقد أضاف ابن العم «أنت كائن

نادر، ويا ليت بعض الناس يطبقون هذه الأفكار والمبادئ القيِّمة».

قال جاجان، بعد أن هدأ قليلاً، وبشيء من الفخر «أخرَّني مالي، الفتى المسكين. من واجبي أن أمنحه الوقت الذي يحتاج إليه حالياً، وإلا سوف يقع بيننا سوء فهم كبير. إن ذهنه منصرف حالياً إلى قضايا مهمة. ويبدو أنه تعلم أشياء كثيرة في أميركا».

«يريد أن استخدم نفوذي لبيع حصص في الشركة».

شعر جاجان براحة وقال «أنا واثق من أن عدداً كبيراً من الأشخاص سيهتمون بعرضه».

«بمن فيهم شخصك الكريم».

«لا ضرر من إيجاد خمسة أو عشرة شركاء».

«لكن مالي يفكر بطريقة مختلفة. لقد أبقى حصة صغيرة في الشركة كي توزع على خمسة أو عشرة شركاء صغار. وهو يعتمد عليك في تأمين واحد وخمسين ألف دولار من أجل تدشين المشروع».

«وهل عرفت قيمة هذا المبلغ من الروبيات؟».

«قرابة لخين ونصف».

«أين يجد المرء ذلك المبلغ؟».

«أشرت لك قبل قليل».

«وهل يفكر مالي بهذه الطريقة أيضا؟».

«نعم، وقال لي إنه يعرف أين تحتفظ بأموالك النقدية التي لم ترسلها إلى البنك».

قال جاجان «هل قال لك ذلك؟»، وضحك في سره لأنه غيَّر المكان الذي يخبئ فيه أمواله النظيفة». وأضاف بشعور من الثقة والعظمة «إن الأموال تفسد النفوس».

قال ابن العم «هل أطلب من العامل الواقف عند الكشك الأمامي بأن يرمي جرة البرونز بعيداً؟».

وضحكا سوياً على النكتة، ولكن شعوراً بالرضا والاسترخاء لم يدم طويلاً. وسرعان ما كرر جاجان بجدية «آمل أن تجد الفرصة المناسبة لكي تبلغ ابني بأن لا أملك ذلك المبلغ الكبير من المال». «إنكما تتبادلان حالياً الأحاديث. لم لا تبلغه بنفسك؟».

تنهد جاجان وقال «لا أريد تعكير مزاجه».

وارتفعت وتيرة مطالب مالي. ورغم أن جاجان طلب ذات مرة لقاء ابنه، تمنى في سره، أن لا يكون الجليد قد ذاب فيما بينهما.

ومنذ ذلك اليوم، أصبح جاجان مطارداً على الدوام. كما شعر بأن خطواته تغدو محسوبة ومراقبة فور دخوله إلى البيت، وأن وجهه خاضع دائماً للتمحيص والدراسة بحثاً عن كلمة «نعم» أم «لا». حدقت جريس في وجهه لهدف ما. وقد حرص مالي فور وصول أبيه إلى البيت، على القدوم إلى غرفته بحجة ما. وبعد المواجهة في ذلك اليوم، عمد جاجان إلى تجنب الخوض في جميع الأحاديث العامة أو الخاصة. وكلما سمع وقع أقدام تقترب منه، كان يقول في سره «هناك خطة لإفلاسي. هل يعقل أن يأخذوا مني واحداً وخمسين

ألف دولار؟ لست مولعاً بجمع المال، لكني لست مستعداً لتبديده. وهل نحن في حاجة إلى قصص أو إلى آلات تكتبها؟».

وفي أحد الأيام، وقف مالي عند مدخل غرفة بوجا بعد تناوله طعام الفطور، وكان يرتدي سروالاً أزرق اللون، وقد أسند يديه على عتبة الغرفة بينما جلس جاجان أمام صور وتماثيل الآلهة. وقال لأبيه «إنهم يستعينون حالياً بالآلات لأداء جميع أنواع الأعمال. هناك غسالات آلية، هل رأيت إحداها؟».

قال جاجان «لا» وقد تجنب الإشارة إلى أية آلة.

«في العالم المتحضر، يستخدمون حالياً الآلات لطحن الدقيق وصنع الخبز، أو إجراء العمليات الحسابية، وكل عملٍ آخر». ومن خلفه وقفت جريس وأضافت «كما توجد آلات مخصصة لإصلاح أقلام الرصاص».

قال مالي، وقد استدار نحوها «كان من واجبنا جلب تلك الآلة معنا». وأصبح مالي، الذي لم يسع قط إلى لقاء أبيه، يتدخل في خصوصياته، وحتى إن كان داخل غرفة بوجا، حيث بات يقاطعه في صلاته. وقد قابل جاجان ذلك الإزعاج بسلبية عن طريق إغماض عينيه، والتمتمة ببعض الرقى والتعاويذ، إلى أن قالت جريس «يجب أن لا نقطع عليه صلاته». وقد وجد جاجان في الصلاة وسيلة لانعزاله عن محيطه. لكن الصلاة تنتهي إن آجلاً أم عاجلاً، ويستحيل أن يستمر الإنسان في التعبد إلى ما لا نهاية.

وفي تلك الفترة، أصبح جاجان جباناً. فما إن ينهي صلاته حتى يسير على أطراف أصابعه نحو المطبخ كي يجهز فطوره الخالي من الملح والسكر، ثم يزدرده بسرعة بالغة، قبل أن يلبس جبته ويخرج بأقل قدر ممكن من الضجة. ولكنه كان دوماً يجد جريس في الممر مستعدة لفتح الباب له مودعة مع بعض الكلمات حول أحوال الطقس أو السياسة، ومحدقةً في وجهه في استفسار واضح حول رأيه بالآلة. كما ذهل من شدة اهتمامها بمستقبل مالي ومشروعه. وكعهده دوماً، تنازعه شعوران، وهما تقديره لاهتمامها بمالي، وامتعاضه من إصرارها على إقحامه في مشروعهما التجاري. ولم يندفع مالي نحوه إلا بالقدر القليل، وترك المهمة لجريس، وحتى أن زياراته إلى غرفة بوجا في الصباح الباكر، بدت وكأنها بوحي من زوجته. وقد انتابت أفكاره بعض الهواجس، وتساءل عما إذا كان لطف جريس وودها واهتمامها به ليس إلا تكريساً لجهد يهدف لكسب دولاراته. وقد سار نحو محله مطأطأ الرأس غارقاً في التفكير عندما حياه المتسول بالقرب من التمثال، واستجدى الصدقات. وقد توقف جاجان وسأله «إنك قوي الجسم، لماذا لا تبحث عن عمل؟». «من أين لي الوقت لذلك، يا سيدي. فما إن انتهي من الدوران في أرجاء المدينة واستجداء المال، حتى ينقضي النهار ...».

ورمى له جاجان بقطعة نقدية من فئة الخمس بيزات، وقد تذكر قولاً حفظه منذ زمن، ويقول «قدم الصدقة دون منة أو سؤال».

وتقديرا لذلك، قال المتسول «لماذا لم يعد سيدي يحدثني في هذه الأيام عن أميركا؟» «لأني أخبرتك بكل ما يجب معرفته».

سأل الشحاذ «وماذا يعمل السيد الصغير حالياً؟».

أجاب جاجان، دون قناعة «سيؤسس عما قريب مصنعاً».

«ما الذي سينتجه؟».

أجاب جاجان بدون ذكر تفاصيل «بعض الآلات» وقد تمنى أن يتركه الشحاذ لشأنه. ولحسن الحظ، انصرف كي يضايق مارة قادمين من الجهة الأخرى، وأسرع جاجان خطاه. ولدى مروره بالقرب من مطبعة الحقيقة، رأى ناتاراج جالساً بمفرده خلف مكتبه، وقد وقف فجأة كي يقول «آمل أن لا تكون قد نسيت نتاجي».

أجاب ناتاراج «وكيف لي ذلك؟ ما إن ينتهي ضغط موسم الطباعة، حتى يكون كتابك في أول اهتماماتي. فأنا، كما تعلم، في خدمة أسرتك. وقد سلَّمني ابنك عملاً مهماً، وألح على طباعته خلال ثلاثة أيام، وهو النشرة التمهيدية لمشروعه الجديد».

صاح جاجان «آه»، وبدا له بأن «المشروع» يطارد خطواته.

قال ناتاراج «اسمك مسجل في النشرة».

هتف «نعم، نعم».

أزاح ناتارج مجموعة من الأوراق، وأخرج له بروفة طباعية ورأى جاجان اسمه مسجلاً كأحد المساهمين الرئيسيين في مشروع مالي. كما ضمت القائمة أسماء آخرين، وعلى رأسهم اسم

جريس، وبعض أصدقاء مالي من أصحاب الدراجات البخارية. وقد تفحص ناتاراج وجهه وقال «لماذا لا تبدو مسروراً؟».

أجاب جاجان بصوت أجوف «نعم، نعم، بلا شك».

«يبدو بأنه نوع جديد لافت من المشاريع...».

«نعم، نعم، بلا شك».

وغادر بسرعة نحو محله. وعندما وقف الطاهي أمامه كي يأخذ التعليمات اليومية، خشي أن يبادر الطباخ أيضاً للحديث عن آلة كتابة القصص. ولكن لحسن الحظ، لم يفسد عالم ذلك الرجل المكون من أبخرة المطبخ وروائح الزيوت، عزلته الشخصية. وعند جلوسه على عرشه مستنشقاً رائحة البخور، استعاد جاجان شيئاً من الأمان. فتح الدرج ونظر براحة إلى نسخة من كتاب بهاجافاد جيتا، ثم اختار عشوائياً صفحة، وحاول الاستغراق في تعاليمها الأبدية، لكنه في أعماقه شعر باستياء كبير بسبب ورود اسمه في النشرة التمهيدية للمشروع. كيف أمكن لمالي أن يقدم على ذلك العمل، واعتبار موافقة أبيه على أنها شيء مسلم به؟ ولكن ربما كان للفتى المسكين ثقة عمياء بمساعدة أبيه، ولا ضرر في ذلك. وكان ذلك شيئاً طبيعياً، ولكن رغم ذلك توجب عليه، من باب الكياسة، أن يبلغه بذلك. فلا مالي ولا جريس .... لكن ربما وقفا مراراً بباب غرفة بوجا لإبلاغه بالأمر، وليس لطلب المال. وقد ندم لأنه لم يعطهما الفرصة الملائمة.

ومهما تكن نوعية الشريك الأميركي، فقد أثبت ناتاراج أنه متأهب للعمل بشكل استثنائي. وسرعان ما انتشرت النشرة التمهيدية لشركة مالي في جميع أنحاء المدينة. كما وصلت أول نسخة إلى محل جاجان عن طريق البريد. وجاء في النشرة التمهيدية استعراض لحال الثقافة، والنواقص التي شابتها في الهند، والحاجة لأخذ مكانتها بين الدول المتقدمة، وكيف أن الآلة ستختصر الوقت والمسافات، وتخلص البلاد من تخلفها. ومن ثم ورد ضمن النشرة عدد من الحقائق والأرقام. وقد لاحظ جاجان شيئاً لافتاً، وهو أن الغابات التي تغطي هضاب ممبي سوف تقدم الخشب الطري الذي تحتاجه بعض أجزاء الآلة، ومن شأن ذلك أن يثير ردود فعل عنيفة وغاضبة. ثم وردت شروحات وتفاصيل حول عمليات الإنتاج والتسويق وموقع المصنع. وفي ذلك الوقت أدرك جاجان أن ابن وكيل مادة الكيروسين هو العقل المدبر للمشروع، وهو شاب يرتدي سروالاً من الجينز وقيمصاً مقلماً، ويقود دراجة بخارية يجلس مالي على مقعدها الخلفي.

وسرعان ما استبدل مالي وجريس الدراجة البخارية، وشوهدا يتنقلان في سيارة قديمة. وقد فسرت جريس ذات صباح لجاجان ما جرى بقولها «انطلقت الآن الشركة بواسطة سيارة. ورغم أنها قديمة، إلا أنها مفيدة، حيث يحتاج الإنسان للتنقل بسرعة وخاصة إن كان يمارس مهنة التجارة».

قال جاجان، انطلاقاً من الحاجة الأدبية لقول شيء ما، وليس رغبة

في طرح سؤال «ما نوع هذه السيارة الخضراء؟ وما سعرها؟ ومن دفع ثمنها؟».

أجابت جريس إنها سيارة جميلة، أليس كذلك؟. وقد غرق جاجان في التفكير أمام الآلهة، وبقي في حالة تأمل إلى أن انصرفت بعيداً عن عتبة الغرفة، وتمكن من سماعها، وهي تتحدث مع مالي في القسم الأمامي من المنزل.

وقد حدث نفسه علمّني غاندي أساليب سلمية، وسوف أستخدمها في مقاومة مطلبهما. إن هذين الشخصين مصممان على إدخالي في جميع أنواع العلاقات التجارية والشخصية. وقد أربكه وأزعجه مشروع ابنه، ولم يثق به نهائياً. وكان مدركاً للضغوط التي تمارس عليه من أجل انتزاع أمواله. وقرر المواجهة عن طريق تجاهل الأمر كلية، أي بواسطة سلبية خالية من العنف، والامتناع عن التعاون.

لكنه وجد بأن حياته المنزلية أصبحت مرهقة. وقد فقد متعة الهدوء واللقاءات التي اعتاد عليها كلما اقترب من التمثال. وبات يشعر بالرهبة والتوتر وهو يقترب من البيت القديم. وقد أدت نظرة جريس المتفائلة، ونظرات مالي الجانبية إلى توتير أعصابه. وشعر بتنامي توتر صامت أصاب الجميع. وأصبح يجد سعادة بالغة، حين لا يرى أحداً في استقباله عند الباب، وذلك حين خروج جريس للتسوق، أو عندما يكون مالي في صحبة شركائه في سيارته الخضراء. وكثيراً ما حدَّث

نفسه «شكراً يا إلهي، إن السيارة الخضراء نعمة». فعند وجوده داخل البيت، ولدى سماعه صوت ينبئ عن اقتراب السيارة، كان يلجأ إلى القسم الخلفي من البيت، أو يحبس نفسه داخل كشك الاستحمام. لكن ما كان لحالة اللاتعاون تلك، أن تستمر إلى ما لا نهاية. فقد سألته جريس ذات صباح، وبشكل صريح «هل فكرت بعرضنا؟». يومها شعر جاجان بأنه مطوقٌ، وتمنى لو أنه ارتدى قميصه قبل لحظات، وخرج إلى الشارع قبل لقائها. وقد تتبعت جريس حركاته، واختارت محادثته في الوقت المناسب. وقد نجح على مدار أسبوعين كاملين في تجنب ذلك اللقاء، وذلك عن طريق المناورة، والتدقيق في مواعيد عودته أو خروجه. كما أنه شعر،في تلك اللحظة، بأنه وقع في المصيدة. وأراد القول «اتركي هذه الأسئلة للرجال، وابتعدي أيتها الساحرة القادمة من منغوليا، أو من أي مكان آخر». وقد لاحظ أنها ثبتت وردة في شعرها القصير، وتمنى لو يقول لها «انزعي هذه الوردة، إنها مضحكة». ولكنه لم يزد عن القول «أراك وقد وضعت زهرة ياسمين في شعرك، هذا الصباح».
«بما أن اليوم هو الجمعة، فقد تذكرت واجباتي كزوجة هندوسية. كما أني غسلت الدرجات وزينت العتبة بالدقيق الأبيض. وقد ذهبت يوم أمس إلى السوق من أجل إحضار الدقيق. لقد بذلت جهداً كبيراً». وقد تحلت بلطف ورقة أجبرته على رسم ابتسامة والتظاهر بالسرور، وتبعها خارج الغرفة. وأضافت «ألا تعتقد

الآن أني سأكون هندوسية في الحياة الآخرة؟ «أصبحتُ قادرة على الانحناء، وأداء بعض الحركات، كما يفعل عدد من الأشخاص».

أراد جاجان أن يقول «إن المرأة الهندوسية المتدينة لا تقص شعرها كما قصصته». لكنه قال بسرور «مرَّ وقت طويل لم تجر فيه هذه الترتيبات داخل هذا البيت. كيف عرفت أن يوم الجمعة ميمون عندنا».

قالت «أخبرتني بعض الصديقات بذلك».

وبينما فكر جاجان بالهروب بعيداً، فُتِحت نافذة أطل مالي من خلالها وقال «أبي، تعال للحظة. يجب أن أتحدث إليك». شعر جاجان أن جريس تعمدت تأخيره ونظر إليها عابساً، لكنها تصرفت كأنها حاجب يعمل في قصر رئاسي، ولم تقل سوى «أدخل» وكأنه سيتشرف بالاستدعاء إلى تلك المقابلة.

دخل غرفة مالي، وهو يتمتم «يجب أن أخرج بسرعة كي أفتح المحل».

جلس مالي خلف مكتبه وأشار بإصبعه نحو كرسي الزوار. وقد جلس جاجان على مضض وهو ما زال يتمتم «يجب أن أسارع في الخروج لفتح باب المحل».

تجاهل مالي رجاءه وسأل «هل فكرت بالأمر؟».

وسأل جاجان بدوره «ماذا تعني؟»، وقد حاول التظاهر بأنه شارد الذهن، ولكنه أدرك أنه لن ينهي المقابلة بنجاح، وخاصة أن مالي وجريس، والتي أخذت تتلصص من خلفه، مصممان على إنجاز

عملية الاحتجاز. وسارع مالي لوضع النشرة التمهيدية أمامه «أرسلتها بواسطة البريد، ألم تستلمها؟»».

لم يقل جاجان «نعم» أو «لا» فقد توجس خيفة من كلا الإجابتين. وذهب فكره في اتجاه آخر «كيف أمكن لناتاراج أن يصدر النشرة بسرعة كبيرة من مطبعته، في حين لم يلمس كتابه رغم مرور عدة سنوات على تسلمه؟ ما هو السحر الذي مارسه مالي؟». وجلس يفكر ملياً في الأمر. وقال مالي فجأة «لم تكلف نفسك عناء النظر إلى النشرة». خشي جاجان أن يكون موسم المزاج الرائق في علاقته بابنه، قد أوشك على نهايته. وأجاب بهدوء «لقد قرأتها، ولفت انتباهي أنك وضعت اسمي دون علمي».

«ما الذي جرى لك؟ لقد تحدثت إليك منذ اليوم الأول، وأمضيتُ نصف ساعة في شرح التفاصيل، وسألتك عما إذا كان بالإمكان طباعة اسمك. ألم تقل «باشر عملك»».

عاد جاجان بذاكرته إلى الوراء وقال «متى كان ذلك اليوم؟».

عندها انتاب مالي غضب شديد، وقد رأت جريس وجهه، وخشيت من عواقب غضبه وتقدمت كي تقول «في اليوم الأول عندما حدثك عن مشروعه».

قال جاجان «أوه نعم، نعم» مدركاً احتمال قوله كلمات مبهمة.

كما أضاف بهدوء «نعم، ولكني تصورت أنك ستعلمني ثانية قبل إرسال النشرة المتهيدية للمشروع إلى المطبعة».

«لا أعرف حقاً ما تعنيه بقولك. إنك تتوقع أن يكرَّرَ أي شيء عشر مرات، ولذا لا عجب في عدم إنجاز أي شيء في هذا البلد».

«لماذا تلوم البلد على كل شيء؟ لقد سار كل شيء على ما يرام طوال أربعمائة مليون سنة». قال ذلك متذكراً تراث الرامايانا والبهاجافادا جيتا وجميع أنواع المعاناة والآلام التي مرت بها البلاد من أجل الحصول على الاستقلال. وتمتم «لم تكن قد ولدت في تلك الأيام».

أشار مالي برأسه بطريقة تدل على شعوره باليأس «لست أدري ما الذي تتحدث عنه. أريد المضي في تنفيذ هذا المشروع. أمضينا معاً جلستين طويلتين، وقد أبلغتك بكل شيء، والآن ...» تدخلت جريس كي تقول «أبي، إن كانت لديك أية استفسارات، أثق بأن مالي سيجيب عليها».

شعر جاجان كمن يكون جالساً في قفص الاتهام، وأنه من شأن كل كلمة يقولها أن تسجل كدليل ضده وقال «يجب أن أذهب الآن كي أفتح المحل».

قال مالي «علينا أن نبدأ العمل. إن شركائي ينتظرون، وسنخسر كل شيء ما لم نبدأ على الفور. وقد شرحت لك أساس مشاركتنا». خمسون ألف دولار! ومهما تكن قيمتها، فإنه مبلغ كبير. صاح جاجان «إني رجل فقير». وقد لاحظ على الفور أثر الصدمة في وجه مالي، والإرباك الذي أحدثه في وجود جريس. كما أحس كأنه تفوه بكلمة

نابية. ولدى رؤيته آثار ما قاله أضاف «لطالما ناصر غاندي الفقر لا الغنى».
قال مالي بابتسامة شريرة «ولكنك تكسب يوميا ألف روبية».

«إن كنتَ قادراً على استلام المحل وإدارته، لا تتردد في ذلك. إنه محلك إن أردت تسلمه».

«هل تتوقع مني القيام بهذا العمل؟ عندي مشاريع وخطط أهم وأفضل من أن أكون بائع حلويات».

لم ينتظر جاجان كي يسمع المزيد. دفع الكرسي إلى الوراء ببطء ولطف، ووقف للحظة كي يتفحص وجهي مالي وجريس. وقد رأى في عينيها ظل ابتسامة فسأل نفسه «هل هي فتاة طيبة أم شريرة؟ أتمنى لو أعرف حقيقتها». وأخذ مالي في عض إبهامه، وتحريك قدمه المستريحة تحت الطاولة بتوتر واضح. ولم يكن لدى جاجان الشجاعة للمكوث طويلاً ومواجهته. وسارع، دون إضافة كلمة أخرى، لانتزاع قميصه المعلق على الجدار، وخرج من الغرفة بسرعة كبيرة. وعند مروره بالقرب من القناة عند التقاء نهرين، قال له الشحاذ «أرى بأن سيدي لم يعد ينظر إليَّ». «أعطيتك خمس بيزات قبل ...» ولم يتذكر متى كان ذلك، ولكنه أضاف «أنا رجل فقير مثلك. هل تظن أنني أملك كنزاً لا ينضب؟».

«لا يليق بسيدي أن يقول مثل هذه الكلمات». لقد تكلم ذلك الرجل بأسلوب أكثر لياقة من مالي في ظروف مماثلة، وهو الذي أراد مخاصمة أبيه إن ادعى أنه ليس ثرياً.

وظل حزيناً طوال اليوم. وعند الرابعة والنصف دخل ابن العم، واتجه مباشرة نحو المطبخ ثم خرج. عرف أن جاجان ينتظره كي ينقل له بعض المعلومات السيئة. وبعد أن مسح فمه بمنشفة جلس على كرسيه، وأشار «إن الشاندرا كالا (إصبع القمر) لذيذة الطعم، وبفضلها سيشتهر اسم هذا المحل، وستطال سمعته الطيبة عنان سماء المدينة». وكالعادة، كان للمجاملة وقعها. ابتسم جاجان وقال «للأمانة والصدق أهمية بالغة. وقد جئت يوم أمس مبكراً كي أشهد بأم عيني تذويب زبدة البقر الصافية من أجل استخدامها في تحضير الحلوى. أرفض لمس زبدة الثور رغم كونها أرخص، فقد عارض غاندي استخدام منتجات الثور. وقد أرسلتُ أحد الطهاة كي يجمع زبدة الأبقار من منطقة كوبال، وعاد عند الخامسة صباحاً، وقد أتيت قبل الثامنة كي أشرف على تذويبها بشكل جيد. كما كلف شراؤها مبلغاً كبيراً، ولا أريد المخاطرة بالإفراط في تسخينها».

«إنك تولي اهتماماً بالتفاصيل، ولطالما أردت معرفة سبب اختيارك لهذه المهنة بدلاً من الاتجاة إلى عمل تخصصي آخر».

«كلفتُ، عندما كنت سجيناً، بالعمل في المطبخ. وبعد خروجي، بدا لي بأنه عمل جيد كأي عمل آخر». وبدأ في استحضار ذكريات عزيزة سر لذكرها ابن العم. وأضاف «لكن يعود الفضل في اكتساب المحل هذه السمعة الطيبة لسيفارامان، والذي بدونه لما عرفت أين سأكون الآن. أردت خدمة الناس على طريقتي الخاصة، أي

بواسطة توفير حلويات صحية، وخاصةً لأولئك الأطفال الفقراء».

قال ابن العم، وهو يتقصد عدم الإشارة إلى عجز الأطفال الفقراء عن شراء تلك الحلوى «إنه تفكير مثالي. وعندما تكون المنتجات صحية ونقية، يجب دفع السعر المناسب لكلفتها».

قال جاجان «صحيح». وجلس يفكر لبعض الوقت ثم قال «بدءاً من يوم غد، سأخفض سعر كل شيء. لقد اتخذت قراراً بذلك».

«لماذا؟» سأل ابن العم بذعر.

امتنع جاجان عن توضيح السبب، بل قال «نشتري مواد تموينية، لنقلْ، بمائة روبية يومياً، ويبلغ مجموع أجور عمالي مع أجرة المحل، لنقل، مائة روبية». وخفض صوته مضيفاً «ولا يفترض أن يزيد إجمالي ربحي في اليومين عن مائتي روبية. وفي الوقت الحالي، الحقيقة هي أنه.. «وقد بدأ في الاستفاضة في شرح فكرته، ثم أغفل في اللحظة الأخيرة، ذكر التفاصيل، غير راغب في الكشف عن أرقام فعلية. وأضاف «سيستفيد من التخفيضات عدد كبير من الناس».

«لكنك تعارض تناول السكر، أليس كذلك؟».

أخذ جاجان وقته كي يستوعب ذلك التناقض في أفكاره، قبل أن يدلي بدلوه «لا أرى أية علاقة بين الحالتين. إذا رغب بعضهم في تناول الحلويات، يجب أن يحصلوا على أجودها وأنقاها. هذا هو كل شيء. يتركز جُلّ تفكيري بالأطفال والفقراء».

سأل ابن العم مختبراً نوايا جاجان «وماذا عن حصتك؟».

قال جاجان «عندي ما يكفيني».

سعى ابن العم إلى مزيد من التوضيح، وبدا كشخص يختبر ويجرب أسلوباً ديبلوماسياً ذكياً. وسأل «هل تملك ما يكفي من جميع الأشياء؟».

قال جاجان «اكتفيت من كل شيء».

بدا ابن العم جاداً ومكتئباً. ثم قال «إن كنتَ عازماً على التوقف عن إدارة هذا المحل، أثق بوجود شخص ما مستعد لاستلامه والإشراف عليه».

قال جاجان «أوه، إنه ليس أمراً سهلاً. لقد أبلغت مالي صباح اليوم برغبتي هذه، وقال ...»، ولم يكمل كلامه. وجد أن استعادة ذلك المشهد سيربكه، وقد ينهار ويبكي، وهو جالس فوق عرشه. ولن يكون ذلك من صالحه. فقد تذكر أنه وقف كمتسول في حضور مالي والفتاة الصينية، وتعرض للسخرية من مهنته وعمله الذي وفر المال لمالي كي يطير إلى أميركا، ويقوم بجميع أنواع النشاطات هناك. «بائع حلوى، بالفعل». وأدرك جاجان انتظار ابن العم لجواب منه وقال بسرعة «لم يكن مهتماً ببيع الحلوى».

وجد الرجل الوقت مناسباً كي يبدي تعاطفاً وقال «هل كان يحلم بدخل أفضل من هذا؟ لكنه أفكاره مختلفة، كما تعلم». أجاب جاجان «إن المال شرٌّ مستطير». وقد أطلق العنان لأفكار لطالما عبَّر عنها «يفترض بنا أن نكون سعداء بدون المال. ويكفي

أن يعمل الإنسان في مهنة تكفيه قوت يومه، ولا حاجة لكسب المال وتكديسه». ثم صاح «كابتن، من هم هؤلاء الصبية؟ ماذا يريدون؟».

«سأبعدهم يا سيدي».

«لا، لا، قل للبائع عند الكشك أن يعطي كل منهم عبوة، ثم أبعدهم».

«قد لا يكون معهم ثمن المشتريات».

صاح من فوق عرشه «ومن يبالي؟ أستطيع التصدق عليهم. وفرْ لهم رغباتهم». وقد أخذ الأطفال حلوياتهم، ثم انصرفوا مذهولين مما جرى.

«إن ذهب هؤلاء الأطفال وأخبروا آخرين، سيتهافت الصغار والكبار، ولن تستطيع عندها مغادرة هذا المكان».

قال جاجان «سنتدبر أمرنا. ستجرى بعض التغييرات خلال يوم أو يومين».

بدا ابن العم جزعاً وقال «لا تتسرع. قم بزيارة المعابد، واستحم في الأنهار المقدسة. وسأتولى في غيابك إدارة المحل، إذا رغبت في ذلك».

«سأخبرك في حال استعدادي ...».

في ذلك الوقت، حمل الفتى الواقف عند الكشك الأمامي الجرة البرونزية. ونهض ابن العم، والذي اعتاد على المغادرة في ذلك الوقت. لكنه لم يغادر، وقد تلهف لمعرفة فيما إذا كان جاجان سيقبل تلك الأموال أم سيرميها بعيداً. لكن جاجان سحب الدرج، وفرش

المنشفة المثنية كي يخفي صوت تساقط العملات المعدنية، ثم رفع بصره نحو ابن العم وقال «سأجري، في هذه الليلة أو يوم غد، بعض الحسابات بتركيز كبير، وسوف أصحح بعض الأخطاء».

شعر ابن العم بقلق مما ستقود إليه تلك التلميحات، وقال بلهجة صانع السلام «سأتحدث مع مالي. أعرف أني أستطيع التحاور معه. كما أن الفتاة جريس جديرة بالثقة».

قال جاجان «أرجوك تحدث إليه في جميع الأمور»، وأضاف بحزم «ولكن ليس بالنيابة عني».

الفصل السابع

بعد يومين، وعند قدومه في الموعد المعتاد، وجد ابن العم مدخل المحل مكتظاً. وقد علّق إعلان فوق المنضدة الأمامية «25 بيزة مقابل أية عبوة من الحلوى». وقد وقع هرجٌ ومرجٌ بسبب تهافت المشترين على أكياس الحلوى، لدرجة أن البائع الفتي، بدا متعباً ومستاءً. فقد تجمع شباب وعجائز وأطفال، ومتسولون وعمال، وتدافعوا باسطين أذرعهم. وفَرَغَتْ الصواني حال ملئها من المطبخ. وبحلول الخامسة مساءً نفذت كامل منتجات ذلك اليوم. وخرج سيفاراماان وباقي الطهاة من المطبخ، ووقفوا أمام جاجان وسألوه «ما الذي سنفعله الآن؟».

قال جاجان «عودوا إلى بيوتكم. إن كانت الحلويات قد بيعت، فقد انتهى عملنا لهذا اليوم».

قال سيفاراماان، وهو يحرك خرزة ذهبية علقت حول عنقه «لا أفهم ما الذي جرى؟ ولم كل هذا؟».

«دع مزيداً من الناس يأكلون الحلويات، هذا هو كل شيء. أليسوا سعداء؟».

سأل سيفاراماان «هل تنوي إغلاق المحل؟». وقال مساعده «إذا استمررنا على هذا المنوال، سنغرق».

قال جاجان «لن يتغير أي شيء. ولن نخفض شيئاً، سواء من حيث النوعية أو الكمية».

سأل سيفاراماں «كيف سيتحقق لنا ذلك؟ وكيف سنستمر؟»

لم يكن من السهل على جاجان شرح ما يقوم به ودواعيه. وتقدم ابن العم الجالس على كرسيه بهدف إنقاذه، وقال للعمال «لم نقم سوى باتخاذ بعض الإجراءات من أجل مواجهة المنافسة. سأشرح لكم كل شيء غداً». وقد انصرف الطهاة، وفرغ المحل عند السادسة مساء، وحمل البائع اليافع الجرة البرونزية قبل الموعد المعتاد، قائلاً «ما زال أمام المحل حشد ينتظر الحلوى. إنهم غاضبون يا سيدي لأنهم لم يحصلوا على شيء في هذا اليوم». «قل لهم أن يأتوا غداً». وقد تناهى إلى سمعهما صيحات الناس، وصوت الكابتن وهو يشتمهم.

وعلق جاجان «يجب أن يتعلم شعبنا كيفية اتباع النظام».

شعر برضا وسرور بالغين، بعد تنفيذ تلك الفكرة. ولكن مرَّ وقت قبل أن يتقبل العاملون في محل جاجان، الوضع الجديد. فقد خافوا من احتمال أن يحد الركود والأسعار الرخيصة، من ترقياتهم وتحسين أوضاعهم. ولم يفكر جاجان بذلك، ولكنه تظاهر بأنه أخذ في اعتباره جميع جوانب القضية، ورفض سماع التعليقات. وقد عادوا لبحث الموضوع عدة مرات. وأصبح لديهم متسع من الوقت كي يقفوا أمام العرش للتباحث في أمور شتى، وذلك بعد أن أصبحت عمليات القلي وتحضير الحلويات لا تستغرق أكثر من ثلاث ساعات، ولا يتطلب بيعها سوى ساعة من الزمن. ولكن في ظل تهافت

الناس، وطلبهم الزائد على الحلوى الرخيصة، خلا المكان من أي نشاط فعلي. وقد كان ذلك مدعاة لقلق كبير من جانب سيفاراماان الذي خشي من احتمال خروج الحشود عن انضباطها. وفي ذلك اليوم، قلَّل جاجان من مخاوف سيفاراماان، وقال له «كن صبوراً، وراقب ما يجري. يجب أن يتعلم شعبنا النظام والانضباط. ومن المؤكد أنهم سيتعلمون ذلك بسرعة. لا تقلق». ولكن ذلك الرأي لم يقنع العاملين في ذلك المحل الصغير، وخاصةً أنهم رأوا بأنه لا علاقة لما يقوم به جاجان بتعليم أصول النظام. كما صمتوا من باب احترامهم وتقديرهم لسيدهم. وقال سيفاراماان، وهو يمضغ قطعة تبغ باسترخاء «ربما نحتاج لإعداد كميات إضافية من الحلوى». سأل جاجان «لا ضرر من ذلك، ولكن ما الداعي لزيادة الإنتاج؟».

تمتم الطهاة «حتى لا يطرد أحدنا من عمله».

وكان سيفاراماان ومساعدوه الأربعة مجرد تقنيين في مجال صنع الحلويات، وقد تخبطوا في استفساراتهم حول عمليات التسويق والمحاسبة ،والسياسات الأخرى. كما بدرت في رأس سيفاراماان فكرة مفاجئة، وأجاب «لأن مزيداً من الناس يطلبون حالياً حلوياتنا بسبب تخفيض سعرها».

شعر جاجان بالحاجة إلى قول «يا له من تفسير رائع»، ولكنه لم ير أنه من اللائق قوله، لذا اكتفى بالرد «حسناً، هذه وجهة نظر. سنفكر في تنفيذها. لكننا سننتظر ما لا يقل عن خمسة عشر يوماً

لنرى كيف ستسير الأمور». وقد أدرك أن عماله ينظرون إليه بوصفه رجل أعمال ذكياً. ورغم أن قراره أربكهم وحيرهم، فقد رأوا بأن جاجان اتخذ، بلا شك، خطوة حكيمة لتحقيق هدف نبيل، وأنه لن يخيب آمالهم أبداً. وقد شعر بشيء من العظمة والبهاء، ورغم كونه عاشقاً للحقيقة عموماً، استمتع، في الوقت نفسه، بالعيش وسط تلك الهالة الكاذبة.

وأخيرا قال سيفارامان «هل وجدت طريقة لاجتذاب جميع النشاطات التجارية في المدينة إلى باب محلك؟».

وكان قد حظي بما يكفي من الإطراء والمديح كي يسمح لنفسه برسم ابتسامة ذات مغزى. وقد سُرَّ عماله، وبادلوه بابتسامة مماثلة. من ثم تحدث أمامهم عن كنوز أعظم من الربح المادي. قال لهم «يتوفر لديكم حالياً متسع من الوقت لا تعرفون كيفية الاستفادة منه. دعوني أساعدكم. اجلسوا وتعلموا كيف تستغلون الساعات الثمينة التي توفرت لنا، وذلك ليس بتضييعها في الأسواق، أو في مناقشة قضايا مالية. اجلسوا، جميعاً. سأقرأ لكم يومياً، ولمدة ساعة مقاطع من البهاجافاد جيتا. سوف تجنون فائدة كبرى من هذه القراءات. هيَّا نادوا الكابتن، واسألوه إن رغب بالانضمام إلينا». وقد أمرهم مرة ثانية بالجلوس، ونظر إليهم من فوق عرشه بشفقة وعطف، وحمل نسخته من كتاب البهاجافاد جيتا، وفتح الصفحة الأولى وقرأ «اصطف جيشان في حقل كوروكشيترا،

واستعدا لمحاربة بعضهما البعض. هل تعلمون لماذا وقفوا هناك؟».

جلس سيفاراماں على الأرض، وقد شعر باسترخاء تام، وهو مثني الساقين، وجالساً في استقامة كأنه سهم، وقال «بالطبع، إننا جميعاً نعرف لماذا وقف الجيشان هناك. وأنا واثق أن جميع هؤلاء الشباب يعرفون ذلك». وقد تمتموا بالإيجاب. كما أطرق الكابتن رأسه باحترام، وقد وقف مثني الذراعين، واضعاً عصاه القصيرة تحت ذراعه الأيمن.

لم يعلق جاجان على ما قاله رئيس الطهاة، وباشر القراءة من جديد بدءاً من السطر الأول من أنشودة طويلة. وشعر بحماس لدى نطقه وسماعه للغة السانسكريتية «وفي تلك اللحظة، شعر المحارب العظيم آجونا بخيبة أمل ويأس لكونه سيحارب أعمامه وأولاد عمومته، وقد ارتعشت ركبتاه من تلك الفكرة. ثم شرح له الإله، والذي اختير كي يكون سائق عربته، الحاجة إلى القتال من أجل قضية شريفة حتى لو اقتضى الأمر مواجهة الأخوة وأبناء العمومة والأعمام، والأبناء أيضاً. لا شيء يتحقق ما لم يتم القتال في الوقت المناسب. هل تفهمون؟».

وقد أطرق الجميع رؤوسهم علامة الموافقة رغم أن أفكارهم جالت بعيداً، وشعروا بالقلق من احتمال أن يكرر على أسماعهم نفس المقطع الشعري. وبعد تفسير إضافي، قال جاجان «لا شيء يوازي قراءة هذا الكتاب، وإنه شيء يجب أن يواصل الإنسان قراءته مدى

الحياة. كان المهاتما غانذي يقرأه لنا يومياً، وهل فعل ذلك لأنه لم يكن يعرفه، أو أنه ظن أننا لا نعرف ما ورد فيه؟».

قالوا بصوت واحد «صحيح، صحيح».

«وضع المهاتما نضاله ضد بريطانيا في نفس الخانة». وبدأ المكان يأخذ شكل فصل دراسي، ولم يكن الطلاب مستمتعين بالدرس، وقد ظهر ذلك بوضوح من خلال عدد المرات التي نهض فيها سيفارامان كي يبصق التبغ، وخرج باقي العمال كي ينظفوا أنوفهم، أو لاستنشاق السعوط. كما تظاهر الكابتن، والذي كان مثالاً للرجل المهذب، بأنه لاحظ وقوف بعض المتطفلين عند الباب، وانسل بعيداً. ولم يعرف أحد كم سيدوم ذلك الدرس، لأن أولئك الرجال فضلوا دخان المطبخ ورائحة قلي المعجنات والحلويات، على تنوير أفكارهم. ولكن، لحسن حظ الجميع، دخل ثلاثة زوار. وقد اختال الكابتن في مشيته، وهو يحيي ويرشد القادمين نحو العرش، كما يقتضي واجبه، ثم ابتعد. وشكل جلوس الطهاة باسترخاء على الأرض مشهداً غريباً في تلك الساعة، حيث يكون العمل في ذروته، والمطبخ يعج بالحركة، ويتم فيه قلي الحلوى. وقد ارتبك جاجان، وأسرف في الترحيب بزواره، وخاصة عندما تعرف على أسمائهم. وكان أحدهم هو مالك مطعم آناندا بهافان، وهو رجل حقق خلال خمسة عشر عاماً نجاحاً تجارياً كبيراً، رغم أنه قدم من منطقة ريفية تبعد بمقدار ألف ميل عن المدينة. وقد أدار الرجل الثاني كافتيريا داخل منطقة المحاكم، وكان الرجل

الثالث، وهو ذو لحية بيضاء، غريباً لم يعرف اسمه أو مهنته. وحدث جاجان نفسه «قد يكون الرجل الغريب شقيق أحد الرجلين». وكرر عبارة «يا لها من ساعة سعيدة». وأوشك على معانقتهم. وقد ابتعد المستمعون إلى كتاب البهاجافاد جيتا دون تطفل. ولم تتوفر كراسي تكفي لجميع الزائرين. لكن كرسي ابن العم كان فارغاً، لحسن الحظ. وقد سارع جاجان لتقديمه إلى الرجل البدين صاحب مطعم آناندا بهافان. كما جلب الكابتن كرسياً حديدياً من متجر الصودا المجاور، فقدمه جاجان إلى صاحب الكافتيريا، تاركاً «شقيق أحدهم» يدبر أمره بنفسه. وبقي في مكانه على العرش، حيث استحال عليه الجلوس في مكان آخر داخل محله. وقد وقف «شقيق أحدهم»على قدميه بينما أخذوا يتحدثون في أمور السياسة والطقس وأحوال السوق لأكثر من نصف ساعة، وذلك قبل التطرق إلى الموضوع الرئيسي. ثم سأل مالك المطعم «ما الذي سعيت إلى تحقيقه خلال الأيام القليلة الماضية...؟». قال الشقيق «خلال أربعة أيام».

وأضاف مالك المطعم «إنه صديقنا».

رمقه جاجان بابتسامة مشجعة، واقترب الرجل الملتحي وجلس على العتبة عند قدمي جاجان.

وقال مالك المطعم «أجريتَ تخفيضاً هائلاً في ثمن حلوياتك».

«نعم».

«هل لنا أن نعرف السبب؟».

أجاب جاجان بابتسامة مشرقة «كي يستمتع مزيد من الأشخاص بتناول الحلوى».

علت وجوه الآخرين صدمةٌ لدى سماعهم تلك الهرطقة. «وما الذي يمنع مزيداً من الناس من تناول الحلوى بالسعر المناسب؟».

قال جاجان باحثاً عن تفسير واضح «إن سعر المنتجات ذاتها...».

قال صاحب الكافتيريا «إنها خطوة غير موفقة».

في إجابة لا علاقة لها بالموضوع قال جاجان «إني محرج يا ضيوفي الكرام لأنه لم يعد عندي شيء أقدمه لكم، فقد فرغت جميع صوانينا قبل ساعة من وصولكم».

قال مالك المطعم بغمزة من عينيه «إذن إنها تجارة رابحة». وتقبل جاجان المجاملة بإيماءة العارف بمهنته، وشعر بالفخر بذكائه وحكمته. ثم أضاف الرجل «لكن لماذا تريد الضرر إلى أعمالنا؟».

«سأطلب من الزبائن الذين يتهافتون على محلي أن يتحولوا إلى محلك بشرط أن تقدم لهم نوعية جيدة».

«هل تعني بقولك أننا لا نستخدم مواد نقية وجيدة».

«لا أدري. أستخدم أنقى أنواع الزبد لقلي الحلويات، كما أستخدم أفضل أنواع الطحين والبهارات».

«ورغم ذلك تقول أنك قادر على بيع العبوة الواحدة بخمس وعشرين بيزة». وقد ضحك الجميع من تلك النكتة. وتابع مالك

المطعم كلامه «في عام 1956 استخدمتُ نفس المواد. لكن في الوقت الحالي، كيف لنا الحصول على مواد أولية نقية بسعر مناسب؟».

«استطيع مساعدتك في الحصول على المواد التموينية أن رغبت بذلك. وكما يقول الإله كريشنا في الجيتا «تستطيع تحقيق أي شيء. اتخذ قرارك، وستجد ضالتك لا محالة». تدخل الرجل الملتحي الجالس على العتبة كي يدلي بدلوه في النقاش «آه، إن الجيتا كنز حقيقي. إنه بيت من كنوز الحكمة».

«أمضي معظم أوقاتي في قراءته».

وافق مالك المطعم على ذلك الرأي وقال «يستطيع المرء أن يمضي حياته في قراءته». وأضاف صاحب الكافتيريا «نحن جميعاً نعرف ما ورد في الكتاب. وقد ورد في الجيتا أن كل إنسان مطالب بأداء واجبه بروح طيبة وأداء جيد». ثم سأل جاجان بنبرة هجومية «هل تظن أنك تقوم بواجبك وفقاً لما جاء في الجيتا؟».

ضاعت هيبة جاجان، ولكنه لم يزد على القول «أوه»، وأخفى ارتباكه بابتسامة مصطنعة.

في تلك اللحظة انحنى مالك المطعم إلى الأمام عابساً ومتجهماً بقدر استطاعته وقال «إن قام شخص ما بهذا العمل، سيتبعه آخرون، وهل تعلم تبعات ذلك؟».

لم يأخذ جاجان في اعتباره نتائج قراره، ولكنه صمم على الاستمرار في التحدي وسأل «وما الذي سيحصل في تلك الحالة؟».

هنا سأل صاحب الكافتيريا «هل أنت مصمم على تخفيض أسعار منتجاتك، كما فعلت في الأيام الأخيرة؟».

تساءل جاجان عن الضرر الناتج عن تطبيق خطته، وتمتم بكلمات لا علاقة لها بالموضوع، ثم صاح فجأة «كابتن، هات أربع زجاجات من العصير للرجال من متجر الصودا...».

صدرت همسات رافضة من قبل المجتمعين، ولكنهم قللوا من معارضتهم لجاجان، وقال صاحب المطعم «لا تحمل نفسك ذلك العناء. لقد أتينا من أجل مناقشة أمر جاد. دعنا ننتهي منه، قبل أي شيء آخر. إن شعاري الدائم هو العمل أولاً».

وقال صاحب الكافتيريا «وإلا كيف لنا أن نواصل عملنا؟ يجب أن يكون هذا الشعار كمنارة يهتدي بنورها رجال الأعمال». واستشهد الرجل الملتحي بمقطع من الآبانيشاد لم يضف شيئاً إلى الهدف من الزيارة.

وفجأة سأل مالك المطعم «بماذا نتحدث حالياً؟». لم يقل جاجان والآخرون شيئاً. واستأنف مالك المطعم، والذي بدا أنه يترأس الوفد، حديثه «إن وقتي ثمين، وفي مثل هذه الساعة لا أستطيع مغادرة مطعمي، ورغم ذلك أتيت. ألا يدل ذلك على جدية الأمر الذي دفعنا إلى القدوم إلى هذا المكان؟».

وأضاف صاحب الكافتيريا «لم أزر هذه المنطقة منذ قرابة عام. أين يجد المرء الوقت للقيام بزيارات؟».

قال الرجل الملتحي «كل رجل مشغول بطريقته الخاصة».

قال جاجان وقد شعر أنهم تجاهلوا أمره «أنا سعيد بزيارتكم. ويجب أن نجتمع سوياً من حين إلى آخر كي نتباحث في مشاكلنا».

أجاب مالك المطعم، وقد سر من تعليق جاجان «أنا مسرور لأنك تفكر بهذه الطريقة. يجب أن نعيش معاً وأن نعبر عن مشاعرنا وأحوالنا التجارية، وإلا سنتخلف عن ركب التقدم العالمي».

وقال الرجل الملتحي «إن الاتحاد قوة»، وحاول شرح فكرته عن طريق قصة مأخوذة من البانشانترا، وبدأ «في يوم من الأيام كان...».

لم يتحمل أفراد الوفد ذلك، وقاطعه مالك المطعم «بالطبع يا بانديتيجي، نحن جميعاً نعرف القصة ومغزاها الأخلاقي. وتابع كلامه، وهو يشعر بأنه صاحب الحق في التكلم في ذلك الاجتماع «كما قلت قبل قليل، لدينا العديد من المشاكل. وإننا اليوم نشعر بالارتباك، ونسأل أنفسنا عما يدفعنا للاستمرار في ممارسة أعمالنا».

قال جاجان «ذلك بالضبط ما أفكر فيه، ولكني مستمر في عملي من أجل عمالي».

استأنف مالك المطعم كلامه، وقد شعر بأن لديه أفكاراً ملهمة «في حقيقة الأمر ليس هناك من حلول مناسبة لمشاكلنا، فإن الناس يهتمون بأمورهم الشخصية، ويظنون أننا قادرون على تدبير أمورنا بطريقة

ما. لا أستطيع أن أفهم كيف لهم أن يتوقعوا مواصلتنا العمل في مثل هذه الظروف الصعبة».

قال صاحب الكافتيريا «إذا أغلقنا محلاتنا ليوم واحد وحسب، سيعرفون الحقيقة».

وبدوره، قال مالك المطعم «في حقيقة الأمر سيكون لإغلاق محلاتنا جدوى اقتصادية كبيرة. ولكننا لا نستطيع الإقدام على خطوة كهذه، لأن بعضهم سيعاني، ومنهم الموظفون الأبرياء، والخدم والعمال، والطلاب الذين يعتمدون علينا في غذائهم. إن مشاكلنا ضخمة». وقد شعر وهو يتكلم وكأنه ملاك يوزع الهدايا والعطايا على البشرية. ثم أضاف «إن مشاكلنا عديدة». كان شديد الإعجاب بكلمة «مشكلة». وقد كرر تلك الكلمة لدرجة أن جاجان اضطر لسؤاله «أية مشاكل؟».

بدهشة بالغة نظر إليه كل من مالك المطعم وصاحب الكافتيريا، وكأنهما لا يصدقان أن رجلاً بكامل قواه العقلية يفكر بطرح مثل ذلك السؤال. ورد كل منهما على السؤال في الحال، واختلط الصوتان، ولم يعد الكلام مفهوماً بينما قالا «لن يقبل مفتشو الضرائب على المبيعات، الحسابات التي سنقدمها. وهناك أيضا المسؤولون عن جباية ضرائب الدخل الذين يجرون تقييمات عشوائية، ومفتشو السلامة الصحية ومراقبة الأغذية، والذين أجبروا الجميع على العمل في الخفاء. وفي تلك الحالة كيف سنؤمن الحصص الكافية لإعداد وجباتنا الغذائية؟

وفوق كل هذا وذاك، هناك وسيط المواد الدهنية، حيث لا نستطيع دوماً استخدام الزبدة النقية، والتي تجبرنا الحكومة على الإعلان عن استخدامها. كيف لنا العمل في مثل تلك الأجواء حيث يحب زبائننا أن يقال لهم، ومهما تكن نوعية الطعام المقدم لهم، أنهم تناولوا وجبة تحتوي على زبدة نقية ذوبتْ بطريقة صحية؟».

قال صاحب الكافتيريا «أصبحت الأفكار المتعلقة بالزبدة النقية قديمة، أي غير مسايرة للمستجدات العصرية. وقد أثبت العلماء أن الزبدة والدهون النقية تسبب أمراض القلب، وأن البدائل الصناعية تحوي مزيداً من الفيتامينات».

«كما أنها ليست أرخص ثمناً».

«ارتفعت أسعارها حتى باتت مقاربة لأسعار السمن النقي».

سأل جاجان «إذن لماذا لا تستخدمون السمن الصافي؟». وقد استاء زواره. وبينما كانوا يُعملون أفكارهم بحثاً عن جواب سريع، جلب الكابتن أربع زجاجات من الصودا، وفتح الأولى بفرقعة كبيرة، وأمسك بالزجاجة وهي تفور ويسيل منها الصودا، وقدمها إلى مالك المطعم بوصفه رئيس الوفد الزائر.

قال الرجل بشيء من الاستياء «قلت لك أني لا أريد شيئاً».

قال جاجان «إنها مجرد صودا تحوي فيضاً من المواد الغازية. خذها».

وفي نفس الوقت، أخذ الكابتن، وكان يتصرف كأنه آلة، في فتح الزجاجات. وقام الرجل الملتحي بانتزاعها من يده وتمريرها إلى

المجتمعين. وقد غطتْ رغوة ملونة أرضية المحل. وعندما قدمت زجاجة إلى جاجان، أخذها لكنه أعادها بهدوء إلى الكابتن.

قال مالك المطعم «أردتَ أن نشرب الصودا».

قال جاجان «لأني أعرف أنها جيدة».

«لكن لماذا لا تشرب منها؟».

«لا أشرب أكثر من أربع أوقيات من الماء يومياً. ويجب أن تُغلى تلك المياه ليلاً، ثم تُبرد أثناء الليل داخل جرة من الطين مفتوحة باتجاه السماء. لا أشرب أي نوع آخر من السوائل، وحتى عندما كنتُ سجيناً في... «وبدأ في استعراض ماضيه. لكن زواره قطعوا عليه حبل ذكرياته بالسؤال التالي «هل أثمر اجتماعنا في هذا المساء عن أية نتيجة مرضية؟ «لم يعرف جاجان بالتأكيد من يتحمل مسؤولية الإجابة عن ذلك السؤال. ولكن، بوصفه المضيف، أجاب «بالطبع، لقد شرفتموني بزيارتكم».

قال مالك المطعم «إننا سعداء لأننا تفاهمنا وتوصلنا إلى نتيجة. وآمل أن نستفيد من تعاونك».

وبدون تفكير بما قصدوه بقولهم، قال جاجان بعاطفة جياشة «بالتأكيد، أنا أؤمن بالتعاون التام».

وعلّق صاحب الكافتيريا «إن كان ما جرى مجرد إجراء مؤقت خاص بك، فإننا لم نأت لمساءلتك».

وقاطعه مالك المطعم «ولكن إن واصلت التخفيضات الجديدة،

فإننا سنبذل قصارى جهدنا للمحافظة على وتيرة العمل الصحيح. وهذا هو هدفنا المشترك».

تنحنح جاجان، وصدرت عنه بعض الأصوات المبهمة، وغادر الجميع. وقدسمع صوت سيارتهم تبتعد عن المكان، واستعد لإنهاء يومه. وجاء الكابتن كي يعيد الكرسي الحديدي إلى متجر الصودا، ووضع على طاولة جاجان فاتورة بثمن المشروبات. وكان جاجان قد أفرغ حصيلة أمواله النقدية لذلك اليوم داخل الدرج قبل ساعات مضت. وعندما استعد لفتحه، وفرز مختلف أنواع العملات، رجع الرجل الملتحي، بعد خروجه برفقة مالك المطعم. سأله جاجان «هل نسيت شيئاً؟». قال الرجل وقد اقترب منه، وجلس فوق كرسي «لا، لقد ودعتهم عند ركوبهم سيارتهم. أقيم،في حقيقة الأمر، في الشارع المجاور، وقد أوصلوني في طريقهم إلى هنا. وقد أتيت بصحبتهم كي ألقاك».

قال جاجان «لا أعتقد بأني رأيتك من قبل».

قال «أعيش في شارع كابير، لكن نادراً ما أمر من هذا الطريق». وقد استرخى في جلسته على الكرسي بهدف إجراء محادثة مسائية.

قال جاجان «ظننت أنك كنت ذاهباً معهم».

«ولماذا أذهب، وبيتي قريب من هنا».

قال جاجان «لم أكن أدري، ولا أعرف اسمك أيضاً».

«من يعرفونني ينادونني باسم شينا دوري كي يميزوني عن سيدي، والذي عُرفَ باسم بريا دوري، أي السيد الصغير والسيد الكبير. لكن، لا مجال للمقارنة».

«من كان سيدك؟».

سأل الرجل الملتحي «كم معبداً زرت في حياتك؟».

وجد جاجان بأن الجميع يوجهون الأسئلة إليه، في ذلك اليوم. ولكنه أجاب «زرت قرابة مائة معبد من جميع الأنواع، وربما زرت عدداً أكبر من ذلك».

«صنع سيدي الآلهة، أو الإله الخاص بكل معبد».

قال جاجان «ما أروع هذه المعلومات!».

«نحت سيدي تماثيل شيفا، والمدمر، وفيشنو، والحامي، وديفي الذي هزم الشريرة ماهيشا بأسلحتها المرعبة التي حملتها على أذرعها الثمانية عشر. كما نحت تماثيل الدوارابالاكس، وهم حماة الأضرحة. وقد نقش أيضاً الأشكال الجميلة التي تملأ مداخل وجدران المعابد، وخاصة الجنوبية منها». وقد التمعت عينا الرجل، واهتزت لحيته، وهو يتكلم بحماس وشغف كبيرين عن سيده.

تأثر جاجان بطلاقته وحديثه، ولكنه لم يفهم الدافع لكلامه، والذي كان مسلياً وبعيداً، على الأقل، عن عالم الحلويات والزبدة. وقد أدى وصفه للآلهة لأن يشعر جاجان بالندم لأنه لم يقترب من المعبد منذ عدة أشهر، حيث استغرقه صنع الحلوى وإحصاء القطع النقدية. وصرح بحماس «بالطبع زرتُ كل معبد في هذا الجزء من الكون، وقد زرتها مرات لا تعد ولا تحصى، وأعرف مائة وثمانية من الآلهة، والقديسين الذين تنتشر تماثيلهم على ضفتي نهر كافيري. كما

أعرف الأناشيد التي ألفها سامبهاندار على شرف تلك الآلهة». وقد أنشد بصوت مرتفع مقطعين من تلك الأناشيد.

أغمض الرجل الملتحي عينيه وأنصت، ثم كال المديح لذاكرة جاجان وموهبته الموسيقية. وقد سعد جاجان بتلك المجاملة التي كان في أشد الحاجة إليها في ذلك اليوم حيث أصيب برية وخيبة أمل إزاء حكمته التجارية. وفي المقابل، عبر جاجان عن رضاه عن ذائقة الآخر الموسيقية. وفي كل ذلك الاستعراض والتقدير المتبادل، ضاع، كالعادة، الهدف من المحادثة. وأنشد الرجل الملتحي أنشودتين بصوت عميق. وأطل الكابتن، الواقف عند الباب، كي يتأكد من أن كل شيء داخل المحل يسير بشكل طبيعي، وخاصة أن ضجة السيارات والمارة في شارع السوق غطت على ما سواها من أصوات. وبعد الانتهاء من الإنشاد، عاد الرجل الملتحي إلى الموضوع الرئيسي. «صنع سيدي أو أتباعه جميع الآلهة التي رأيتها في المعابد».

«ماذا كان اسمه، هل ذكرته لي؟».

«لا تهتم بما قلته، كنا نناديه بلقب «سيدي»، وهذا يكفي. ولم أعرف شخصاً آخر جديراً بهذا اللقب».

«وهل كان ذلك المثَّال سيدك عن حق؟».

«نعم، وفي أيامه الأخيرة، لم يسمح لأحد بالاقتراب منه، سواي».

«أين عاش؟».

«ليس بعيداً من هنا. سأصحبك إلى ذلك المكان في أي يوم تجد فيه بعضاً من الوقت. إنه يقع على الجانب الآخر من الضفة. تستطيع أن ترى الأشجار في حديقته. هل عبرت ذات يوم النهر؟».
تنهد جاجان عند سماعه ذلك السؤال. فقد تسمَّر محيط تحركه منذ سنين ما بين التمثال ومحله، وتركزت أفكاره على ابنه مالي وابن العم، وعمليات تحضير الحلويات وبيعها. وتنهد عميقاً، وهو يسترجع في ذاكرته ألوان غروب الشمس، وزقزقة العصافير في أخدود نالابا، وأوقاتا طويلة أمضاها متجولاً بصحبة رفاق المدرسة على ضفة النهر، أو جالساً فوق الرمال، أو على ضفتي النهر. وتذكر كيف اعتاد المهاتما غاندي على عقد اجتماعات كبرى بجوار النهر، وكيف شعر، عندما شكل نقطة صغيرة ضمن الحشود التي اجتمعت للاستماع لخطبة المهاتما، أن حياته كلها قد تغيرت عند سماع ذلك الصوت. أين هم الآن أولئك الأصدقاء، والذين نسي أسماءهم أو وجوههم؟ هل غيبهم الموت، أم يعيشون في نفس المدينة خلف أقنعة جديدة، كذلك المحامي الأدرد، أو ذلك الرجل المنحني الظهر لدرجة أنه لم يعد قادراً على النظر إلى أي كان؟ وأين هم أصحاب الوجوه المألوفة، والذين كانوا في يوم ما زملاء فصل واحد، أو رفاق لعب تجمعوا كل مساء حول التمثال، وباتوا يمرون ببعضهم بعضاً يومياً، لكنهم لم يتبادلوا، منذ قرابة عشرين عاماً، أكثر من أربع كلمات؟ وقال الرجل الملتحي بلهجة اتهام «غرقتَ في بحار التأمل والتفكير العميق».

قال جاجان «كان غاندي سيداً لي». ولم يبال الملتحي بذلك التصريح، وربما شعر بالغيرة لإطلاق لقب «سيد» على رجل غير سيده. وسأل بلهفة بهدف العودة إلى الموضوع الأهم، سأل «متى ستجد الوقت للذهاب معي؟».

قال جاجان على الفور «غداً. تعال إلى هنا عند الواحدة من بعد الظهر. هل ستريني تماثيل سيدك؟».

«لا، كما قلت، إنها متناثرة في جميع المعابد. فقد كان دوماً محاصراً من قبل بناة المعابد. ولم يكن من نوعية الأشخاص الذين يحتفظون بأعمالهم داخل بيوتهم».

شابَ كلام الرجل حدةٌ دفعت جاجان للاعتذار منه «أوه، لم أقصد ذلك. إلى أين ستأخذني؟».

«سأريك المكان الذي عاش وعمل فيه سيدي. هذا هو كل شيء».

«هل تعمل هناك حالياً؟».

«لا، كما قلت لك، أقيم حالياً خلف هذ الشارع».

«وهل تصنع تماثيلك هناك؟».

في تلك اللحظة، انفجر الرجل في ضحكة كبيرة وقال «ألم أخبرك بما أقوم به حالياً؟ إني أصنع صبغات الشعر. أستطيع تحويل أكثر الرؤوس شيباً إلى سوداء فاحمة. ويعتبر صاحب المطعم من أشهر زبائني في المدينة. أقوم بزيارته شهرياً، وأصبغ شعره بيدي، وإلا فإنه سيبدو أبيض اللون كالحليب. وبعد أن أعيد إلى شعره لونه الأصلي،

يوصلني بسيارته إلى بيتي، وهكذا جئت بصحبته هذا المساء، وهو يوم سعيد، لأني تعرفت إلى شخصك الكريم».

«وأنا سعيد أيضاً. لم ألتق قط بصانع صور وتماثيل».

«ولستُ حالياً واحداً منهم. أنا مجرد ملون للشعر الأبيض. وقد جئت لأسألك إن كنت بحاجة إلى خدماتي.

تتركز مسؤوليتي في جعل الناس يبدون أكثر شباباً. ويقدر مالك المطعم خدماتي. إسأله إن كان لديك شك في ذلك». تردد جاجان للحظة، ثم قال معتذراً «لا أدري إن كنتُ قادراً على الإقدام على تلك الخطوة»، وتخيل تعليقات مالي وجريس. وقد لا يلاحظ مالي ذلك، فإنه نادراً ما نظر إليه. ولكن لم لا يحاول إسعاده؟ وقد تذكر فجأة أنه هو نفسه مختص في هذا الأمر وأشياء مشابهة. «أليس للغذاء علاقة بلون الشعر. وسيظهر كتابي حول هذا الموضوع في يوم ما، وسترى بنفسك. إن اتبع الناس غذاءً منضبطاً وفقاً لمتطلبات الطبيعة، لن ترى شعراً أبيض في أي رأس». قال الرجل «ولهذا السبب لا يوجد دب أشيب». وقد ضحك من النكتة.

أما جاجان، فقد كانت تلك الملاحظة مدعاة لتساؤل جاد. وقال بهدوء «يجب أن أفكر بهذه النقطة عندما يتم إعداد كتابي بصورة نهائية».

الفصل الثامن

غطت سطح البركة أزهار لوتس زرقاء، وقد انتشرت فوق درجات محطمة قريبة منها طحالب ونباتات مائية. وعلى الضفة بني ضريح صغير فوق أعمدة حجرية، وعلت سطحه ألواح من الجرانيت أسوَد لونها بفعل عوامل الطقس، والزمن ودخان أفران عابري السبيل. وقد انحنت فوق ذلك البناء الصغير، أشجار الأثاب (تين النبغال: شجر ضخم) والمانجو، وامتدت من خلفها مجموعات أخرى من أشجار صغيرة، وقد تخللت الرياح أوراقها مولدة همهمات متواصلة كأنها أمواج بحر. كما انتشرت في المنطقة المحيطة بها نباتات من شتى الأنواع والأشكال، حيث تداخلت أشجار العليق مع أغصان شوكية، إلى جانب أشجار اللانتانا والدفلى وغيرها. وقد التمعت أشعة الشمس فوق سطح البركة. وظل الرجل الملتحي، الذي قاد جاجان إلى البركة، غارقاً في التفكير يراقب بعض الطيور، وهي تغوص في الماء.

وكي يخرق ذلك الصمت المخيف، علّق جاجان «يسود الهدوء في كل مكان».

هز الرجل الملتحي رأسه وقال «ليس كما كان من قبل. فقد تسللت عدة حافلات إلى الطريق السريع منذ أن بني وسط الهضاب...».
وصمت قليلاً قبل أن يستطرد «في تلك الأيام، عندما أقمت مع

سيدي في هذا المكان، استحال أن تلتقي بأي إنسان ما لم يخترق أخدود نالابا، ويعبر المدينة. كما لم يكن من عادة الناس، في ذلك الوقت، تسلق الجبل بكثرة كما يفعلون اليوم، وخاصة أن اللصوص كانوا يختبئون وسط الغابات، وتسرح وتمرح النمور والفيلة عند سفح الهضاب». وقد بدا مكتئباً بسبب شق الطريق السريع، ووصول الحافلات إلى ذلك المكان الهادئ.

وسأله جاجان «لما اخترت العيش في هذا المكان؟»

قال، وقد أشار نحو أيكة «وأين كان بوسعنا أن نعيش؟ فقد احتجنا إلى تلك الأحجار. هل ترى قمة هضبة ممبي؟ فمن أجل الحصول على حجارة ناعمة، كنا نتجه إلى منطقة تقع منتصف هذه الهضبة، وذلك بالرغم من صعوبة قطع الأحجار هناك، فضلاً عن وجود عدد كبير من الأحجار المحطمة». وبدا كأن رأسه مليء بمشاكل عويصة.

وقد راقبه جاجان بدهشة، ثم سأله «وكيف يؤمن الرجل طعامه، وكيف يؤمن معيشة زوجته وأطفاله في مكان كهذا؟».

رمقه الرجل الملتحي بنظرة تباهٍ وتكبرٍ، وكأنه أراد تجاهل ذلك السؤال السخيف «لم يهتم سيدي بمثل تلك الأشياء. لم يتزوج قط. وقد أتيت إليه عندما كنت في سن الخامسة. ولا أعرف من هما أبويَّ. وقد اعتاد الناس التأكيد على أن سيدي وجدني عند ضفة النهر».

وأراد جاجان أن يسأله بفضول، لكنه قمع الاستفسار، وذلك عما إذا كان الرجل الملتحي وليد عشيقة عابرة لسيده المزعوم، والذي

لم يتزوج مطلقاً. وبينما استغرق الرجل في استرجاع ماضيه، قال جاجان لنفسه «له أكثر اللحى بياضاً، ويبيع أشدَّ أنواع الصبغات سواداً. فلم لا يطبقُ حرفته على لحيته؟» وسأل بصوت مرتفع «كيف هو حال عملك؟» وهو سؤال اضطر لطرحه كل بضع دقائق، وكلما ساد بعض الصمت.

قال الرجل الملتحي «لا شيء يدعو إلى القلق، ولم يجد جباة الضرائب بعد طريقهم إليَّ».

قال جاجان «ذلك أمر سار بالفعل». وقد تذكر الزيارات التي وجُبَ عليه تحملها، والمفتشين ومرؤوسيهم وهم يعبثون بمكتبه بحثاً عن سجلات حساباته اليومية، وفواتير مبيعاته. وفي نهاية الأمر كانوا يقبلون السجلات التي يقدمها، وهم غافلين عن الأموال التي ترد بعد انتهاء ساعات البيع الرسمية، والتي تعبأ داخل الجرة الصغرى. وقد كره جاجان تلك الزيارات، ولكنه لم يستطع منعها، كما هو حال الأعشاب الضارة التي كثرت ونمت في الساحة الخلفية لبيته. كان يمقت بشكل غريزي وغامض كل ما يتعلق بأية ضريبة. ولو قال غاندي في مكان ما «إدفع ضريبتك دون احتجاج» لاتبع نصيحته، ولكن، حسب علم جاجان، لم يشر غاندي قط إلى الضرائب على المبيعات.

وقال إلى الرجل الملتحي «ولكنهم سيأتون إليك عاجلاً أم آجلاً،

وذلك عندما يلاحظون قلة الشعر الأبيض في رؤوس الناس من حولهم». وأطلق ضحكة مجلجلة.

كما استغل جاجان تلك الفرصة ليقول «على كل حال، إنك استثناء لقاعدتك».

«أحب اللحية البيضاء وأحافظ عليها. وليس كل أشيب مجبراً على صبغ شعره. ولو اتيحت لي فرصة العمل بالأحجار، لما عملت في صباغة شعر الناس. ولكنك تعلم كيف تجري مثل تلك التطورات. فقد دعمني سيدي طوال سنين عديدة. وكرر جاجان في سره «كان مجبراً على رعايتك، لأنك كنت ابنه الوحيد من عشيقة راحلة». وأشار الرجل الملتحي إلى ركن في قاعة تستند إلى أعمدة، وقال «عمل على حفر تلك النقوش الدقيقة، وقد نقلتُ الأحجار إلى هذا المكان. كما عاش حياته بأكملها في هذا المكان. وكان بالإمكان جمع كل ما امتلكه في راحة يد واحدة. كنت أطهو له حفنة من الأرز في ذلك الركن، حيث ترى الجدران المسودة. ولطالما جلس هناك طوال النهار، وعمل على نحت تمثال، أو كنا نقصد مقلع الأحجار لتقطيع ألواح حجرية. ولم يكن يقابل أي شخص، ما عدا بعض القيِّمين على المعابد عند زيارتهم لطلب تمثال معين. فقد خشي الناس من القدوم إلى هذا المكان بسبب الأفاعي، ولكن سيدي أحبها، ورفض قطع الأشجار من حوله. وقد امتلأت هذه الشجرة بالقرود، وتستطيع رؤيتها حالياً. كما كرر مراراً «سأشارك القرود في تناول ثمار هذه

الشجرة». كما استمتع بصحبة الأفاعي والقرود، وجميع أنواع الكائنات، وعثر ذات يوم على فهد بين الشجيرات. وقد أكدً سيدي مراراً قوله «يجب أن لا نحتكر الأرض. لن تؤذينا تلك المخلوقات». وفي حقيقة الأمر، صح قوله. لم تضرنا تلك المخلوقات، ولم تعكر صفونا. وعندما مات ذات ليلة، أمضيتُ الليل في حراسته مستعيناً بمصباح زيتي صغير، ثم وضعت فوق جثته قطعاً خشبية وأوراق أشجار ذابلة، وأحرقتها بجانب تلك البحيرة. وفي اليوم التالي، نزلت إلى المدينة وعشت على صدقات من هنا وهناك، حتى خطرت لي فكرة العمل في صباغة الشعر. وهذا هو كل شيء. ولا أجد، في حياتي الحالية، مبرراً للشكوى أوالتذمر، ولكن كنت أسعد حالاً في صحبة سيدي...» وسار حول القاعة الصغيرة، وهو مطرق الرأس، غارقاً في التفكير. وأضاف «قبل قدومنا بعدة سنوات، سُرِقَ من هذا المعتزل تمثال لإله شهير. وفي ذات ليلة، استيقظ سيدي وقال «هيَّا نصنع إلهاً جديداً لهذا المعبد، وعندها سيزدهر المكان من جديد». وقد حلم بإله ذي خمسة وجوه، لا يوجد له مثيل في مكان آخر. وقد قطع ألواحاً حجرية خاصة بالتمثال، ثم بدأ في نحته. وقد تركتُ تلك الألواح في مكان ما في تلك الساحة. هيَّا أبحث عنها...». وقد دب فيه النشاط فجأة، وبحث داخل كل ركن في المعبد، واتجه نحو ساحته الخلفية، حيث نمت نباتات الدفلى والخبيزة. وقد اكتشف عوداً من خشب الخيزران فصاح فرحاً «آه، ما زال هذا العود هنا»،

وأمسك به وسار في المكان، وقد بدا كأنه تمثال نحت قبل ألف عام. عند مراقبته في ذلك المكان، صَعُب على جاجان، والذي تبعه في صمت، أن يصدق أنه يعيش في القرن العشرين. وبدت عمليات بيع الحلوى والمربيات، ومشاكل ابنه بعيدة، ولا تمت له بصلة. كما بدت الحقائق من حوله ضبابية، ورأى بأن ذلك الرجل القادم من الألفية السابقة هو الشيء الوحيد الجدير بالمتابعة، وشعر كأن شيئا قد تملّكه. وأشارالرجل إلى منطقة عشبية تحت شجرة نخيل، وقال «هنا أُحرِق جسد سيدي، وما زلت أذكر تلك الليلة الرهيبة». ثم وقف تحت شجرة نخيل مغمض العينين للحظة، وأخذ في تمتمة أشعار مقدسة «يجب أن لا نسمح للجسد بأن يخدعنا ويبعدنا عن حقيقة وجودنا. وليس الإنسان مجرد عظام ولحم. وقد اثبت سيدي ذلك» أطلق تلك الكلمات، وسار بسرعة كبيرة، وكأن حمى من النشاط المفاجئ قد دبت في أوصاله. وأخذ يضرب بعصا الخيزران كل غصن، مخيفاً مختلف أنواع الكائنات ـ سحالي وحرباء وطيورا وضفادع، عاشت منذ سنين داخل الغابة في أمان وسلام. وقد بدا مستمتعاً بإزعاج تلك الحيوانات، واستنشق بصوت مسموع، وبمتعة، رائحة النباتات الخضراء المتكسرة. وقال «أنا واثق بأن أفعى الكوبرا المقيمة هنا لا بد أن تكون قد انسلت بعيداً عند قدومنا. إن هذه الكائنات غير مخادعة، وهي شديدة اليقظة والانتباه...». وقد عثر تحت الأشجار على قطع من الأحجار إلى جانب أخرى منحوتة. وأشار إليها بعصاه موضحاً

«هذه هي قاعدة تمثال فيشنو المَخَصِّصْ لأحد المعابد. وتلك هي أذرع ساراواتي، وهي آلهة التعليم. وقد استحال استخدام القاعدة بسبب اكتشاف سيدي شرخاً داخل الحجر. وكثيرا ما غضب بشدة بسبب سوء نوعية الأحجار، ولم يكن يتردد، عند اكتشافه خللاً ما، في رمي القطعة المنحوتة، والتخلص منها نهائياً. ومن ثم يظل صامتاً لمدة ثلاثة أيام. وفي مثل تلك الأوقات، تعمدت الابتعاد عنه مختبئاً خلف جذع شجرة التمر الهندي القريبة من المكان. وكان من عادته أن يناديني حالما يزول غضبه، ويستعيد مزاجه المعتاد. ولكن أين هي الكتلة الثانية، والتي بلغ حجمها مقدار نصف متر مربع؟ لا يمكن أن يكون قد نمت لها أطراف وسارت بعيداً. ولكن دعني أؤكد لك بأنه إذا كان التمثال كامل المواصفات، فإنه لا يبقى ساكناً فوق قاعدته. واسمح لي أن أقص عليك حكاية الجسد الراقص للإله ناتاراج، والذي كان مكتملاً لدرجة أنه بدا كأنه راقصة كونية. وقد اهتزت المدينة بأكملها، وكأن زلزالاً قد أصابها، إلى أن قطع سيدي إصبعاً صغيراً منه. وقد عمدنا لقطع جزء صغير من كل تمثال، دون أن ينتبه أحد إلى الخلل الصغير، والذي تم عادة حرصاً على سلامة القطعة الفنية المنحوتة».

وقد تابع الرجل الملتحي حديثه، وجاجان فاغراً فمه، وكأن عالماً جديداً قد فُتِح أمامه. كما أدرك، على نحو مفاجئ، مدى صغر وضيق أفق حياته، والتي أمضاها ما بين تمثال لولي ومحل الحلويات. ولم تعد مضايقات مالي تعني له.شيئاً. وتساءل في سره «هل أوشك على اقتحام

عالم جديد؟» ولم يعد يهمه شيء في الحياة، وقال بصوت عالٍ «إن مثل تلك الأمور شائعة في الحياة العادية، وهي تمر دوماً في هدوء».

وعلّق الملتحي، والذي كتم دهشته لدى سماعه كلمات جاجان «صحيح، صحيح، يجب أن لا تنسى التفكير بنفسك كإنسان ليس من لحم ودم وحسب». ومد يده نحو شجرة جوافة، وانتزع ثمرة، وقضمها بمرح طفلٍ في العاشرة، وقال «تعطي هذه الشجرة أجود أنواع الفاكهة. ويتهافت القرود على ثمارها. وتجد، في مواسم معينة، قمتها حافلة بقرود تبدو كأنها أوراق التصقت بأغصانها». ثم أحنى غصناً آخر، وقطع ثمرة ثانية قدمها إلى جاجان الذي أخذها على سبيل المجاملة، ولكنه لم يأكلها، وقال معتذراً «أتجنب السكر والملح».

سأل الرجل الآخر «لماذا؟».

وجد صعوبة في شرح فلسفته الكاملة في الحياة من خلال كلمات محدودة. وفضل القول «ستجد كل ذلك موضحاً ضمن كتابي». وعند ذكر كلمة «كتاب» فقد عاد إلى الرجل الملتحي اهتمامه. فقد اعتاد إلى عالم النحت والنقوش والكتابات على الأحجار وأوراق شجر النخيل، ولم يشغله ذكر كتاب مطبوع. وأضاف جاجان، الذي لم يتأثر بموقفه «إن صاحب المطبعة، ناتاراج، هل تعرفه؟» في ذلك الوقت، كان الرجل الملتحي قد فقد اهتمامه في الموضوع برمته، وتابع حديثه متجاهلاً جاجان. كما لم يلاحظ أنه لم يقضم شيئاً من الثمرة،

بل عمد لرميها على الأرض، وهو غير قادر على اتخاذ قرار فيما إذا كانت نافعة أم ضارة، طبقاً لمعتقداته الغذائية. كم سيخجل من نفسه إن كانت نافعة، وامتنع عن تناولها، لأن الثمرة بدت جذابة بلونها الأخضر المائل إلى الصفرة في أعلاها، كما تلونت بظلال حمراء في وسطها، فضلاً عن كونها لينة الملمس. وقبل تطوير نظرياته في العيش الحكيم والهادئ، اعتاد جاجان على تناول عشر ثمرات يومياً، ويمكن القول أن رائحة الجوافة التصقت به منذ بلوغه السابعة إلى أن أصبح شاباً يافعاً. وقد نمت شجرة جوافة هائلة في حديقة بيتهم. وفي يوم من الأيام، حمل أبوه فأساً وقطعها وقال «لن يأكل هؤلاء الشياطين الصغار شيئاً ما دامت هذه الشجرة الملعونة منتصبة هنا. ألا ترون كيف يصاب بالمغص أحدهم تلو الآخر...». وبينما لحق جاجان بالرجل الملتحي، غير مستمع إلى كلامه، استحوذت الثمرة التي امتنع عن أكلها على تفكيره، إلى أن سأله الرجل «هل تستمع لي؟».

قال جاجان «نعم، نعم، بالطبع».

أضاف «بحثنا هنا وهناك، ولم نعثر على اللوح الحجري. لا بد أنه موجود في مكان ما». وضم العصا إلى صدره، وأسند ذقنه عليها، وغرق في تفكير عميق.

ولم يستطع جاجان منع نفسه من سؤاله «ما سر اهتمامك باللوح الحجري؟».

«أؤكد لك أنه شديد الأهمية. وعندما أعثر عليه سترى بنفسك».

وحرر نفسه من العصا، وتابع قوله «الآن تذكرت. تعال معي». وتحرك بسرعة كبيرة باتجاه البحيرة. «انزل معي. انتبه إلى هذه الدرجات. إنها زلقة». ونزل الرجل الدرجات حتى غمرت المياه ركبتيه. وتخلف جاجان عنه، وهو عاجز عن فهم ما يقوله. وحدث نفسه «ربما يريد إغراقي في البحيرة، وسيعود إلى المدينة ليقول «اختفى بائع الحلوى)». والتمع وجه الرجل الآخر بفرح وحماس وصاح «ألا تأتي معي. هل أنت خائف من تبليل ملابسك؟ تستطيع تجفيفها لاحقاً». وقد اتسمت لهجته بالتسلط والحسم.

ونزل جاجان الدرجات المغطاة بالطحالب فشعر كأن أشياء تزحف تحت قدميه. وقد ابتلت ثيابه، وارتعش، وهو يراقب بإعجاب كيف يحوم النحل حول أزهار اللوتس. كما شعر بشيء من السمو والنبل، وفكر بأن ما مر به لحظات رائعة، ولا مانع من تجاهل متاعب الحياة اليومية، ونسيانها كي تحل نفسها بنفسها. وبينما كان غارقاً في أفكاره، رفع الرجل الآخر رأسه، وقد وقف على أطرافه الأربعة، وقال «تعال»، وقد التمعت عيناه واهتزت لحيته مع حركة الرياح. وحدث جاجان نفسه «لا مجال للتراجع. إنه يستعد لإغراقي. وهل يفترض بي العودة والهروب بسرعة؟ لا ليست هناك فرصة للتراجع»، وهبط درجة أخرى، وقد وصل البلل إلى وسطه. وقال لنفسه «إن الماء البارد مفيد لمرضى الروماتيزم، ولكنني لست مصاباً بالمرض. وإن لم أمت غرقاً في هذه المياه، سأموت بسبب ذات الرئة. وأتمنى في الحياة

الآخرة أن أولد على هيئة..» وطافت في خياله خيارات مختلفة. هل يختار أن يكون كلباً أليفاً، أم قطة مفترسة؟ أو حماراً؟ أو مهراجا يعلو فيلاً؟ إنه يريد أن يكون على هيئة أي كائن سوى بائع حلوى عنده ولد مدلل لم يحسن تربيته.

في ذلك الوقت، ظل الرجل الملتحي واقفاً على أطرافه الأربعة، وخاطبه بلهجة آمرة «ضع يديك هنا وتلمس...».

وقد أطاع جاجان الأمر مثبتاً نفسه على قاع البحيرة الزلق.

سأل الرجل بإلحاح «بماذا تشعر؟».

أدرك جاجان أنه منذ أن وطئت أقدامهما الحديقة، أن الرجل تسلَّط عليه شيئاً فشيئاً. لم يعد هو ذلك الرجل الأليف الذي يصبغ الشعر في شارع كابير، بل أصبح أشبه بقائد لقوات عسكرية، وكسيد اعتاد توجيه أوامر لأشخاص ينفذونها دون اعتراض. ولا شيء يشبه الطاعة العمياء. وغمر جاجان ذراعيه في الماء، وارتعش عندما أمسك شيء ما بفكيه. وصاح «آه» ولم تكن تلك القبضة القوية سوى يدي الرجل الآخر. ولاحت ابتسامة عريضة على وجه ذاك الرجل، وهو يأخذ بيد جاجان المغمورة بالمياه، ثم يمررها فوق سطح حجري. وقال «هذا هو الحجر الذي وصفته، وبحثت عنه. هيَّا نستخرجه. إمسك به من جانبك. ألا تستطيع رفعه؟ لست مندهشاً. فلو كنت تأكل بشكل طبيعي كباقي البشر، أو تتناول بعضاً من الحلوى التي تبيعها إلى الناس، لكنت في حال أفضل. أذكر أن سيدي غَمر هذا

الحجر في الماء بهدف تنعيم حوافه الخشنة. هل تشعر بالنقوش التي نحتها في بداية عمله؟ وقد باشر في نحت هذا الحجر، لكنه قرر، فيما بعد، أنه بحاجة لتمليس بفعل قوة المياه الجارية. وكثيراً ما ردَّد سيدي أنه كلما بقي الحجر تحت سطح المياه لفترة أطول كلما...».ثم نظر بخيبة أمل، وتابع «لو أردتَ حمل الحجر، لاستطعت رفعه من الماء. إن كل ما ينقصك هو قوة الإرادة. ورغم كل شيء، ليس هذا تمثالاً كبيراً، بل صغيراً لا يزيد طوله عن نصف متر، ولن يزيد ارتفاعه عن أربعين سنتيمتراً عندما يكتمل صنعه. ألا تستطيع حمل حجر لا يزيد ارتفاعه عن أربعين سنتيمتراً؟. إني مندهش. لا أريد منك سوى مساعدتي، ولا ترفعه بنفسك، بل ساعدني». واسترسل في تملق جاجان، ومداهنته حيناً، وفي بذل جهد كبير لحمل الحجر حيناً آخر، إلى أن شعر جاجان بوجوب مساعدته. وأعدَّ نفسه لتلك المهمة الشاقة بأن رفع قميصه إلى أن أحاط برأسه، وثبَّت الدوطي وفق ما يستلزمه ذلك الجهد. وحبس نَفَسَه، وأمسك بطرف الكتلة الحجرية، ثم توقف للحظة ليفكر فيما إذا كان سنه يؤهله لحمل لوح حجري والصعود به فوق درجات رطبة. ولكن، لم يكن الوقت مناسباً كي يمحص التفكير بحالته الصحية. وعندما وصلا إلى أعلى الدرجات، رمى الحجر، وارتمى بكل ثقله على الحشائش، وأغمض عينيه.

وعندما استعاد جاجان حيويته، وجد رفيقه وقد أخذ في دحرجة

الحجر، وفي شرح ما سيقوم بعمله «سيكون هذا هو الرأس. اقترب كي ترى الخطوط التي صنعها سيدي بواسطة خنجره الصغير، وهو المخطط الأولي للإله». وقد أزال طحالب نمت فوق سطحه، واستغرق في تأمل عميق. وأما جاجان، فلم ير أمامه شيئاً مختلفاً عن أية كتلة حجرية أخرى، وحتى أن الخدوش التي صنعها السيد لم تكن مقنعة. لكن الرجل الملتحي بدا مسحوراً عند رؤيته لتلك الخطوط. وقال «من هنا تبرز يدا الآلهة، وسيكون لها عشرة أذرع. وباستثناء اليد التي تشير إلى الحماية، والأخرى التي تمنح الرحمة، فإن جميع الأذرع الأخرى تمنح عدة أشياء مقدسة». واستغرق، لبعض الوقت، في تخيلات عن الآلهة، ثم أخذ يروي قصة.

قال جاجان «أعرف قصة الآلهة».

أجاب ملون الشعر «ومن لا يعرفها؟ ورغم ذلك من المفيد الاستماع إليها مرات ومرات، وستحظى دوما بحماية الآلهة، وكل ما تقوم به سيكون ناجحاً». وأخذ في إنشاد أغنية باللغة السنسيكريتية. وتطايرت العصافير الواقفة على الأشجار بفعل صوته العالي. وسارعت الضفادع القريبة من حافة البحيرة بالعودة إلى الماء، وتسمرت عينا جاجان على التموجات الصغيرة التي أحدثتها، فوق سطح الماء، حركة سمندل البحر، وغيره من الكائنات المائية.

وقال الرجل «إن استطعت تكريس حياتي لإنجاز هذه المهمة سأموت راضياً».

سأل جاجان «كم عمرك؟».

«هل تريد أن تعرف؟ إذن خمن».

لطالما أربك ذلك السؤال جاجان، حيث لم يكن يدري فيما إذا كان الذين يطرحون ذلك السؤال يرغبون بأن يكونوا أصغر أو أكبر سناً. وفي كلا الحالتين، شعر بأنه عاجز عن الخوض في جدال، ولذا قال «لا أستطيع القول... «وقد نظر إلى رأس الرجل الأصلع. (وقال لنفسه «لا مكان لتجريب صبغته هناك»).

وعلى نحو مفاجئ، قال الرجل بلهجة واقعية «أبلغ من العمر تسعة وستين عاماً، ومستعد لأن أموت في سلام في عيد ميلادي السبعين، بشرط أن أنتهي من نحت هذا التمثال، وأضعه فوق قاعدته». سأل جاجان «هل ستكون قادراً على إنجازه في عام واحد؟».

قال الرجل «قد أستطيع وقد أفشل. كيف لي أن أتوقع ما سيحدث، فإن كل شيء يجري بإرادة الله. كما أنه مع حدوث كل ذلك التنعيم في الحجر بفعل المياه، فقد يتحطم اللوح الحجري من منتصفه، وعندها ما الذي يستطيع مثَّال أن يفعله، مهما بلغت براعته؟ وقد خطرت لجاجان عدة احتمالات. وبينما كان يبحث عن إجابة، قال الرجل «عندها سنرمي بالتمثال المحطم، ونبدأ بالعمل من جديد على لوح حجري منقول من المقلع، ثم نغمره في المياه كي يصبح أملسَ، وهذا هو كل شيء».

«وماذا لو تحطم ذلك الحجر أيضاً؟».

قال الرجل باكتئاب «ذلك يعني أن الفكرة مشؤومة، ولا داعي لتنفيذها». ثم أضاف «ولكن الحجر الثاني لا ينكسر عامة». وجلسا في صمت إلى أن خرق الرجل جدار الصمت وقال «عشر أيدٍ! أوه، إن الصورة ذاتها تبعث في قلبي الحماس». وانطلق في إنشاد أنشودة بالسنسيكريتية، موكتا - فيدروما- هيما....» وعندما أنهى تلك المقطوعة الشعرية سأل «هل تفهم معنى تلك الإنشودة؟».

أجاب جاجان بحذر «نعم، إلى حد ما».

قال الرجل «ذلك يعني أن الآلهة التي لها محيًا بريق الموكتا، وهي اللؤلؤة، والهيما، أي الذهب، ومن ثم زرقة حجر الزفير أو السماء، ومن ثم احمرار حجر المرجان ...». وتنهد قبل أن يستأنف شرح الأنشودة «بما أن الآلهة تمثل النور الذي يضيء الشمس ذاتها، فإنها تحتضن في أعماقها جميع الألوان وكل أنواع اللمعان والبريق، ممثلة في خمسة رؤوس ذات ألوان مختلفة. كما أنه لتلك الآلهة عشر أيدٍ، تحمل كل منها محارة، وهي أصل الصوت الذي يمنح الكون حركته، ومهمازاً لقمع القوى الشريرة، وحبلاً لتوثيق عرى المحبة والخير. كما تحمل الأيدي أزهار اللوتس التي ترمز إلى الجمال والتناسق. كما تقدم الأيدي كابالام، وهو وعاء للتسول مصنوع من جمجمة بشرية بيضاء اللون. إنها تجمع في قدسيتها كل ما نفكر ونشعر به إزاء الكائن البشري، بدءاً من العظام الصلبة وصولاً إلى جميع أشكال الجمال والسحر الإنساني»..

وقد تشبَّع جاجان بالرهبة والتقدير لتلك الصورة. وأمعن الرجل الملتحي في التفكير لبعض الوقت، ثم قال «أمضى سيدي أوقاتاً طويلة في التخطيط لهذا الشكل، وأراد أن يصنع التمثال كي يدفع الناس للتأمل والتفكير. ذلك كان هو هدفه، وإن استطعتُ تنفيذه، سأتخلى عن كل عمل آخر في الحياة». ثم وصل إلى النقطة الحاسمة والعملية وقال «إن رجلاً مثلك هو الشخص الوحيد القادر على مساعدتي في إنجاز هذه المهمة».
فوجئ جاجان بما سمعه. لم يفكر قط بأن تلك المهمة ستلاقي اهتمامه. وسأل بخوف «كيف؟ كيف؟». وقبل أن يستجمع الرجل الآخر أفكاره، أضاف «لا تفكر كثيراً بي. لا، لا، فأنا، قبل أي شيء، لست سوى تاجر عادي».

وبدوره سأل الرجل «لم لا تشتري هذه الحديقة وتضع فيها الآلهة؟».

أجاب جاجان «لا، لست أدري». وقد تعمد مضاعفة سلاح الدفاع عن النفس، وحاول أن يسخر من الفكرة. ولكن الرجل بات في غاية الجدية، ونهض ولوح بإصبع قربه من عيني جاجان وقال «حسناً، أقدر موقفك. ظننت أن مكاناً منعزلاً كهذا سيجلب لك السرور والهدوء».

«نعم، يعلم الله أني بحاجة إلى مكان منعزل. تعلم، يا صديقي، أنه في مرحلة معينة من الحياة يحتاج المرء للابتعاد عن بيئته المعتادة

كي يعيش في هدوء وسكينة. ووفقاً لما ورد في كتبنا المقدسة، فإن من أعظم الأعمال أن يختفي الزوج والزوجة في مرحلة ما من حياتهما داخل غابة، كي يتركا شؤون الحياة للجيل الأصغر».

وقد شعر جاجان بالموافقة الضمنية على عرض الرجل، ورغب في توضيح سبب حاجته إلى الهرب - موت زوجته ونمو ابنه وتطوره الغريب، وكيف أن بيته القديم خلف تمثال لولي باتِ أشبه بجهنم على الأرض - ولكنه حبس لسانه. شعر بالخجل من ذكر ابنه وسلوكياته الغريبة، وصمت كرجل لا يريد فضح أحزانه وآلامه.

الفصل التاسع

أصبح لجاجان مفتاح خاص به دخل بواسطته إلى بيته بهدوء، وعبر الممر وأغلق الباب الفاصل بين القسم الخاص به من البيت والقسم المخصص لابنه. ثم علق قميصة على مسمار في الجدار، وخلع جبته، وخرج إلى ساحة البيت وصب على جسده كمية وفيرة من المياه الباردة، وخرج من الحمام. وقد شعر بجوع شديد، في ذلك اليوم، فوضع قدراً من الماء فوق الموقد، وقطَّع بعضاً من الخضار، ووضعها في الماء، إلى جانب كمية صغيرة من الدقيق. وكان الجو حاراً، وقد فضل البقاء بدون صديرية. وبينما أخذ طعامه يغلي على نار خفيفة، وقف أمام الآلهة للحظة مغمض العينين، ثم أشعل فتيلة من الزيت، وأخرج من خلف لوح خشبي كبير شاركاه الصغيرة (عجلة غزل خشبية). وبعد ذلك، أدخل لفافة من القطن، وأدار العجلة وسحب خيطاً رفيعاً، وأخذ يراقب استطالته بسرور ظاهر. فقد كان للأزيز الخفيف الصادر عن العجلة، ولرؤية الخيط ينمو بين إصبعي إبهامه والسبابة، أثرٌ كالمهدئ للأعصاب والأفكار. وقد نصح غاندي بغزل القطن، وذلك ليس بهدف تحسين الوضع الاقتصادي في البلاد، وحسب، بل كوسيلة لمعالجة الآلام النفسية والفكرية. كما اعترى جاجان بعض الاضطراب. وفي الوقت نفسه، شعر بأنه يمر في حالة تحول كبير. وتساءل في سره، إن كان ذلك هو حاله الجديدة، فلماذا

يعاني أو يرفض الفكرة؟ فبعد أن كرس حياته لأشياء دنيوية، وهي محله والأسرة، بات في تلك اللحظة رجلاً آخر. لقد طرأ عليه تحول داخلي كبير. ورغم أنه ما زال يهتم بالمحل والبيت، فإن الحدث الأخير أثّر عليه بعمق. لا بد أن الآلهة أشفقت على عزلته وحالته المضطربة، فأرسلت له ذلك المخلص ذي اللحية البيضاء. وبينما واصل تدوير عجلة الغزل، جلس في ساحة البيت، ومن حوله شجرات جوز هند طاولت السماء، وتموجت بين النجوم، وقد أخذ في تحليل كل شيء بوضوح كامل. وتساءل عما إذا كان الرجل الملتحي قادماً من كوكب آخر، وإلا ما الذي أتى به إلى محله عندما كان في أمس الحاجة إليه؟ قال الرجل أنه بحاجة لمساعدة جاجان في نحت تمثال للآلهة، بينما شعر هو نفسه بأنه تلقى مساعدة كبيرة. وقد عجز عن حل ذلك اللغز، ولذا توقف عن التفكير به. وفي جميع الأحوال، جلس يفكر في هدوء وسكينة، وقد نقل له الرجل صورة مثيرة عندما وصف له آلهة ذات خمسة رؤوس. وهل يفترض به مساعدته أم الامتناع عن إنجاز تلك المهمة؟ فهو لا يعرف عنه شيئاً. وكيف له أن يثق به؟ وعلى أي أساس؟ وبعد أن ينهي نحت التمثال، ماذا سيتم بشأنه؟ هل سيعيش في صحبته وسط تلك الغابة على أن يساعده في نحت تماثيل أخرى؟ وما الذي سيتم بشأن مهنته في صباغة الشعر؟ قد يعمل في تلك المهنة بالإضافة إلى محله الخاص بصنع الحلويات. في تلك الحالة هل سيجري خلف كل ذي رأس أشيب، ويكسب مزيداً من المال،

ويسيء إلى مالي، ويقضي على سمعته؟ وقد أوقف عملية الغزل، وقطع حبل أفكاره، كي يتابع طهي الخضار على الموقد. ثم عاد إلى عجلته، وهو يفكر بالقوانين الثابتة للطبيعة، والتي علّمته ضرورة عدم سلق القمح لأكثر من ثلاثين دقيقة، وأنه إذا سلق لمدة أربعين دقيقة، فإنه يتحول إلى عصيدة غير نافعة. كما رأى أن توخي الدقة الكاملة هو أهم شيء عند تحضير الطعام وتناوله. وقد عمل جاجان على ترسيخ تلك المعلومات المفيدة ضمن كتابه، والذي يفترض أن يتوفر حالياً بين أيدي القراء، لولا تقاعس ناتاراج عن طباعته. وتساءل عن سبب إهمال ناتاراج للكتاب، في حين طبع النشرة التمهيدية لمشروع مالي بحماس وسرعة؟ ربما لم تعجبه أفكاره، ولكن لا يفترض بأصحاب المطابع الإعجاب بالأفكار كي يطبعوها. يجب أن يكون مثل سيفارامان، والذي كان مكرهاً على إعداد أنواع من الحلويات، رغم امتناعه عن تناولها. ثم وجد أن خيط الغزل القطني أصبح رفيعاً وطويلاً، وبات أشبه بالعجينة الناعمة التي يستخرج منها سيفارامان خيوط الشعيرية. وأصدرت العجلة ما يشبه الأنين والطنين. ومن خلال السقف المفتوح، رأى جاجان القمر هلالاً من خلف أشجار جوز الهند، ومن أمامه مرت سحابتان تكونتا من خيوط بيضاء رفيعة. وقال لنفسه «ربما تأتي الرياح الموسمية في موعد مبكر هذا العام. وعندها يدخل الإنسان مرحلة جديدة من حياته، ومن الحماقة أن يقاوم ذلك التحول». لم يعد ينظر إلى نفسه كأبٍ لمالي وصانعٍ

للحلويات، وجامع للمال مساء كل يوم. أخذ التحول في شخصيته طريقه إلى نفسه تدريجياً، وفكر بأنه قد يصبح، في يوم قريب، مساعداً للرجل الملتحي، أو أنه سيصبح تحت وصايته بالفعل؟

وطُرِقَ الباب دون أن يسمعه بفعل أزيز عجلة الغزل، ثم فُتِح ودخل مالي، وقد بدا كأنه قادم من عالم آخر، في ظل الضوء الخافت (وقد وضع جاجان مصابيح بقوة عشرة فولتات فقط بهدف تقوية العدسة البشرية). وقد سر عند رؤية ابنه، وأمسك بمنشفة غطى بها صدره. ولو كان على علم بقدومه لكان قد لبس جبته. وترك عجلة غزله، وقفز كي يأتي بكرسي كي يجلس عليه. وقد أخذ مالي منه الكرسي، وهو يتمتم «ما هذه الضجة التي تحدثها!». ثم وضع الكرسي في ساحة البيت وجلس، في حين ظل جاجان واقفاً لا يدري كيف يتصرف. وقال مالي بلهجة آمرة «اجلس يا أبي، ولكن، لا تُشَغلْ تلك العجلة، فصوتها مزعج وأريد التحدث إليك».

في تلك اللحظة شعر جاجان بشيء من الرهبة والوجل، ومسح شفتيه الجافتين. وابتعد عن عجلة الغزل، وضم ذراعيه أمام صدره، وسأل «حسناً، ماذا تريد؟».

قال مالي بنبرة اتهام «الجميع يتحدثون عنك في المدينة». عبس في وجه مالي، ولكنه لم يقل شيئاً. وقد تلاشى تدريجياً الشعور بالرهبة والخوف الذي اعتراه قبل قليل، وتذكر وجوب التسليم بظروف جديدة، وعدم مقاومة المرء لأشياء تضعه أمام عتبة

تحول جديد في الشخصية. وسأل «ما الذي يتحدثون عنه؟ وبدأ في التخلص من جزعٍ سيطر عليه كلما رأى مالي أمامه، وقال «من هم هؤلاء الذين يتحدثون عني؟».

قال مالي بلهجة تحمل اتهاماً صريحاً «يوم أمس تحدث عنك صاحب مطعم آناندا بهافان، وعدد من الرجال».

رفض جاجان متابعة الموضوع، وتمتم «دعهم يقولون ما يشاءون». ولم يكن سعيداً وهو يتكلم مع مالي بلهجة جديدة، وهو الذي كان ينتقي كلماته بدقة كلما خاطبه. وتابع «أنا اليوم إنسان جديد، ويجب أن أتحدث بلسان جديد». ولم يستطع تبين ملامح وجه مالي لأن ضوء القمر كان قد تلاشى نهائياً، في ذلك الوقت، وغطى مصباحه الصغير كل شيء بلون أصفر شاحب، جاعلاً جميع الوجوه والأشكال تبدو متشابهة إلى حد كبير.

وأخرج مالي من جيبة ورقة، وحاول قراءتها، ثم قال بوقاحة «لماذا لا تستخدم مصباحاً قوياً؟».

أجاب جاجان «يجب أن تهدئ أشعة الضوء الخلايا البصرية لا أن تثيرها».

ابتسم الفتى بتهكم وقال «وصلت هذه البرقية من شركائي، مساء اليوم».

عندما سمع جاجان كلمة «شركائي» لم يعد راغباً بالاستماع إلى أي شيء آخر. ولم يعد خائفاً، كما كان قبل ثمان وأربعين ساعة.

وحدث نفسه «خلال ساعات مررتُ بتحولات كبيرة، ولكن الفتى لا يعلم عنها شيئاً. وعلى كل حال سأعامله بلطف وود. لا ضرر من إظهار بعض اللطف». وشعر بلمسات من العطف تجاه ابنه، وندم لأنه عامله بطريقة جافة، وسأله «ماذا ورد في البرقية؟».

فتح مالي البرقية ثانية كي يسلط الضوء على كلماتها، ولكنه أخفق وكرر من ذاكرته «نرجو أن تبرق لنا بشأن وضع ... مشروعنا».

بدا جاجان مذهولاً. لم تكن هي اللغة الإنجليزية التي عرفها. فباستثناء كلمة «أبرق» لم تعط الكلمات الأخرى أي معنى. وقال «ولماذا يطلبون منك إرسال برقية. إن رسالة عادية تفي بالغرض».

قال الفتى «يجب أن نتحرك بسرعة فيما يتعلق بالأمور الإدارية. ولماذا لا تترك الأمر لي. أعرف ما يجب فعله. بماذا أرد عليهم؟».

«ما معنى كلمة «وضع» وأي وضع يتحدثون عنه؟».

أطبق مالي قبضتيه، وقال «هل سنمضي قدماً في تنفيذ مشروعنا أم لا؟».

سأل جاجان «هل ترغب ببحث الأمر الآن؟».

«يجب أن أعرف رأيك».

أشفق جاجان على الفتى الجالس أمامه، وخاصة عندما وجده حزيناً وحائراً، كما لعن الحاجز الذي نشأ بينهما، والذي ازداد ارتفاعاً كلما جلسا سوياً. وقال بلهجة رجاء عميق «بني، سأترك لك مهمة إدارة المحل، إنه ملكك. خذه».

لاحت في وجه الفتى ابتسامة ساخرة لدى ذكر المحل. ولحسن

الحظ، لم يكشف الضوء الخافت تلك الابتسامة بصورة كاملة. ولم يقل سوى «أقول لك للمرة الأخيرة، لا أريد أن .... لقد تعلمت أشياء قيّمة في الولايات المتحدة كلفتني آلاف الدولارات. ولماذا لا يستفيد بلدي من معرفتي؟ أنا ... لا أستطيع ...» ورغم تجنبه لفظ عبارة «بائع حلوى»، ظهر بوضوح جلي كرهه واشمئزازه من تلك المهنة. وساد بينهما صمت قطعه مالي عندما أضاف القشة الأخيرة «على كل حال، تجارتك لا تساوي شيئاً في الوقت الحالي».

«ومن قال لك ذلك؟».

«كل من يعمل في هذه التجارة يتحدث عنك. وعلى كل حال، ما قصدك بما قمت به مؤخراً؟».

لاذ جاجان بالصمت. وفي حين أخذ مالي في وصف آلته لكتابة الرواية بالتفصيل، وكرر مكونات نشرته التمهيدية، أنصت جاجان بينما سارت النجوم في مسارها. وعندما صمت مالي، وقد وصل إلى نهاية نشرته التمهيدية، سأله جاجان «أين هي جريس؟». سأل الفتى «ولماذا تسأل عنها؟».

لم يجب جاجان، ولم يكن مضطراً للإجابة على كل سؤال. وعاد مالي للإلحاح «أود أن أعرف فيما إذا كنت ستشارك في مشروعنا أم لا؟».

«وما الذي ستفعله إن قلت لا؟».

«يجب أن تعود جريس إلى الولايات المتحدة. ويجب أن نشتري لها بطاقة طائرة. هذا هو كل شيء».

سأل جاجان «وما علاقة ذلك بجريس، ورغبتك في تسفيرها؟»

«وقد وجد الرابط بين الحالتين مربكاً ومزعجاً، كما هو الأزيز الصادر من خلفية المذياع.

وسأل الفتى ببساطة «ولماذا يفترض بها البقاء هنا؟ لا تجد شيئا تشغل بها وقتها».

«لا أفهم ماذا تتحدث عنه. لم أكن قط قادراً على فهمك. نادها، ودعني أتكلم معها». فقد اعتاد على وجود جريس داخل البيت، كما شعر بالوحشة عندما فكر بأنه سيفقدها.

قال مالي باختصار «لقد خرجت».

«أين ذهبت في مثل هذا الوقت من الليل؟».

«تستطيع أن تذهب إلى أي مكان. ولا يحق لأحد أن يستجوبها».

قال جاجان «ليس هذا قصدي». وقد بدا بأن القدر شاء بأن ينقطع بينهما أي تواصل، وأن قوة غير مرئية تعقد لسانيهما عندما يريدان التحاور، وتدفعهما للتلفظ بكلمات غير لائقة. ونهض جاجان خائب الرجاء، وانحنى قريباً من وجه ابنه، وصاح به «أين ذهبت؟ ولماذا قررتْ العودة إلى موطنها؟ ألم تجد السعادة والراحة بيننا؟».

نهض مالي، وقال «من تكون حتى تمنعها من الذهاب إلى حيث تشاء؟ إنها امرأة حرة، ليست كالزوجات البائسات في بلدنا».

قال جاجان «أردت فقط أن أعرف سبب عزمها على الذهاب، وهذا

هو كل شيء. إنها حرة، بالطبع. ومن قال غير ذلك؟ هل حدث شيء أزعجها وأساء إليها؟».

صاح مالي «وما الذي سيجعلها سعيدة هنا؟ هذا مكان بائس لا حياة فيه. وقد اعتادت على حياة هانئة، وجاءت معي كي تعمل، وستعود لأنه ليس لديها ما تعمله».

وابتلع جاجان الكلمات التي أراد قولها،وهي «لكنها تكنس البيت وتنظفه. وهذا بيت كبير، ولديها من الأعمال المنزلية ما يكفي لشغل جميع ساعات النهار. ماذا تريد أكثر من ذلك؟». أضاف مالي «جاءت إلى هذا المكان من أجل المشروع، وكي تعمل معي، ألم تلاحظ بأن اسمها مسجل في النشرة التمهيدية؟».

تعلم جاجان فن تجاهل الأسئلة. ونهض مالي قائلاً «إن لم يكن لديها ما تعمل به هنا، ستعود، وهذا هو كل شيء. ويجب شراء تذكرة طائرتها على الفور».

«لكن الزوجة يجب أن تبقى مع زوجها، مهما جرى».

قال مالي قبل أن ينصرف «كان ذلك في أيامك».

في تلك الليلة لم يغمض لجاجان جفن. فقد أقلقه الغموض الذي لف الموضوع برمته. وقد غابت جريس عن الأنظار. وكم أحب وجودها في البيت، فقد ملأت فراغاً كبيراً. أين أخفاها مالي؟ وقد رفض الاعتراف بأنه يعرف إلى أين ذهبت. هل بهذه الطريقة يقتفي الرجل أثر زوجته؟ .

الفصل العاشر

كان عليه انتظار الفرصة السانحة للقاء جريس. وقد علم من خلال صوت المنفضة في الجزء الأمامي من المنزل أنها عادت، لكن هل ستأتي كعادتها إلى غرفته، وترتب الأشياء؟ لا، فقد مرت قرابة عشرة أيام منذ أن اقتربت منه آخر مرة. وبدا بأنها تعمل على تجنبه. وانتابته كآبة حين خطرت له تلك الفكرة. فما الذي فعله ودفعها إلى تجنبه؟ وهل أظهرت كل ذلك الاهتمام كي يساهم بأمواله في مشروعهما؟ وبعد أن أوضح موقفه، أصبح الحاجز الفاصل بينه وبين مالي وجريس أشدَ ارتفاعاً ومناعة، ولم تعد هناك إمكانية للتكلم معها، والاستفسار عن دواعي موقفها الجديد، ورغبتها في العودة إلى وطنها. وتساءل عما إذا كان بوسعه الذهاب إليها، والتحدث معها. ولكن، ما نفع ذلك؟ ففي ظل وجود مالي، كيف له التحقق من الأمر؟ وإن التقى بها سيكون لقاء رسمياً بالتأكيد. ورغم اقتراب موعد خروجه اليومي من أجل افتتاح محله، فقد جلس على حافة فراشه على أمل أن تأتي جريس لمقابلته، أو أن يخرج مالي لقضاء أحد أعماله، وعندما ستسنح له فرصة التكلم معها. لكن لم تبدر أية إشارة عن حدوث أي شيء، وتابع مالي الطباعة في غرفته. وبعد قليل توقف صوت كنس أرضية البيت، وتمكن من سماع كلمات تبادلاها، ومن ثم توقف أيضاً ذلك الصوت، وتُرِك بمفرده، وغرق البيت في صمت

مريب. ولم تلح في الأفق بارقة أمل. وانسل بهدوء من بيته، ووصل إلى محله، حيث تابعت الحياة مسيرتها كالمعتاد، ولم يعكر هدوء تلك الأمسية سوى ضجيج صادر عن منصة البيع. وكان جاجان قد فقد، في الآونة الأخيرة، قدرته في التركيز على كتاب بهاجافاد جيتا، وذلك إلى حين انصراف عماله. وقد تصرف هؤلاء الرجال البسطاء كأنهم مجبرون على صنع الحلوى سواء وجدت منها كميات وفيرة أم لا، مما جعل جاجان يتساءل عما إذا كان حكيماً في تخفيضه للأسعار، وفيما إذا كان من واجبه العودة إلى السعر الأولي.

وقد مرت أيام على غياب ابن العم. وقد برّر ذلك عند وصوله «اضطررت للذهاب إلى هضاب تيروباثي مع أسرة القاضي. فقد أخذوا طفلين من أحفادهما إلى المعبد لإجراء أول حلاقة لهما. وقد كانت رحلة عظيمة. كما استأجر القاضي ثلاثة أكواخ، وفُتِح لأسرته المعبد بأكمله بوصفه، كما تعلم، رجلاً نافذاً. ولم يستجيبوا لرجائي عندما قلت لهم بأني لا أستطيع التغيب لمدة طويلة». وأضاف ضاحكاً «اختطفوني لبضعة أيام».

قال جاجان «إنك مطلوب في كل مكان. ومنذ يوم أمس أشعر بحاجة ماسة إليك».

«أنا في خدمتك».

«هل أثّر تخفيض الأسعار على جودة حلوياتنا؟».

«أؤكد لك أن شيئاً من هذا القبيل غير معقول».

«زارني صاحب مطعم آناندا بهافان...».

قال ابن العم «أعرف، أعرف، إنهم يتحدثون عنك طوال الوقت».

فجأة أصبح جاجان مهتماً بردود الأفعال في السوق، وسأل «ماذا يقولون؟».

«يبدو أنك وافقت على العودة فوراً إلى أسعارك المعتادة».

قال جاجان «لا أدري، ولا أذكر أني قلت كلاماً من هذا القبيل».

قال ابن العم «هذا، على الأرجح، ما يفكرون به. وسوف يستفيدون من إجراءاتك الجديدة. ولن أدهش إن اندس رجالهم بين الحشود، واشتروا الحلويات بأسعار رخيصة، ثم باعوها بأسعارهم الخاصة في محلاتهم». وإذ لم يخطر لجاجان مثل ذلك الاحتمال، بدا خائب الرجاء، واضطر ابن العم إلى القول «كنت أمزح وحسب. لا داعي للقلق».

وسأل جاجان «هل رأيت مالي مؤخراً؟».

«رأيته مساء أمس في منزل القاضي. إن ابنه صديقاً لمالي. وقد ناداني جانباً. وهو دائم الإعجاب بي كعم له. لا شيء يغيره...».

تنهد جاجان «ولماذا لا يتحدث معي بلباقة؟ إنه لا يستطيع أن ينطق بجملتين دون أن يزعجني».

ورغم شعور ابن العم بالسرور تبعاً للمكانة المرموقة التي حظي بها، قال بصوت مهدئ لا تلق بالاً لذلك. أنت رجل حكيم، ويجب أن لا تفكر كثيراً بتلك الأشياء».

«ما الذي قاله لك».

«ناداني وصحبني إلى الحديقة، بعد أن دخل صديقه كي يغتسل، وقال لي أن جريس عائدة إلى أميركا حالاً. هل علمت بذلك؟».

«نعم، نعم، لكن لم أفهم السبب».

قال ابن العم «إنها ذاهبة في مهمة عمل. هذا ما أخبرني به. إنها في مهمة تتعلق بالآلة. كم هن جريئات أولئك الفتيات! إنها تسافر لمسافة آلاف الأميال لتسوية أمور تجارية، في حين لسنا قادرين على فهم ما يقومون به».

لم يصحح له جاجان اعتقاده، بل احتفظ بمعلوماته لنفسه، وقال «حسناً، علمت بذلك، ولكن أردت معرفة إن كان هناك شيء آخر». قال ابن العم «يبدو المشروع واعداً. وقد وعد صاحب مطعم آناندا بهافان، وبضعة آخرين، بشراء حصص في شركته».

سأل جاجان بدهشة حقيقية «كيف يتواصل معهم؟».

«إنه يتنقل في جميع أنحاء المدينة، وهو فائق النشاط. ألتقي به هنا وهناك، وفي كل مكان».

قال جاجان «أريد مساعدتك. لا تسخر مني. أنا مضطر للتحدث مع جريس، والكشف عن بعض الأشياء بنفسي». وقد شرح الحالة بطريقة ملتوية دون السماح لابن العم بالاطلاع على المزيد من المعلومات». عرف ابن العم أن أشياء كثيرة ظلت خافية عنه، ولكنه لم يبال. وقال «أرى جريس أحياناً عند زيارتها لمنزل الدكتور كوروفيلا، حيث

تقيم هناك صديقة تعرفت عليها في أميركا. هل تريد أن أتحدث إليها، وأنقل لها رغبتك في لقائها؟».

«ألا يكون مالي في صحبتها؟».

«تقوم في بعض الأحيان بزيارة الفتيات في ذلك المنزل، بينما يخرج مالي مع أصدقائه».

كان على جاجان المحافظة على هدوئه خلال اليومين اللاحقين، في حين سعى ابن العم لإيجاد طريقة لإبعاد مالي، كي يترك المجال مفتوحاً لجاجان بغية التحدث إلى جريس على انفراد. وقد وصل ذات مساء كي يؤدي واجب تذوق الحلويات. وقال، وهو يمسح فمه بمنشفة «إن كنت مستعداً لمغادرة المحل، تستطيع لقاء جريس في البيت. ينتظرني مالي في بيت القاضي. وقد وعدته بمرافقته من أجل البحث عن قطعة أرض في شارع هيل».

«لِمَ يسع للبحث عن قطعة أرض؟».

«مِن أجل بناء مصنعه».

«ما هذا الهراء. إنه يتكلم كأنه رجل أعمال كبير. وإن كان يملك ما يكفي من المال، لماذا يطلب مساعدتي؟».

«كل من في المدينة يتحدث إليه كرجل أعمال ناجح. إنه يجيد فن الحديث».

قال جاجان بامتعاض «نعم، مع الجميع سواي».

قال ابن العم «سنبحث الأمر لاحقاً. ألن تذهب إلى البيت؟

هذه هي اللحظة المناسبة. سيكون مالي بعيداً عن المدينة، ولن يعود قبل المساء. سأبقى هنا إلى حين عودتك. سيرافقه آخرون».
مضى جاجان إلى بيته، واستحم، ودخل إلى غرفة بوجا ووقف أمام الآلهة، وصلى «أرجو أن تساعدوني، وأن تنوروني. لا أعرف ماذا أفعل». واستغرق في التفكير للحظات، ثم استجمع قواه وطرق على الباب الأوسط للقاعة. ولم يكن من عادته أن يعود إلى البيت في تلك الساعة. وجد المكان مختلفاً عما كان عليه، وقد تسللت شمس المساء إلى عدة أركان في الساحة المفتوحة. وحدث نفسه «أشعر وكأني في بيت غريب». وقد تأكد له ذلك من خلال ما اعتراه قبل أيام من أحاسيس بأنه تحول إلى شخصية جديدة. كما تذكر نصيحة الرجل الملتحي التي أسداها له خلال تجوالهما «في البداية لا تتسرع، ولكن عندما تقرر، كن سريعاً وإيجابياً». لقد تعلّم ذلك، من غاندي، لكن يبدو بأن ذلك الدرس غاب عن ذاكرته. وتذكر كيف اندفع، عندما كان متطوعاً قبل عشرين عاماً، نحو بيت جامع الضرائب الإنجليزي، وتسلق السطح كي ينزل راية اليونيون جاك، ويرفع مكانها العلم الهندي. في ذلك اليوم، كان رجال شرطة يضعون خوذات حديدية يحرسون المكان. ولكن سرعته الشديدة أدهشتهم، واضطروا لتسلق السطح في إثره. ولم يستطع رجال الشرطة القبض عليه إلا بعد أن انتزع، بقبضة قوية، راية اليونيون جاك، وحاول تثبيت علم بلاده. وقد أضطروا لضربه وشج رأسه كي يفلت قبضته. وعندما فتح عينيه

بعد خمسة عشر يوماً، وجد نفسه نزيلاً في مستشفى، ثم غاب في غياهب السجن. وفيما بعد، قدم له زعماؤه نصيحة قيّمة «في بعض الأوقات يحتاج المناضل كي يتصرف أولاً، ويفكر ثانياً». وإن كان الإنسان لا يقاتل ضد البريطانيين من أجل إحقاق الحق، فإنه يناضل من أجل إحقاق الحق في شأن آخر، في أمور شخصية، وفي جميع مظاهر الحياة. ولطالما بقي جاجان مستعداً لتحقيق ذلك الهدف، ولكن حماسه خبا لسبب يتعذر تفسيره. في ظل تلك الأفكار والذكريات، شدَّ من عزمه قبل أن يطرق الباب كي يتحدث إلى جريس العائدة شقة مالي.

فتحت جريس الباب وصاحت «أبي! أنت هنا في مثل هذه الساعة! شيء غير عادي!».

بدأ جاجان كلامه بصراحة ووضوح «أجد ضرورة للتحدث إليك. هل تأتين إلى بيتي، أم أدخل إلى بيتكما؟».

«أرجو أن تدخل. تعال إلى الغرفة الكبرى، فإن الكراسي هناك مريحة».

وقد تبعها وجلس فوق الأريكة، وجلست في كرسيها، وهي تدور بأحد أصابعها سلسلة علقت حول عنقها. وقد لبست كيمونو أصفر اللون، وبدت كفتاة يابانية. وقال لنفسه «في كل مرة تبدو في شكل جديد»، وقمع رغبة في السؤال «أأنت متأكدة من أنك لست

يابانية في هذا اليوم؟». وقال بصوت مرتفع «ما الذي تقرأينه؟». ذكرت عنواناً لكتاب، وقال «ليس ذا أهمية كبيرة».

وحدث نفسه مرة أخرى «ركِزْ على النقطة الأهم، فقد حُمتَ طويلاً حول الموضوع،وفقدت عملياً التواصل مع ابنك، فلا تفقد زوجته أيضاً». وجاء سؤاله الأول «لماذا لا أراك كثيراً في البيت، هذه الأيام؟».

احمر وجهها، وزمت شفتيها، وظلت صامتة.

وعند رؤيتها مضطربة، قال «لا تهتمي بالإجابة على سؤالي»، وتركها قليلاً كي تستجمع قواها ثم سأل «هل ترغبين في العودة إلى موطنك؟».

ومرة أخرى زمت شفتيها، واحمر وجهها، وخفضت بصرها وظلت صامتة. ونعب غراب حطَّ فوق أحجار قرميد في الساحة المفتوحة. وقد خرق نعيبه الأجش الصمت المخيف. وتمتمت «آه، عاد هذا الغراب. أعذرني». وخرجت من الغرفة، ودخلت المطبخ، وخرجت حاملة قطعة من الخبز، ورمت بها إلى السطح، وقد التقطها الغراب، وحلق عالياً. وعلى الفور حضر جمعٌ من الغربان، ووقفت على السطح ونعبت. قالت «هذا هو أسوأ ما في الأمر. إنها تتدافع، ولكن ليس عندي ما يكفي لها جميعاً».

لم يستطع جاجان منع نفسه من القول «نفس الشيء يحدث معي

في دكاني. يتدافع جميع سكان المدينة على الحلوى، ولكن في واقع الحال نبيع كل ما لدينا قبل الرابعة مساءً».

تلقت ذلك الرد بصمت. وشعر جاجان بتوتر. ولم يبق أثر لكل ما استجمعه من تصميم وإرادة. كان خائفاً من جريس. وشعر باحتمال أن تنهار لو طرح عليها مزيداً من الأسئلة. ولمس بأنها تخفي في أعماقها قلقاً واضطراباً، وقرر أن يتركها لشأنها، مهما اكتنف حالها من غموض. وعندما دقت الساعة الرابعة مساءً، نهض، وقال بوضوح فائق «يجب أن أعود إلى المحل». سارت بصحبته نحو الباب بصمت. وعندما أوشك على الخروج، قالت بلهجة واقعية «أبي، يريد مو أن يعيدني إلى موطني».

سأل جاجان، وقد توقف «لماذا؟».

ترددت، وخشي جاجان أن تنفجر في البكاء، ولكنها قالت بهدوء «لقد انتهى كل شيء بيننا».

«ما الذي انتهى؟».

لم تجب.

وسأل «هل هو قراره أم قرارك؟».

كررت «يريد أن أعود. يقول أنه لم يعد قادراً على الإبقاء عليَّ هنا». دهش عندما اكتشف تلك الصفات الجديدة لمالي، وعقدت الدهشة لسانه. وتابعت كلامها «اعتدت على العمل هناك. وكان معي عند قدومي ألفا دولار. وقد أنفقتها».

«كيف؟».

قالت ببساطة شديدة «لم يعد مو بحاجة لي».

«سواء كان بحاجة أم لم يعد. لقد رعيتُ زوجتي طوال حياتها».

قالت جريس بخجل «أفضل ما في الأمر أننا لم ننجب».

لمس غموضاً في كلامها، لكنه لم يستطع مطالبتها بتوضيحات. وقال «إن قرأت كتبنا (بوارناس) ستجدين أن الزوجة يجب أن تبقى إلى جانب زوجها، مهما حدث».

قالت جريس ببساطة شديدة «ولكننا غير متزوجين. وقد وعدني بأن يتزوجني على الطريقة الهندية، لأني أحببتها، ولذا جلبني معه».

«ولم يتم الزواج بعد قدومكما؟».

قالت «لو جرت مراسم الزواج لا بد أن تكون أول من سيطلع عليها بالتأكيد».

صعب على جاجان أن يحتمل كل ذلك دفعة واحدة. وصاح «لا أدري كيف سأتصرف حيال هذا الوضع».

قالت جريس «هل تعود لنجلس قليلاً؟ سأوضح لك الأمر. أشعر بالتوتر وأنا واقفة هنا».

أخذ ينظر إلى الفتاة. بدت طيبة وخلوقة، وقد اعتمد عليها في أشياء كثيرة، ولكنها تمارس الخطيئة، وتتحدث عنها وكأنها شيء عادي. وتساءل في سره «أي نوع من المخلوقات هذين الشخصين؟». لقد

لوثا بيته القديم. وقد تحمَّلَ منهما الشيء الكثير. وقال لها ببرود «لا، لن أدخل الآن. دعيني أعود إلى المحل».

وعندما وصل ابن العم عند الرابعة والنصف مساءً، صاح جاجان «تعال إلى هنا، إني أنتظرك». رفع ابن العم ذراعه ليحييه ويقول «انتظر لحين الانتهاء من واجباتي في التذوق». وبينما كان داخل المطبخ، هدأت ثورة جاجان. وقد كرر في ذهنه ما سيقوله في البداية «هل تعرف أن ...؟» ولكنه، في الواقع، سأل ابن العم عند خروجه من المطبخ «ما مدى معرفتك بمالي؟». وأمضى ابن العم بعض الوقت محدقاً في خياط يعمل في محل للخياطة في الشارع المقابل، وكان يحرك عجلة آلة الخياطة. وقد أدرك جاجان أن ابن العم غارقٌ في تفكير عميق، لكنه قطع عليه حبل أفكاره بقوله «مالي ليس متزوجاً».

وتساءل ابن العم، بعد أن كبح عدة أسئلة طرأت في رأسه، عما إذا كان المطلوب منه ترتيب خطبة لمالي، وبادر إلى القول «بالطبع، إن كنت موافقاً، فإن الناس مستعدون لقبول طلبك، وحتى أن القاضي ذكر بأن شقيق زوجته عنده ابنة جميلة، وهو راغب بمصاهرة أسرتك....».

شعر جاجان بشيء من الارتياح عند سماعه تلك الأنباء، ولكنه تذكر فجأة بأنه لم يهيأ كي يحيا حياة عادية هادئة. وصاح «كابتن، هؤلاء أطفال المدارس ...!». وقد صاح الكابتن، وهو غير عارف

فيما إذا كان من واجبه طردهم أو إعطاءهم الهدايا «كيف أتصرف معهم، يا سيدي؟».

«أبعدهم. إن أبديت بعض الاهتمام بهم في يوم ما، فإنهم يتوقعون تلقي نفس المعاملة دوماً وأبداً. ليس عند شعبنا احترام للذات».

قال ابن العم «أعلم أنك تريد تخفيض سعر جميع أنواع الحلوى، ولكنك لا تستطيع تحقيق مرادك».

«لا فائدة من إحداث خلل في التوازن الاجتماعي. لا أود معاداة صاحب مطعم آناندا بهافان أو غيره. فمن المؤكد أن عدداً كبيراً من العمال يعتمدون عليهم في كسب عيشهم».

وافق ابن العم على ما قاله جاجان من أجل الانتقال إلى قضية مالي، وهي الأهم برأيه. وسأله «هل التقيت بالفتاة اليوم؟».

سأل جاجان بشيء من الغيظ المكتوم «ولماذا تقول «الفتاة»، بدلاً من زوجة مالي؟».

قال ابن العم، وقد شعر بأن ذلك السؤال أوقعه في فخ «تبدو فتاة طيبة. عندما التقيت بها يوم أمس في ...».

قبل أن ينهي جملته سأله جاجان «لا أشك في طيبتها، ولكنها غير متزوجة من مالي مطلقاً». تلقى ابن العم ذلك التصريح بصمت، وخشي أن تسبب أية كلمة ينطق بها فضيحة لصديقه العجوز. وتابع جاجان كلامه «أكدت لي ذلك بنفسها. وما الداعي للشك بأقوالها؟».

قال ابن العم ببساطة «إذن، لم لا تسمح لها بالعودة إلى وطنها،

وفقاً لرغبة مالي؟» بدا بأن ذلك حل معقول للأزمة التي لم يعد لدى جاجان، منذ وقت طويل، رأي فيها. كما وجد صعوبة في الرجوع عما قاله، أو في إنعاش ذاكرته بشأن السخط الذي شعر به.

وتابع ابن العم «يعيش شبابنا في عالم مختلف عن عالمنا، ويجب أن لا نغضب بشدة من تقبلهم أو تفضيلهم لأشياء بعينها».

إنه رأي ينطوي على شيء من الحكمة. لكن جاجان لم يتقبل لا مبالاة ابن العم، وخاصة أنه لم يكن على علم بالحقائق المؤكدة. وقال «لم تعرف عائلتنا هذه النوعية من السلوكيات، كما أن شقيق جدي، والذي اشتهر بفسقه، لم يُقدِم على مثل تلك الأفعال. لم يدعِ قط أنه متزوج، وهو على خلاف ذلك».

قال ابن العم «ذات يوم سمعت أبي يتحدث عنه. وقد تأكد للجميع أنه تزوج من ثلاث نساء، واحتفظ بعدة عشيقات، ولم يتهرب قط من مسؤولياته».

في حديثهما الهادئ، بدا وكأنهما يستمتعان في بحث تفاصيل فسقٍ مارسه أجدادهما.

«لا أستطيع أن أفهم كيف يقدم رجلٌ وامرأةٌ على العيش معاً دون أن يكونا متزوجين». قال جاجان ذلك وصمت مطلقاً العنان لخياله، كي يصور له ما يجري خلف جدران بيته، ثم أضاف «أشعر بأن بيتي بات ملطخاً، وأجد صعوبة في مواصلة العيش هناك».

قال ابن العم «استمعت إلى جانب واحد من القضية. لم لا تتحدث إلى مالي لتعرف رأيه».

«أخبرني قبل قليلٍ أنه راغب في تسفيرها».

قال ابن العم «إنه مستاء بسبب تعثر مشروعه التجاري».

«أي مشروع هذا؟ صاح جاجان بشدة لدرجة أن الطاهي وقف مذهولاً، وكاد أن يسقط من يده صينية همَّ بوضعها عند واجهة المحل. رمقه جاجان بحنق، وقال «تابع عملك. لا علاقة لك بشيء». ثم أضاف بهمس «لم يعد هؤلاء الفتيان كما كانوا. باتوا فضوليين، وأنا واثقٌ من أنهم على علم بقصة مالي».

في تلك اللحظة، سعى ابن العم لمقاربة الموضوع من الوجهة العملية، كعهده دوماً، وسأل جاجان «لماذا تشغل نفسك بهذا الأمر؟ أنه شأنهم في نهاية الأمر».

«تلطخت سمعة بيتي بسبب سلوكهما المشين. فإن ابني مالي يعاشر جريس دون أن يكون متزوجاً بها».

وإذ وجد ابن العم أن واجبه يحتم عليه تهدئة أعصاب جاجان، قال له «رأيك خاطئ، وينطوي على شيء من الأنانية. وما قيمة دراستك لتعاليم الجيتا إن كنت عاجزاً عن تنقية رأسك من جميع هذه الأفكار؟ لقد شرحتَ لي بنفسك وجوب عدم اندماج المرء بالأشياء، أو الظروف المحيطة به».

تقبل جاجان ذلك المديح بسرور بالغ، رغم أنه لو استفسر ابن

عمه، لما استطاع تذكر ما قاله أو سببه أو زمنه. ولأنه اضطر للاعتراف بتقديسه للجيتا، وللحكمة التي يستقيها من تعاليم الكتاب المقدس، تمتم «في كثير من الأحيان تعمينا صداقاتنا وعلاقاتنا عن رؤية الحقائق، لأن كل علاقة تولد وهماً يسوقنا معه».

تابع ابن العم «إنك محق فيما تقوله. إن الاتزان هو أهم شيء في هذه الحياة».

أجاب جاجان «ذلك ما سعيت لتحقيقه دون جدوى». وقد سعى لتهدئة أفكاره لبعض الوقت. ثم تذكر، فجأة، أن مالي وجريس خدعاه، وأن البيت الذي ظل طاهراً منذ سنين طويلة، يحمل اليوم تلك الوصمة الجديدة. وتساءل كيف يمكن له أن يعيش معهما في نفس المكان. وأوشك على القول «أفكر بمطالبتهما بمغادرة المنزل، والتوجه إلى أي مكان يحلو لهما العيش فيه بعيداً عن بيتي». لكن جاجان ضبط لسانه الذي رفض التفوه بتلك العبارات، وخاصة لإدراكه أن بعض الكلمات تعكر المزاج، ولكنها لا تؤذي إن ظلت حبيسة الأفكار.

«كيف سأواصل العيش في مثل تلك الأجواء؟».

«بإمكانك استخدام الباب الخلفي. ولا تقترب من القسم المخصَّصْ لهما. إذ إلى أين سيذهبان، في الوقت الحالي؟».

«ما تقوله صحيح في ظل ظروف السكن الحالية، فضلاً عما

سيقوله الناس». ثم أضاف بلهجة ملؤها الرجاء والسكينة «أرجوك، لا تخبر أحداً».

فتح ابن العم ذراعيه تعبيراً عن المصداقية والوفاء، وقال «لا يعقل أن أطلع أحداً على شيء. صدقني إن ما تقوله سرٌ مقدس».

بعد أن اطمأن إلى تلك التأكيدات، قال جاجان «كيف سأتصرف الآن؟».

«ماذا تقصد؟».

«أقصد بشأن مالي والفتاة».

بادر ابن العم لإبداء رأيه بصوت هادئ «سارع لإتمام زواجهما في المعبد الجبلي. نستطيع ترتيب الإجراءات اللازمة في خلال بضع ساعات».

«للأسف، لا أدري إلى أية طائفة تنتمي. لذا كيف سأرتب لزواجهما».

«تستطيع التحول إلى طائفتنا. أعرف أشخاصاً يتولون هذا الأمر».

انزاح عن كاهل جاجان عبء ثقيل. وقال لابن العم «إنك منقذي. كيف كنت سأتدبر الأمر بدونك؟».

الفصل الحادي عشر

سدَّ جاجان جميع المنافذ المؤدية إلى غرفته، وقد غمره شعور بالسعادة ليقينه بأنه يتصرف بما تمليه عليه قيمه وأخلاقه القويمة. أغلق الباب الفاصل بين قسمه من السكن، وبين القسم المخصص لابنه مالي، وأقفله من جانبه. قام بكل ما في وسعه عمله لعزل نفسه عن الإشعاعات الشريرة المنبعثة عن شخصين يعيشان معاً دون أن يجمعها عقد قران رسمي. وقد سدَّ فتحة تهوية وجدت بين قسمي المنزل. جرَّ مقعداً قديماً، وتمكن، بواسطة عصا طويلة من الخيزران، من إغلاق الفتحة بإحكام. وعندها تمّت العزلة، بل الانعزال. وقد توقف عن استخدام الباب الأمامي، لأنه رفض السير عبر نفس الممر الذي تطأه أقدام الفاسدين. أمضى ساعات طويلة في إجراء تلك الترتيبات منقِّلاً المقعد هنا وهناك، وناقلاً السلم من مكان إلى آخر. وبعد إقفاله الباب الخلفي لبيته عند مغادرته إلى دكانه في كل صباح، حرص جاجان على اجتياز طريق فرعي يفضي إلى الشارع الرئيسي. وقد لاحظ أن ذلك الدرب مكسوٌ بالأشواك والأعشاب الضارة. حدَّث نفسه «سأجلب مجرافاً لإزالة هذه الأشواك والأعشاب».

لم يسلك ذلك الدرب منذ قرابة خمسين عاماً. في تلك الأيام، عندما كانت أسرته تقيم داخل كوخ، وكان القسم الأمامي للمنزل ينمو شيئاً فشيئاً، دأب بصحبة أخيه على اصطياد جنادب عاشت بكثرة وسط الأعشاب الضارة. في تلك الأمسيات الحارة، أمضى

الصغيران معظم أوقاتهما في ممارسة تلك الهواية، في حين أحرقت صيف ماجودي كل شيء، لدرجة أن الجنادب فضلت الركون إلى ظلال باهتة عكستها تلك الأعشاب.

اعتاد أخوه الأكبر على حمل عبوة صغيرة من القصدير، وكان يكور يده حول الجندب كي يتمكن من اصطياده. وإن كان الجندب كبيراً، وضعه داخل عبوته، وإن وجده صغيراً حوله إلى علبة خاصة بجاجان، والذي لم يكن مسموحاً له صيد أي شيء بنفسه. ولم يكن بمقدوره التحرك بحرية، بل اضطر للوقوف خلف أخيه، منتظراً طالعه. وفي معظم الأوقات، واصل الشقيقان ممارسة تلك الهواية طوال المساء، إلى أن تعلمت الجنادب كيفية تجنب قبضاتهما.

وفي بعض الأحيان، اقتفت أختهما خطواتهما، وتبعتهما بعناد مطلقةً عبارات تحذيرية كقولها «إنكما تقتلان الحيوانات. سأخبر أبي بأنكما تضعان تلك الحيوانات المسكينة بعد قتلها داخل عبوات من القصدير. ستلقيان عقاباً شديداً، وستدخلان جهنم».

وبسبب خشيته من ذلك الابتزاز، دأب جاجان على التوسل إليها كي تدعهما لشأنهما. لكن أخاه الأكبر لم يبال بتهديدات أخته، وكثيراً ما قال له «دعها تهدد وتتوعد. لا أحد يرغب بوجودها في هذا المكان. إن أخبرتْ أبي بأي شيء، سألوي عنقها». وكان يهم بضربها فتسرع هاربة، وهي تصيح من شدة الرعب. تذكر جاجان تلك الأيام، وقال في سره «لم يكن بيننا أي شبهٍ».

تزوجت شقيقته من قروي ثري أخرق، وتحولت إلى ريفية ساذجة، وأنجبت مجموعة من الأطفال البشعين. كما قطع أخوه علاقته به إثر تقسيم إرث أبيهما. «آه كم سيكيدا لي إن علما بقصة مالي». ومنذ وصول جريس قاطعه جميع أقاربه، ولم يعد لديه ما يذكره بأخته سوى بطاقة بريدية أرسلتها قبل عام. كتبت في البطاقة «نشعر بالخجل عند ذكر اسمك. وأذكر أننا لم نبال عند التحاقك بصفوف غاندي، وفقدانك المكانة اللائقة في الطائفة، وتناولك الطعام مع المنبوذين[1]، ومجالستهم، ودخولك إلى السجن، وإقدامك على مختلف أنواع الأعمال المشينة. لكن، هل يعقل أن تقيم في بيتك فتاة مسيحية تأكل لحم الأبقار، كما أنك زوجتها من ابنك؟ لا أستطيع ذكر اسمك أمام أنسبائي. ولا يستطيع أحد لوم مالي على تصرفاته في ظل نشأته على يد أبٍ من نوعيتك.. ... الخ».

وقد أنهت رسالتها بحمد الآلهة لأن أبويها توفيا قبل أن يتعرضا للمهانة جراء تلك السلوكيات المشينة. كما علم جاجان أن أخاه المقيم في شارع فيناياك، قد ذكره بالسوء وبلهجة غاضبة، ولم يدْعُهُ لحضور الاحتفال السنوي الذي يقيمه في ذكرى أبيه. وكان أخوه رجلاً محافظاً يدير مقراً لجماعة دينية تأسست قبل عشرة قرون، ويزيد عدد أتباعها عن مليون شخص. وقد أبدى، منذ سنين، استياءه من آراء جاجان.

1- المنبوذ (the untouchable) : أحد أفراد الطبقة الاجتماعية الدنيا في الهند.

ومن حين إلى آخر، نقل أصدقاء مشتركون، وبعض الأقارب إلى جاجان تعليقات وآراء أخيه. كما نقلها له ابن العم الذي يعرف معظم سكان المدينة. وقد صرَّح أخوه ذات يوم «كيف نتوقع أن ينشأ ولدٌ صالح في ظل أب مثل جاجان؟». وحين تذكر تلك الكلمات تساءل في سره «ماذا سيقولون الآن لو علموا بالتطورات الأخيرة؟». لا بد أن يعملوا على توسيع المسافة التي تفصلهم عنه. وقد شعر جاجان بالامتنان لكونه بات منبوذاً، وأصبح في حل من واجباته كفرد من أفراد الأسرة. ولو كان الوضع على خلاف ذلك، لاضطر لتلبية دعوات تستنفد وقته وطاقته، ولأجْبِر على تمضية ساعات في اجتماعات أسرية، والجلس مع أقربائه فوق قطع من السجاد، وتبادل معهم أحاديث تافهة بانتظار مأدبة فاخرة. وهكذا تهرب من حضور حفلات زواج بنات أخيه، وأعياد ميلاد أبنائه، فضلاً عن تجنب المشاركة في عدة جنازات.

بينما كان جاجان ماراً بالقرب من تمثال لولي، اقتربت سيارة مالي الخضراء، وقد جلست جريس إلى جانبه. أوقف مالي السيارة، وانتظر اقتراب جاجان منه. كما فتحت جريس الباب وسألته «هل تريد نقلك إلى أي مكان؟».

رد جاجان باقتضاب «لا»، وتابع طريقه.

لكن مالي سارع للاستفسار «أبي، هل أجريت ترتيباً شاملاً للبيت؟ سمعت أصوات حركتك ونشاطك».

حاول جاجان إعطاء معنى جديد لموقفه، فقال «نعم، عملت على تنظيف المكان من حولي».

بدا مالي ساهماً دون أن ينطق بكلمة. وقد لاحظ جاجان النظرة الجادة في عينيه، وشعر بوخزٍ في قلبه. وفكر بأنه لو قال «سأدعم مشروعك لاستحضار آلة لكتابة القصص. خذ دفتر الشيكات، وإن أموالي تحت تصرفك، لانتهت جميع المشاكل. لكن كيف سيتحقق ذلك، وهذان الشخصان يجلسان متلاصقين دون أن يربطهما رباط رسمي، ولا شرعي؟ ما طبيعة تلك العلاقة، وكل منهما يسيء إلى الآخر في غيابه، وها هما متلاصقان».

وفي وقت لاحق، أفضى لابن العم «أفكر أحياناً في الاقتراب منهما والتحدث إليهما. لكن أفضل النأي بنفسي. سأجد فرصة ثانية لوضع حدٍ لهذه المشكلة».

لكن تلك الترتيبات المعمارية عزلت جاجان كلية لدرجة أنه لم يتنبَّه، إلا بعد أسبوعين، إلى غياب جريس. وأدرك أنها ما عادت موجودة داخل البيت، وأن الحركة في القسم الأمامي كادت أن تتلاشى.

وفي صباح يوم ما، لفت انتباهه السكون المطبق من حوله، فوقف بجانب الباب الفاصل بين قسمي البيت، ونظر من خلال ثقب المفتاح بعد أن أزال كرة ورقية وضعها هناك. لم ير أحداً، لكن سمع حركة خفيفة في الغرفة الأخرى. أعاد السدادة الورقية إلى مكانها في ثقب المفتاح، وشدَّ قوامه، وسار حول البيت إلى أن وصل إلى

نافذة عند الواجهة، وأخذ ينظر من خلال ستارة نصف مفتوحة. لم يستطع تبين شيء، لكن مالي صاح من داخل الغرفة «من هناك؟» وإذ حاول جاجان الابتعاد سيراً على أطراف أصابعه، فتح مالي النافذة قائلاً «كان بإمكانك الطرق على الباب».

قال جاجان «لا، لم أرغب في ...» ثم حاول العودة من حيث أتى عبر الممر الجانبي. ونظر مالي إليه لبرهة، ثم ناداه «أبي». وقد سر جاجان عند سماعه تلك الكلمة من جديد، وتوقف.

سأل الفتى «لماذا تجوس خلسةً حول البيت؟».

قال جاجان في اضطراب «أين هي جريس؟».

أجاب مالي بفظاظة «ما الذي تريده منها».

تسلح جاجان بشيء من الجرأة وقال «لأني لم أرها منذ وقت طويل».

قال مالي «كيف تأمل برؤية أحد بعد أن أقفلت عليك جميع الأبواب، وبت تستخدم الباب الخلفي؟ إنه وضع سخيف».

تظاهر جاجان بأنه يعتني بغصن ياسمين. عندها لاحظ أن جاره يراقبهما باهتمام بالغ. واستغرق في أفكار شتى مثل «يا ليتني اشتريت ذلك البيت عندما عرض للبيع، وقدمته إلى مالي. وفي تلك الحالة، كان سيقيم قريباً مني، ويبقى بعيداً بما يكفي أيضاً».

وعندما لاحظ مالي نظرات الجار، كفَّ عن الحوار، وقال جاجان «أريد أن أتحدث إليكما. لماذا لا تخرج إليَّ».

تراجع مالي عن حافة النافذة، وخرج من الباب الرئيسي. كان يرتدي ثوباً داخلياً (روب دي شامبر) زاهي الألوان، وبدا راغباً في تجنب شمس الهند القوية، وكأنه فريدٌ من نوعه، ومصرٌ على إحاطة نفسه بأبهة فارغة. اقترب من أبيه وقال «لا أحب أن يطلع ذلك الرجل على أي شيء، خاصة أنه يراقبنا بفضول شديد».

همس جاجان بصوت أجش «حسناً». وكاد أن يختنق لأنه خفض نبرة صوته، وقد برزت أوردة رقبته. لم يعتد قط على الأسرار.

قال مالي «ما الداعي لوقوفنا هنا في الحديقة؟ ألا يمكننا التحدث داخل المنزل؟».

خشي جاجان ذكر السبب الحقيقي لتمنعه عن الدخول، وقال متلعثماً «أجد المكان هنا هادئاً وباعثاً على البهجة».

قال مالي ساخراً «معك حق، في ظل شمسٍ حارقةٍ، وجميع الجيران يراقبون حركتنا، يصبح المكان باعثاً على البهجة».

لم ينزعج جاجان لدى سماعه تلك العبارة الساخرة، بل كان سعيداً لإقامة حوار جديد مع ابنه «هيا ننتقل إلى ذلك الركن الظليل حيث لن يرانا ذلك الرجل».

قال مالي «لكن جميع المارين سيشاهدوننا».

سأل جاجان « وما العيب في ذلك؟ لماذا تكره أن يرانا الناس؟»

«يفترض أن نراعي خصوصية بعضنا بعضاً. إننا لا نراعي هذه الحقوق في بلادنا. في أميركا لا يحدق أحدٌ في غيره».

«إن تجنبنا النظر إلى الوجوه، كيف سنتفاهم؟ ما الداعي إلى الخجل الذي يجعل المرء يخفي وجهه؟».

لم يستطع مالي مواصلة النقاش مع أبيه الذي تحلى، في ذلك اليوم، بروح هادئة ورغبة في المحاورة. وبعد أن عبَّر عن رأيه، شعر جاجان بالانتصار لموقفه، وسأل «هل جريس موجودة داخل البيت أم لا؟ أود التحدث إليكما في أمر مهم».

«ليست هنا. لقد ذهبت للإقامة مع بعض الأصدقاء لبضعة أيام».

«متى ذهبت؟ «وقد شعر باحتمال استياء ابنه من تساؤلاته، ولكنه استفاض في الاستفسار «هل مضى وقتٌ طويل على غيابها».

«أقفلتَ الباب الأوسط، وبتَّ تستخدم الباب الخلفي. بماذا تفكر يا أبي؟».

حاول جاجان انتقاء الكلمات لإيجاد جواب مقبول ظاهرياً، وتابع مالي «هل تظن أني سأتخلى عن مشروعي لأنك أغلقت الباب؟ إن مراسلاتي مستمرة، ويجب أن أعرف موقفك النهائي. هل تتصور أنك أجبرتني على التخلي عن المشروع؟».

من المؤسف أنهما، كالعادة، اقتربا من حافة الخلاف. في تلك اللحظة، حاول جاجان تغيير مجرى الحديث «يجب أن تتزوجا على الفور».

صاح مالي «ما الذي تسعى إلى تحقيقه؟».

شرح جاجان وجهة نظره. لكن مالي قال ببساطة شديدة

«لقد استمعتَ إلى تفاهات. لم أتوقع قط أنك ستنصت إلى تلك الترهات».

لاحظ جاجان بفرح غامر أن الشاب لم يعد يلقبه بالرجل السخيف. وسأل من جديد «هل بحثت الأمر مع جريس؟ على كل حال، لا أنوي الخوض مرة ثانية في التفاصيل. يوجد معبد صغير نستطيع أن نتمم فيه مراسم الزواج. ولا حاجة لدعوة أحد، بل سنذهب نحن الثلاثة فقط مع رجل دين. وسيتم الأمر في خلال ساعة واحدة».

قال مالي «في الآونة الأخيرة، تبنت جريس أفكاراً سخيفةً. ولهذا السبب طلبتُ منك، قبل أسابيع، تسفيرها. لم تعد في كامل رشدها. ويفترض أن تزور طبيباً نفسياً».

«ما هذا؟».

«ألا تعرف ما وظيفة الطبيب النفسي؟ ما هذا المكان المتخلف، حيث لا يُعرَفُ شيء؟». وبعد أن قال ما قاله، استدار ودخل إلى البيت تاركاً جاجان متسمراً في مكانه من هول الصدمة. وقد أخذ في استجماع كلمات مالي كي يجد لها تفسيراً. لكنه لم يدرك معنى ما قاله. ما هو الطبيب النفسي؟ وما الذي سيفعله؟ وقبل أن يستجمع أفكاره، مد الجار رأسه من فوق السياج معلقاً «نادراً ما أراك! ماذا يعمل ولدك حالياً».

«إنه يؤسس لعمل تجاري مع رجال أعمال أميركيين».

«شيء جميل. إذن سيجلب دولارات إلى بلدنا. جيد جداً».

عند تلك العبارة السارة، ابتعد جاجان لأنه توقع أن يدور السؤال التالي حول زوجة مالي. إنه وضع هزلي، فهو لا يدري إن كانت بالفعل زوجة لابنه، أم لا. وشعر بالأسى لاضطراره إلى المراوغة والكذب.

شعر جاجان بقلق شديد، واستغرق، طوال اليوم، في تفكير عميق اليوم. جلس ساهماً، ولم يلتفت لاستفسارات سيفارامان، ولا لدخول الأموال النقدية إلى صندوقه، ولا لوصول ابن العم في موعده المحدد.

تناول ابن العم الحلوى، وتكلم في أمور شتى. وانتظر كعادته للتحدث بشأن مالي. لكن جاجان لم يكن في مزاج يسمح بتشجيعه على الكلام، وقد استسلم ابن العم لإرادته من دون تذمر. وقال في سره «إنه يتحدث أحياناً، ويصمت أحياناً أخرى. سأقبله على علله». وانسل مبتعداً في اللحظة المواتية.

أحصى جاجان العملات النقدية، وسجّلها في دفتر حساباته، لكن فكره ظل مشغولاً بشيء وحيد، وهو اللغز الذي شكله مالي. إذ في كل مواجهة بينهما، يظهر الفتى في وجه جديد لا يتعلق بالوجه القديم، أو ليس له أية صلة به. وقد تذكر آنذاك مبدأ فيسواروبا الذي قرأه في كتاب البهاجافاوجيتا. إذ عندما تردد المقاتل الشجاع آرجونا في القيام بواجبه في ساحة المعركة، زاره الإله في هيئة سائق عربته، وظهر أمامه في صورة فائقة الضخامة. وقد بدا الزائر في ألف وجه وصورة. تذكر جاجان كلمات المقاتل «أراك في أشكال لا حصر

لها، وأنت مسلح بأسلحة لا تعد ولا تحصى، ولديك آلاف الأفواه والعيون، ولا أرى لك بداية ولا نهاية». تذكر جاجان تلك العبارات رغم إدراكه عدم وجود أي وجه للمقارنة بين الحالتين.

في تلك الأمسية، جلس جاجان وحيداً عند قاعدة التمثال. وقد مضى جميع من تحلقوا حول التمثال، كل في طريقه. ونظر السير فريدريك من عليائه نحو عالم مليء بنجوم متلألئة. وكانت ليلة حارة، والهواء ساكنا والحرارة شديدة خانقة.

وعندما شاهد بيته من خلف التمثال، وهو غارق في العتمة، تذكر بأنه لو لم يذهب لإنارة مصباح، لظل الظلام مخيماً على أركانه. وقد ران الصمت على البيت بعد أن ضجت فيه الحياة يوماً ما، وأنيرت جميع غرفه. كما امتلأت شرفاته في أيام الأعياد بمئات مصابيح الزينة. وقد عُدَّ بيتهم، في تلك الأيام، من أزهى بيوت المنطقة. وكان ذلك قبل سنين طويلة من ولادة مالي، وقبل زواجه أيضاً.

كما تذكر جاجان، فجأة، اليوم الذي أنهى فيه عهد العزوبية. سافر في ذلك اليوم، إلى قرية كوبام لإلقاء نظرة على العروس التي عرضها عليه كبار أفراد الأسرة. وجُبَ عليه السفر بواسطة القطار إلى مايل، وهي محطة قطار صغيرة رصفتْ أرضيتها بقطع صغيرة من أحجار القرميد الأحمر، وأنشئتْ وسط حقول أرز خضراء يانعة. وتقع محطة مايل على بعد محطتين من بلدة تريشي. ومن مايل كان عليه الانتقال بواسطة عربة جرها عجلان فوق درب طيني وعر عبر

حقول زراعية. وقد حضر شقيق الفتاة، العروس المقبلة، خصيصاً من أجل استقباله وتكريمه.

في ذلك اليوم كان جاجان سعيداً، وقد ضحك ملء قلبه، وهما يجتازان الحقول المحروثة. وفي كل مرة غرقت عجلات العربة في الرمال، ونزل سائقها لرفعها بواسطة مجاذيف، أحس كأن شخصاً يدغدغه، وضحك كثيراً. لكن الفتى التصق بمقعده، وظل واجماً وصامتاً. فقد دُرِّبَ على كيفية إظهار الاحترام للصهر عن طريق الهدوء والوجوم. وفي وقت لاحق، أصبح للفتى شارب كثيف وترقى إلى رتبة ضابط في القوة الجوية، وقد فُقِدَ إبان الحملة على بورما في عام 1942.

وقد رافق جاجان في تلك الرحلة أخوه الأكبر. وقبل أن يغادر بيتهم، أمره أبوه «لا تحدق ملياً بالفتاة. لقد رأيتُها وأعرف أنها مليحة الوجه. ولا تظن أنك خبير في الحكم على الأشخاص». وعند نهاية الطريق الوعر، استقْبلَ وسط جلبة كبيرة، وأجلسَ فوق سجادة بسطتْ عند شرفة بيت قديم. كما حضر والد العروس مع عدد من أقربائه لإلقاء نظرة على العريس، وتفحصه من عدة جوانب. وقد حاوره الجميع في محاولة للكشف عن ذكائه وآرائه. وقد حذره شقيقه من كثرة الكلام، حتى يبدو غامضاً، لأن تلك الصفة تعد فضيلة محببة في الصهر.

وقد ردد الجميع وكأنهم في كورس «كيف كانت رحلتك؟».

لمس جاجان خصلة شعره، وتلمس حافة قبعته، ورمق أخاه بسرعة لأخذ إشارة. وعندما أومأ أخاه برأسه قليلاً، أجاب «نعم، كانت رحلة جيدة. وسأله أحد الفاحصين، وكان يجلس في ركن بعيد «وهل كانت مقاعد القطار مريحة؟ وقد أجاب جاجان هذه المرة دون مشورة «بالطبع». وكان المطلوب منه امتداح الرحلة لأن السكة الحديدية تسير فوق أراضيهم. وسأله آخر «ماذا درست في الكلية؟».

أجاب جاجان «التاريخ»، دون انتظار موافقة من أخيه الذي عندما اختلى به لاحقاً، لكزه ناهراً «كان يفترض بك القول بأنك درست الرياضيات. أعرف هؤلاء الأشخاص. إنهم يفضلون صهراً درس علم الرياضيات، لأن جميع المتفوقين في هذه المنطقة يدرسون هذه المادة».

ومما زاد الطين بِلةً، أن جاجان لم يذكر «التاريخ» وحسب، بل تندر ببعض العبارات الساخرة حول قدراته في الرياضيات.

وبينما انشغل الحضور في أحاديث متنوعة، اختلس جاجان نظرات سريعة من الغرفة المجاورة، على أمل رؤية عروسه. ولم يكن عنده آنذاك فكرة واضحة عن شكلها، خاصة أنه رأى صورة لامعة بَهتَتْ ألوانها من كثرة لمسها. رأى فتاة حادة الملامح بضفيرة طويلة. وقد نجح المصور في إنجاز مهمته دون الكشف عن شكل العينين. وعندما عرضت الصورة على جاجان لم يتمكن من التدقيق في الوجه

لأن أباه كان يراقبه عن كثب. لكن، ساوره شك في أن الفتاة مصابة بالحول، وخاصة بعدما سمع أن المصورين يحاولون إخفاء تلك الحقائق بهدف التقريب بين العرسان والعرائس. أُعجِبَ بطولها فقد بدت ممشوقة القوام وهي مستندة بمرفقها إلى مسند عالي القوائم، وقد وضع فوقه أصيص من الأزهار. كما بدت أصابعها رفيعة وطويلة، وتزينت بعدد كبير من عقود الزينة والورود، بحيث استحال تبين شكل جسدها. هذا فضلاً عما بذله المصور من جهد لإخفاء العيوب الظاهرة.

اضطر في تلك الجلسة لتصفية ذهنه وتنحية شكوكه، وانشغل في الإجابة على أسئلة الحاضرين. لكن جاجان كان في أشد الشوق لمناداته كي يدخل إلى المنزل لتفحص العروس المختارة. وقد جاءوا بصينية رصت فوقها قطع من الجيليبي[1] ذهبية اللون، وبوندا[2] معدة من الموز الطازج، مع قهوة بنية حارة. وعندما رأى جاجان الحلوى والقهوة، شعر بجوع لم يعرفه قط.

ولو ترك على راحته، لأجهز على الطبق بأكمله (لم تكن نظرياته في الغذاء قد تطورت بعد). لكن نظرة واحدة من أخيه كبحت جماحه.

يعرف البروتوكول في تلك المناسبات بالصرامة الشديدة. فقد كان

1-الجيليبي jilebi: حلوى هندية.

2- البوندا bonda: وجبة خفيفة حلوة المذاق تقدم في جنوب الهند، وتأتي في عدة أنواع، وهي حلوة المذاق ومشبعة بالتوابل.

وأخوه ضيفي شرف، وعلى حكمهما توقف مستقبل الفتاة. ولأن الزيارة جادة ومهمة، وجب عليه التصرف بكبرياء، وعدم إظهار أية رغبة أو ميل للطعام حتى عند تقديم الجيليبي.

تمتم جاجان كما اقتضت المناسبة «أوه لم كل هذا؟ لا أستطيع أن آكل شيئاً. لقد شربنا القهوة، وتناولنا فطورنا في القطار».

لكن أخاه لفظ تلك العبارات بوضوح تام. وتبعاً للقواعد المتبعة، يقوم المضيفون بالإلحاح على الضيوف كي يأكلوا. وفي تلك الحالة، يقوم الضيف باقتطاع قطعة صغيرة من الجيليبي بواسطة أطراف أصابعه، ويضعها برقة في فمه. ثم يعمد عادة للامتناع عن أخذ قطعة أخرى، إلى أن يطلب منه بإلحاح، فيأكل قطعتين أو ثلاثاً على التوالي، ثم يرشف قليلاً من القهوة. ويقضي جوهر السلوك في تلك المناسبات تلبية رغبات المضيف. على سبيل المثال، يفترض بالضيف أن لا يكمل فنجان القهوة، وأن لا يقبل على الطعام إلا بعد إلحاح، وأن يأكل أقل كمية ممكنة من الطعام. وإن قشَّر موزة، يجب أن يقشرها بلا مبالاة، وأن لا يأكل سوى لقمتين دون أن يحرك عضلة في وجهه، على أن يضع الثمرة جانباً.

كانت تلك أول مرة يطبق فيها جاجان تلك المراسم البروتوكولية. وقد عرف بين أفراد أسرته بنهمه، مما لاقى رضا أمه وإعجابها. فقد اعتاد عند عودته من المدرسة على التهام ما يراه أمامه في خزانة المطبخ. وكثيراً ما ملأ فمه بالمكسرات وجوز الهند والسكر الأسمر

(مصنوع من عصارة النخل)، فضلاً عن أنواع مختلفة من المأكولات أعدتها أمه خصيصاً من أجله. وفي أيام الإجازة، أي في كل سبت وأحد، كان يقبل على الطعام بشراهة أدهشت أباه، والذي ردد دوماً «بالنظر إلى قدرته العجيبة على القضم، «لا بد أن ابننا هذا كان جرذاً في حياته السابقة».

لذا صعب على شخص اشتهر بالنهم، أن ينصاع لقيود البروتوكول. ورغم ذلك، وبعد تذوقه قطعة صغيرة من الحلوى، دفع الصينية بعيداً عنه.

ثم ظهرت والدة العروس بالباب، وتفحصت ملامح صهرها، وخاطبته دون سواه، بلطف ورقة «لم لا تنضم إلينا؟».

عند ذاك نهض سيد البيت وقال «هيًا ندخل جميعاً إلى البيت». وتأتي تلك الدعوة كنوع من الشِفْرة، حيث يعلم الجميع سبب زيارة الشاب. ولكن يفترض التصرف على نحو عادي، أي أن لا يظهر أي طرف اهتماماً زائداً، أو قلقاً شديداً. نهض جميع الجالسين عند الشرفة. وتمهل شقيق جاجان، كما تقضي العادة. ورغم تحرقه بالشوق واللهفة، كان جاجان آخر الواقفين. وقد ساوره قلقٌ من احتمال ارتكابه زلة تجلب العار لأسرته التي خاضت تجارب مريرة في هذا المجال. فقد أصبح جاجان مؤهلاً للزواج قبل ثلاث سنوات. وقد تفحص أربع فتيات عرضن عليه. وفي زيارتين من هذا النوع، ظل محدقاً بفم مفتوح من الدهشة، لأن الفتاتين كانتا شديدتي القبح.

وفي زيارة ثالثة، تعمد النظر إلى ساقي الفتاة أثناء سيرها، بعدما أشيع عن كونها عرجاء. ونتيجة لذلك، تعرض لتقريع وتوبيخ شديدين، وأصبحت تصرفاته مثار ضحك وتندر أفراد الأسرة. فما إن يأتي أخواله أو زوار من جانب أمه، ويجتمعون بعد تناول طعام الغداء في الحديقة باحثين عن ضحايا لنميمتهم، حتى يأتي ذكر لهفوات جاجان وزلات لسانه.

ولأن الأسرة حرصت، في تلك الزيارة، على سد الثغرات، ومنع الهفوات، فقد أرسلت أخاه الأكبر لمرافقته في تلك المهمة الحساسة. ومن المؤكد أن أخاه لم يكن ليتخلى عن السلطة التي أوكلت إليه، فظل يراقبه، آمراً أو ناهياً، عن طريق إغلاق جفنيه، أو فتحهما على وسعهما.

وبعد ذلك، طلب منهم الدخول إلى الغرفة الرئيسية في البيت الريفي. ومن أجل تكريم الزوار، أزيحت جانباً عدة مقاعد، وفرش وبطانيات، وغيرها من الأشياء، وغطيت بسجادة كبيرة. ومدت فوق أرضية الغرفة سجادة كبيرة مقلمة. وأحرقت أعواد بخور للتغطية على رائحة سقيفة أبقار وجدت في الفناء الخلفي. وفي وقت لاحق، نقلت زوجة جاجان ما قاله أبوها «من الصعب إرضاء سكان المدن. إنهم لا يعرفون كيفية العيش مع الحيوانات المنزلية». وكان المشهد في عيني جاجان رائعاً. فقد شعر برضا غامر ليقينه أن جميع تلك الترتيبات تمت خصيصاً من أجله (وإن كان أخوه مهيمناً عليه). وقد

قاده أهل العروس إلى مقعد وثير، وجلس حوله باقي الحاضرين. وأخذ جاجان في التفكير «في ظل وجود هذا العدد من الرجال، سيتشتت تفكيري، ولا ضير من طلب رؤية ثانية. وعندها لن يلومني أحد». وسرح به خياله. واقتربت بعض الأصوات، وتصلب جاجان، وقرر تحاشي نظرات أخيه. وسمع موسيقى آلة كالأورغن. وعلى نغمات غير متناغمة، غنى صوت أجش (اعتاد فيما بعد عليه). وقال والد الفتاة «تغني أمبيكا مع نغمات الأورغن، وهي تخجل من الغناء أمام الحاضرين، ولذا فضلت أن تغني من داخل غرفتها. أنها تجيد الغناء. وقد أحضرتُ لها معلماً من البلدة». وقد ذكر اسم بلدة تبعد مسافة عشرة كيلومترات عن قريته.

ولم يكن جاجان في حالة مزاجية تسمح له بالاعتراض على الصوت، والتعبير عن رأيه بصراحة بأنهم ما كانوا بحاجة لتحمل عناء تعليم أمبيكا الغناء. وتوقفت الموسيقا. وسمعت حركة في الداخل، وبعض النقاشات والاحتجاجات. ثم ظهرت فتاة ذات شعر أحسن تصفيفه على هيئة ثنيات جميلة، وهي تبتسم ثم قالت «ترفض أمبيكا الخروج. إنها خجلة». وقد تبادل كبار السن النكات والضحكات. ورفع سيد البيت صوته، وصاح «أمبيكا، تقدمي. هيّا اقتربي. ليس ما يدعو إلى الخوف في أيامنا هذه». ثم خاطب النساء في الداخل «لا تضحكن منها، ستكون على ما يرام ...». وبعد تلك المقدمة، برزت فتاة طويلة تجر خلفها ثوبها الساري الحريري، وقد وقفت

مبتسمة في مواجهة الحضور، وخفق قلب جاجان «إنها تختلف كلية عن صورتها. إنها طويلة، لا أستطيع أن أصدق عيني». وقد أوقف سيد البيت مزيداً من التوقعات عندما أعلن «هذه هي ابنتي الكبرى». وقالت الفتاة الطويلة «أمبيكا قادمة». ولم يسمع جاجان باقي الكلمات. وفقد اهتمامه بالفتاة الطويلة، والتي ظهرت كنوع من التمهيد لأختها الصغرى، والتي جاءت خافضة العينين محنية الرأس، وسارت بسرعة حول المكان لدرجة أن جاجان لم يتبين أية تفاصيل. وعندما وصفها، لم يستطع أن يقول سوى «ليست طويلة ولا قصيرة، وليست بدينة ولا نحيلة». فقد اختلطت التفاصيل، ولكن المقابلة أثمرت عن موافقة ضمنية، ولم تثر اعتراضات أو احتجاجات كالزيارات السابقة.

وحدث جاجان نفسه «كيف لها أن تعرف صورة وجهي، وقد مرت بنا سريعاً؟ لا يهمني ما سيقوله أخي لاحقاً. وفي الوقت الحالي، سأحدق وأنظر ملياً وأتفحص. لا يهمني ما سيقوله الآخرون». وقد نظر دون أن يرمش له جفن في الفتاة. رأى بأن لها شعراً كثيفاً صُفف على هيئة تموجات جميلة، وزين بأزهار. كما التمعت فوق جيدها وذراعيها عدد من قطع المجوهرات. وقد ارتدت ساري من اللون الأخضر الفاتح تماشى لونه مع بشرتها. وهل كانت بيضاء أم سمراء؟ من يستطيع أن يعطي رأيا قاطعاً، خاصة أن شعوراً بسعادة غامرة سيطر عليه لدرجة أنه كان على استعداد للتحديق بها طوال

اليوم. ولكن لم يستطع تبديد شكوكه بشأن شخصيتها. وأثناء تلك اللحظات المشوشة، رمقته بنظرة سريعة، وشاءت الصدف أنه كان ينظر إليها، فالتقت عيناهما وخفق قلبه، وتسارعت ضرباته، وقبل أن يقول أية كلمة، انتهى اللقاء. نهض الحاضرون، وأخذوا في مغادرة المكان، وتلاشت الصورة.

طوال رحلة العودة، ظل جاجان مستغرقاً في التفكير، ولم يعمل أخوه على قطع حبل أفكاره، ولا تعكير مزاجه. وكان من المفترض وصول قطارهما بعد الغروب، ولكن العربة التي جرها عجلان نقلتهما إلى المحطة الصغيرة قبل ساعتين من وصوله. جلس جاجان فوق منصة الوزن، وأخذ ينظر بعيداً إلى سلسلة من الجبال الواقعة خلف حقول خضراء. وبينما أخذ أخوه في زرع المكان جيئة وذهاباً، توقف لبرهة وقال «لماذا نقلونا إلى المحطة في وقت مبكر؟».

قال جاجان «أعتقد بأن لديهم أسباباً موجبة. فقد سمعت السائق الشاب يقول بأن العجلين يعانيان من صعوبة في الرؤية ليلاً».

«أرى أنك اتخذت دورَ الناطق باسمهم. وهل هذا يعني أن...؟»

أومأ رأسه كناية عن الموافقة، لكن بخجل. ثم نهض، وسأل بلهفة «كيف لهم أن يعرفوا رأينا؟ ألا يفترض بنا الاتصال بهم؟».

قال أخوه بحدة «أخشى أنك قد تصرفت بحماقة، وأخبرت أحدهم بأنك معجب بالفتاة. يجب أن لا يرخص المرء نفسه».

قاطعه جاجان «لا، لا. كنت معك طوال الوقت، ولم أتكلم مع أحد، ولم أقل شيئاً سوى «وداعاً». ولكن، عندما اضطر للمغادرة، سار ببطء السلحفاة على أمل أن تظهر له الفتاة عند الباب كي تثبت أنه أحبته، كما بدا من خلال نظرتها السريعة. كما أراد، بدوره، أن يؤكد لها أنه سيتزوجها، وأنه لم ينفر من غنائها. وقد تبادر إلى ذهنه أهمية توصيل تلك الرسالة إلى أمبيكا، ورأى أنها ستشير إليه بطريقة ما إن كانت موافقة على الارتباط به. لم يتوقع قطع الزيارة بسرعة بالغة، من جراء معوقات كمواعيد رحلات القطار، وضعف نظر العجلين ليلاً.

وظل جاجان ساهم الفكر طوال رحلة القطار. وقد أزعجه شعورٌ بأنه فوَّت فرصة وداع حبيبته. وقد أسعده التفكير بها، ورأى أنها فتاة مليحة وهادئة، ومحببة إلى النفس. وعندما استغرق أخوه في النوم، بعد أن انتهت مهمته في المراقبة والتوجيه، غدا جاجان حراً في العودة بأفكاره إلى القرية، وأعطى لخياله الجامح فرصة لمنحه صوراً شتى. ولأنه شعر براحة ضمنية، وجد نفسه مأخوذاً بتلك الرحلة الممتعة. رأى أن بيتهم جميل وأليف، وقد عبقت في القاعة رائحة بخور زكية اختلطت برائحة روث أبقار منبعثة من سقيفة الماشية. ورغم أن صوت الأورغن لم يكن متناغماً مع صوتها، لم يكن من العدل الحكم على غنائها من خلاله. جاء صوت أمبيكا أجشَ وخشناً لأنها حاولت التناغم مع تلك الآلة السيئة. وبات على قناعة بأنها

تمتلك صوتاً جميلاً يلائم وجهها. ثم استغرق بدوره في نوم عميق فيما تبقى من الرحلة. ومن ثم اضطر الشقيقان إلى النزول من القطار وتبديله بآخر عند محطة صغيرة. وقد وصلا إلى محطة ماجودي في وقت مبكر من الصباح. كما استأجر أخوه عربة، وساوم السائق بمماحكة شديدة، ثم ركبا معه متجهين إلى بيتهما القديم عند شارع لولي.

وفي ذلك الوقت المبكر من الصباح، خلت المدينة من سكانها، باستثناء باعة حليب خرجوا لتسويق منتجاتهم، وبضعة عمالٍ ركبوا دراجاتهم الهوائية في طريقهم إلى معمل النسيج الوحيد في البلدة، كي يكونوا على رأس عملهم في الموعد المحدد لفتح أبوابه.

وعند وصول الشقيقين إلى البيت، كانت والدتهما تنثر الماء على العتبة الأمامية، وتزينها بالورود. وبينما انهمك أخوه في مجادلة صاحب العربة، والذي طالب بآنتين[1] إضافيتين عما اتفق عليه، حمل جاجان حقيبته الصغيرة، ودخل إلى البيت. ابتسمت أمه ترحيباً بوصوله، ولم تسأله شيئاً. وكان أبوه منهمكاً في سحب الماء من بئرٍ في الفناء الخلفي، وقد نظر إلى جاجان، وتابع عمله. وانهمكت أخته في الطواف حول نبات تولسي المقدس، وابتسمت له بمكر بينما تمتمت بالصلوات. وخلد جاجان إلى غرفته، متسائلاً فيما بينه «ألا

1- آنة anns: وحدة النقد القديمة في بورما والهند وباكستان وهي تساوي 1/16 من الروبية.

يعير أحدهم اهتماماً لرأيي في الفتاة؟. ألا يرغب أحدهم بالاستفسار عما إذا نالت إعجابي؟ وهل يعني ذلك معارضتهم للفكرة؟ كما أن أخاه لم يتوقف لتنوير أحد، بل اتجه إلى الفناء الخلفي لمساعدة أبيه في سحب الماء من البئر.

لكن الأنباء تسربت، بطريقة ما. وكانت أخته أول من دخل إلى غرفته عندما كان يستعد للتوجه إلى الكلية، وقد لمعت عيناها فرحاً. صاحت «مرحباً، إن أحدهم مقبلٌ على الزواج في وقت قريب». وقد ضج بيت الأسرة بالحركة والنشاط. واستدعيت زوجة الأخ الأكبر من منزل أسرتها كي تساعد في الترتيب لحفل العرس. وقد تسارعت الحركة في بيت الأسرة شيئاً فشيئاً. كما دأب والده على كتابة عدد من البطاقات البريدية، ما بين الساعة الثانية عشرة والثالثة من عصر كل يوم، وحملها جاجان بيده إلى المحطة، كي يتأكد من إرسالها عبر بريد القطار. وكان لأبيه عدد من الأقارب يجلهم ويقدر آرائهم، وهم كبار في السن يسعى لنيل موافقتهم قبل الإقدام على أي عمل. وقد دأب على انتظار ساعي البريد عند العاشرة من كل صباح. وفي تلك الأيام، كانت البطاقة البريدية لا تكلف أكثر من ثلاث بيزات، وكان بوسع المرء أن يخط على وجهيها أكثر من مئة كلمة. وبعد تسلمه موافقة كبار رجال الأسرة، أجرى والد جاجان عدة مشاورات هامسة مع زوجته، بعد أن اختار ركنا قصياً في الفناء الخلفي للبيت. وحرص جاجان، بوصفه شاباً عاقلاً، على إخفاء

لهفته واهتمامه بأمر زواجه. ورغم ذلك، تلَّهف لمعرفة ما يجري من وراء ظهره. وكثيراً ما تلقى شجباً وتوبيخاً إن تجرأ على الاستفسار حول أي شيء، ولذا اضطر للاعتماد على أخته الصغرى، والتي تظاهرت بالوقوف بشكل عرضي إلى جانب الكبار المتحاورين، وتنصتت عليهم، ونقلت له الأخبار. كما سعت إليه، وهو جالس خلف مكتبه متظاهراً بالانهماك في الدراسة، وهمست في أذنه «وافق العم الكبير» و «سيرسل أبي يوم غد رسالة إلى أهل العروس. إنهم بانتظار اللحظة السعيدة». كما نقلت له «يطالب أبي بمهر قدرة خمسة آلاف روبية». وقد أقلق ذلك الطلب جاجان. فماذا لو رفض الطرف الآخر؟ عندئذ، ما الذي سيحدث؟. كما أنهم يرغبون بإقامة حفل العرس في شهر سبتمبر(أيلول)، أي لم يتبق سوى ثلاثة أشهر. وقد شعر جاجان بالخوف من فكرة تحوله إلى رجل متزوج بعد ثلاثة أشهر. فإن الحلم بالفتاة شيء جميل، والتفكير بالاقتران شيء لطيف. لكن جاجان خشي من فكرة تحوله إلى زوج حقيقي. تساءل «لماذا يريدون إتمام الزواج على الفور؟».

أُرسِلتْ رسالة والد جاجان إلى قرية كوبام. وتبادل أهل العروس وأهل العريس عدداً كبيراً من الرسائل. وعندما نما حجم الرسائل علَّقها والد جاجان في مسمار حديدي طويلي ذي رأسٍ خشبي لحمايتها من التلف والنسيان بمرور الأيام. وذات مساء، وصل أهل العروس حاملين صواني نحاسية كبيرة مغطاة بأوراق التامول (نبات

متسلق)، والفاكهة والزعفران. كما حملوا ثياباً جديدة، ووعاءً من الفضة مُلِءِ بمعجون الصندل المعطر، فضلاً عن كمية كبيرة من بلورات السكر وضعت فوق طبق فضي، ومصباحين من الفضة الخالصة.

وقد اجتمع داخل القاعة الرئيسية اثنا عشر رجل دين، وبعض الأقارب والجيران. وأهدِي جاجان زياً جديداً (دوتي)، وأفسح له مكان للجلوس وسط المدعوين. ثم فتح رجال الدين ورقة سجلت فيها بعناية شديدة بنود عقد القران، مع ذكر الأسماء في نهاية الورقة.

نهض كبير رجال الدين، وهو رجل نحيل عجوز، وقرأ بصوت مرتفع ومرتعش بيان الزواج، والذي جاء فيه «نعلن أن جاناثا بن فلان وفلان، سيتزوج من أمبيكا ابنة فلان وفلان، في العاشر من شهر سبتمبر (أيلول) الخ...». ثم سلَّم والد الفتاة تلك الوثيقة المهمة، بشكل رسمي، إلى والد جاجان، بالإضافة إلى مغلف احتوى على أوراق نقدية، وهو نصف المهر، كدفعة أولية. ثم قال بلطف «أرجو أن يحصي ابنك الأكبر قيمة المبلغ المدفوع». وقد صدر عن والد جاجان همهمات استنكار، لكنه سلَّم المغلف لابنه كي يحصي ما بداخله. ولم يضيع شقيق جاجان وقتاً، وسارع لتنفيذ المهمة. ثم قال بصوت واثق «ألفان وخمسمائة روبية». وقال والد جاجان بلباقة «لم يكن من حاجة لإحصاء المهر. ولكن، تلبية لإلحاحك...».

وبادر والد العروس للقول بثقة شديدة «في المسائل المالية، يُفضلْ التثبت من صحة الأشياء، وإلا كيف لي التحقق من أن إحصائي

للأموال كان صحيحاً؟ أفضل دوماً تكرار عملية الإحصاء أكثر من مرة». وقد ضحك الجميع من كلامه، وكأنه ألقى نكتة.

ثم جلس المدعوون حول مائدة أعدها أمهر الطهاة. ومدت أوراق نباتية كبيرة الحجم وسط قاعة فسيحة. وقد رصت أطباق وكؤوس فضية خاصة بكل ضيف، إلى جانب أطباق جانبية، وكميات كبيرة من أرز عاجي اللون. كما وقف مجموعة من العازفين أمام بيت العريس، وطرقوا على طبول، ونفخوا في مزامير، مما ولد ضجيجاً سمعتْ أصداؤه في جميع أرجاء المدينة، وعرف جميع السكان أن اتفاقاً قد تم لإقامة حفل الزواج.

كما أنير منزل الأسرة بعدد كبير من المصابيح النحاسية والزيتية عكست أنواراً خضراء بديعة. وملأت قلب جاجان سعادة غامرة، وقال في سره «كل هذه الاحتفالات تمت بمناسبة زواجي. كم بذلوا من جهد، وكم تعبوا. لا مجال للتراجع الآن».

وعند سماع صفير قطار منتصف الليل، انتهى الحفل. وبعد انصراف المدعوين، سارعت والدة جاجان وأقرباؤها لتقدير قيمة الهدايا التي قدمها أهل العروس من ملابس، وصوانٍ وتحف فضية. وقد أعجبوا بوزن الأواني الفضية وبزخرفتها. كما عبَّرت الأم عن رضاها التام بقولها لابنها جاجان «إن حماك رجلٌ كريمٌ. إن جميع الهدايا قيِّمة». وشعر جاجان، بدوره، بالفخر والاعتزاز بأهل عروسه، وكأنه أصبح فرداً منهم.

ومع اقتراب شهر سبتمبر (أيلول)، دبت حركة غير عادية في أرجاء المنزل. وبالنظر لانتهاء موسم امتحانات الفصل الثاني، سُمحَ لجاجان بالانقطاع عن الكلية من أجل مساعدة أهله في إنجاز الترتيبات اللازمة لعرسه. وكثيراً ما رددتْ الأم «رغم أننا أهل العريس، لا نستطيع التخلي عن واجبنا. لا بد من تنفيذ بعض الأعمال».

وقد وجب عليهم اختيار ملابس خاصة بالعروس وبعض الفتيات. ولهذا الهدف، مضت الأم وقريباتها إلى مركز تجاري كبير لبيع قماش الساري. وقد أمضت هناك قرابة ثماني ساعات في معاينة أقمشة الساري، وألوانها ونوعياتها، وتفحص الحواف الذهبية. كما أمضى جاجان ساعات طويلة في زيارات للخياط، وهو يقيس قمصاناً حريرية، وبزة داكنة. وقد أصرت والدته وآخرون، على وجوب أن يظهر العريس في بدلة رسمية أثناء حفل العرس. ومن جانبه، فضل جاجان ارتداء الدوتي والجبة، ولكنه أُكرهَ على قبول بزة من قماش التويد. وقد أبدى أخوه تشدداً كبيراً في تنفيذ تلك الإجراءات، وخاصة أنه خبرها قبل بضع سنين. كما تولى بنفسه مسؤولية طباعة بطاقات الدعوة، وتنقَّل أكثر من مرة ما بين مطبعة الحقيقة وبيتهم. وأعد قائمةً طويلةً بالعناوين والأسماء. وقد تابع والد جاجان أدق التفاصيل، وأرهق الجميع بشأن قائمة المدعوين، مستفسراً عما إذا ضمت اسم فلان وفلان. وإن خلت القائمة من اسم ما، كان يلح على الإسراع في إضافته. وكثيراً ما أيقظهم في منتصف الليل من

أجل تدوين اسم شخص خطر بباله. كما خشي من نسيان دعوة أي صديق، أو قريب لجاجان، وإن كان ذا صلة بعيدة. وقد تفاجأ الجميع من شدة إلحاح والد جاجان على إرسال مئات الدعوات، وتذكر عدد كبير من الأسماء، رغم عدم تيقنه من صحة كتابة بعضها، وفيما إذا كان أصحابها ما زالوا أحياءً يرزقون.

أرسلت ثلاثة آلاف دعوة. وجاءت النتيجة بقدوم حشد كبير بواسطة القطار، وحافلات وسيارات من أجل حضور حفل العرس في قرية كوبام. وقد أمضى جاجان وقته في استقبال المدعوين، أو الجلوس عند أقدام أقارب مسنين. كما أجبره رجال الدين على الجلوس أمام النار المقدسة لأداء طقوس معقدة. لكن سلواه الوحيدة جاءت من خلال مطالبته بالإمساك بيد عروسه طوال الحفل، فصبر وتحمل حرارة النار واسترق نظرات شوق ولهفة. وقد شعر جاجان بمسؤولية كبيرة عندما نظر إلى الثالي المقدس الذي عقده حول عنقها في أكثر اللحظات جدية في الحفل.

وفي أكثر اللحظات سروراً وبهجة، جلس جاجان إلى جانب عروسه وسط عبير الأزهار وأطواق الياسمين والدخان المقدس، وملامسة ثيابه الحريرية الثمينة، وطقطقات الساري الجديد الذي لفَّ جسد عروسه. وقد تيقن جاجان من أن صوتها ليس أجشَ كما بدا عند غنائها بمرافقة موسيقى الأورغن. كما تحلت أمبيكا بابتسامة ساحرة، وضحكة محببة. وقد خاطبته بتحفظ خجول كلما سنحت

له فرصة لقائها في ركن من المنزل الذي غصَّ بالزوار والمدعوين. وقد أزعجه وجود كل ذلك العدد من الأشخاص في مكان ضيق. وما إن وجد لحظة مناسبة للتكلم مع زوجته حتى قاطعه أحدهم «هيَّا تعال، ولا تتعلق كثيراً بعروسك. أمامك حياة بأكملها كي تجلس وتعجب بها، في حين لن ترانا بعد انتهاء الحفل». وإذ تعد مثل تلك النكات والتعليقات شيئاً عادياً في حفلات الأعراس، إلا أن جاجان أصبح ضحية لضحكاتهم ونكاتهم. وظن أنه سيكون أسعد حالاً لو أحيط بعدد أقل من الأقارب والأصدقاء.

واستمر الضجيج وعزف الطبول والمزامير، وإلقاء النكات والاحتفالات لمدة ثلاثة أيام. وتوج الاحتفال بالتقاط صورة كبيرة جمعت حشداً كبيراً جلس بينهم العروسان. وانتهت الاحتفالات بسلام، رغم ما تخللها من منغصات، كالاستياء من نوعية القهوة التي قدمها أهل العروس إلى بيت العريس. وقد وصل الأمر إلى درجة تهديد أحد أخوال جاجان، وهو رجل طاعن في السن، بمقاطعة الحفل.

كما وقع إرباك آخر ليلة العرس عندما لم يلْقَ كبير أفراد الأسرة التقدير اللائق به. فقد احتل ذلك الرجل المرتبة الأولى في الترتيب الهرمي للأسرة (وهو ابن عم والد جاجان، وكان في الخامسة والسبعين من العمر، وقطع مسافة طويلة قادماً من بلدته بيرهامبور من أجل حضور الحفل). وحدث الإرباك بسبب تسليم العجوز ورقة موز نصف ممزقة

كي يأكل عليها، وأُجْلسَ في صحبة أطفال عوضاً عن ترؤسه المائدة. وقد هدد ذلك بإحداث أزمة كبيرة، لكن والد العروس اعتذر، ونُسيَ الأمر. ومن جانب آخر، استاءت النساء من أقارب العريس لأن العروس لم تحمل معها حزاماً ذهبياً تم تسجيله في قائمة المجوهرات، وذلك نتيجة تأخر الصائغ عن تسليمه في الموعد المحدد. وعندما سُلِمَ الحزام، في نهاية الأمر، تبين أنه من نوعية رخيصة. فقد تأكد للجميع أن الحزام لم يصنع من قطعة ذهبية واحدة، بل من عدد من الألواح الذهبية المتداخلة مع حبال حريرية. وقد شعرت النساء بأنهن تعرضن للخديعة، وعلّقن بلهجة غاضبة «إنهم يوفرون الذهب». كما وصل الأمر إلى درجة التهديد بوقف الاحتفالات وإلغاء مراسم الزواج، لولا تدخل جاجان الذي لم ير داعياً لكل ذلك الصخب. وقال لأمه «إن الحزام الذهبي موضة قديمة. ولم تعد الفتيات المعاصرات يرغبن بحمل أوزان ثقيلة من الذهب على أجسادهن». وقد أثار موقفه غضب النساء وامتعاضهن، وقلن أن جاجان غدا في قبضة زوجته، وبات نصيراً مجانياً لأسرتها. ونتيجة لكل ذلك، انتحى شقيق جاجان به جانباً وعاتبه «لماذا تجعل من نفسك أضحوكة»؟ ولم لا تدع هذه المشكلة للنساء كي يُسوينَها على طريقتهن؟ وعند ذاك، تسلح جاجان بالجرأة المطلوبة لأن يجيب «لأنهن يسخرن من زوجتي، الفتاة المسكينة». وعند إظهار ذلك الولاء الكبير، تركه أخوه بابتسامة ساخرة، وقال «إنك مهووس، ولا فائدة من محاورتك».

خُصِصَ لجاجان غرفة في المبنى الأوسط. وعندما أغلق وزوجته الباب، أصبحا في عالمٍ خاصٍ بهما داخل حواجز سرير[1] عالي القوائم. وقد أصر والد جاجان عند استكمال الاحتفالات بأن يفرش مخدع الزوجية على حساب أهل العروس. وفي ركن من الغرفة، كان يفترض بجاجان أن يجلس خلف مكتب من أجل التحضير لامتحاناته القادمة. لكن، في خلوته مع زوجته، أمضى معظم وقته في ممارسة الحب. ولم يعد مهتماً سوى بعروسه. وكره الدراسة ووجدها مملة، وانقطع عن دروسه. وكثيراً ما رجع إلى البيت وتسلل إلى غرفته. ورسب في جميع امتحاناته، مما اضطُرَ والده للتصريح بضرورة إرسال أمبيكا لزيارة أهلها لمدة ستة أشهر، كي ينال شهادته الجامعية.

ولم يعد جاجان يمضي معظم أوقاته مع أمه وأخته، أو أخيه، كما اعتاد سابقاً. بل انزوى داخل غرفته، وأغلق بابها بانتظار زوجته. ولكن امبيكا اضطرت للقيام بواجباتها في بيت كبير مشترك. كان من واجبها تنفيذ حصتها من العمل داخل المطبخ، حيث ساعدت حماتها في الطهي وكنس الأرضية وغسيل الأواني، وانتظار جلوس حماتها إلى المائدة، قبل تناول أية وجبة. كما لم يكن لائقاً لزوجة الابن أن تسعى لمرافقة زوجها أثناء انشغال آخرين في أعمالهم داخل المنزل. وقد لعبت زوجة شقيق جاجان الأكبر دور نموذج يحتذى به. حيث دأبت على متابعة والدة جاجان والتعلم منها، وخاصة أنها

1- عالي القوائم four-poster: سرير ذو أربع قوائم عالية معدة لتحمل ظله أو ستائر.

دُرِبت جيداً عند زواجها في سن مبكرة. وكثيراً ما ذكرت أمبيكا جاجان بواجباتها كزوجة تعيش في بيت حماها. ولكن، جاجان لم يهتم سوى برغباته.

وعند عودته إلى غرفته وجلوسه بانتظار زوجته التي لطالما تأخرت في الدخول عليه، بسبب انشغالها بواجبات منزلية، كان يقطب جبينه ويتشاجر معها، أو يتظاهر باستغراقه في الدراسة. ولطالما أحبت أمبيكا إسعاد زوجها، وغالباً ما استسلمت لرغباته الجامحة. وقد أنبّه أبوه عندما لاحظ لا مبالاته بمتابعة دراسته. وكثيراً ما قالت أمه «يبقى الابن ابناً إلى أن تأتي زوجته». وقد شعرتْ بضيق شديد لأنه لم يعد يخصص لأهله إلا القليل من وقته. وفي يوم ما، قالت له أخته الصغرى «هل أنت غريب عن المنزل؟ لقد نسينا صورة وجهك». كما طالبته أمبيكا بأن يجنبها الإحراج، وكررت قولها «أرجوك لاتسبب لي كل هذا الحرج. تظاهر، على الأقل، بأنك توليهم الاهتمام والتقدير».

وفي أحد الأيام، اختلى أخوه به في ركن من الحديقة، وقال ناصحاً «أعرف ماهية شعورك الحالي. فقد عشتُ هذه التجربة. وإذا قضيت أربع ساعات في غرفة نومك، خصص ساعةً من وقتك لباقي أفراد الأسرة، كي لا تصبح غريباً في بيتك».

لكن جاجان لم يبال بشيء طالما أنه سعيد في علاقته الزوجية. لكن، عندما تأخرت زوجته في الحمل بطفل، سُمعتْ همسات وإشاعات.

وقال جاجان لزوجته «أتمنى أن يرانا الناس، ويدركوا سعادتنا داخل هذه الغرفة، وعندها لن يتدخلوا في شؤوننا».

رغم تبجح جاجان ومباهاته، لم يأت بدليل يثبت فحولته. فقد مضى على زواجه عشر سنوات، ورسب في جميع امتحاناته، ولم يظهر أي مؤشر على اقتراب ولادة طفل جديد في بيت الأسرة. وانتقل شقيقه للسكن في شارع فينايايك مع أسرته التي كثر عدد أفرادها. وتزوجت أخته وذهبت للعيش في بيت زوجها. وران الصمت على البيت الكبير الذي خلا من معظم سكانه. وأخذت والدة جاجان في إبداء تذمرها من خلو البيت من الأطفال، مما شكّل لها عنصراً إضافياً لتقريع زوجة ابنها. وعند شعورها بالتعب من شدة أعمال المنزل، كانت والدة جاجان تبربر وتتبرم وتكرر قولها «كل ما يطلبه المرء من فتاة، هو إنجاب طفل، كما يفترض بأية امرأة طبيعية. لا يطلب أحد ذهباً ولا فضة. وقد وصل الخداع إلى درجة جلب حزام من الذهب الرخيص. لماذا لا تستطيع فتاة أن تنجب كملايين النساء في هذا العالم؟».

استمعت أمبيكا إلى جميع تلك التعليقات، وهي تعمل وتكد في بيت زوجها. وامتنعت عن الإجابة. لكن كثيراً ما نفَّسَت عن غضبها في وجود جاجان بعد إغلاقها باب غرفتها في المساء. وفي بعض الأوقات، تعاملت مع الأمر كأنه نكتة، بينما أخذ جاجان في التحضير لامتحاناته، وضحكت ملياً وهي جالسة على حافة الطاولة تؤرجح

ساقيها بلا مبالاة. وفي بعض الأحيان، بثَّت له همومها، وقالت «بت أخشى موعد الدورة الشهرية. عندها ستبدأ التعليقات من جديد».

وقال لها ذات يوم «لم لا تتظاهرين، كباقي الفتيات المعاصرات، بأنك لست في مرحلة الحيض؟».

لكن ذلك الاقتراح لم يكن قابلاً للتطبيق، لأنه في البيت الهندي المحافظ، والذي يؤمن سكانه بعدد من الآلهة، يفترض بالمرأة أن تعزل نفسها في فترة الحيض. ويعود السبب في ذلك، لإيمان بعض الهنود بأن جسد المرأة يرسل أثناء تلك الفترة إشعاعات تولد نوعاً من الدنس المغناطيسي. وقد دأبت العادة على انزوائها لمدة ثلاثة أيام في ركن قصي، ولم تكن قادرة على التحرك بحرية داخل بيتها. وقد اغتاظ جاجان بشدة من تلك العادات والتعليقات، وكثيراً ما قال لزوجته «ألم يشبعوا من الأطفال. لقد أنجب أخي أطفالاً يكفي عددهم عدة أسر. وها هي أختي تطبق التقاليد البالية، وقد أنجبت ثلاثة أطفال في خلال أربع سنوات. لماذا لا يتقبلون الوضع على ما هو عليه؟».

كما اعتادت أمبيكا على التصريح بلهجة غاضبة «لأنه إن أنجبنا طفلاً، لن تجد أمك شيئاً تعيِّرني به. أما فيما يتعلق بأسرتي، فقد رزقت جميع أخواتي بعدد من الأطفال، وأمك تلمح إلى كوني عاقراً».

عند سماعه ما قالته أمبيكا، سارع جاجان للدفاع عن أسرته «ومن جانبنا، لا شك في قدرتنا على الإنجاب. ألم تطلعي على صورة

جماعية لجدتي وهي جالسة وسط أبنائها وأحفادها؟ وهل تعرفين عدد الظاهرين في الصورة؟».

سألت أمبيكا «أربعون؟ خمسون؟ لدينا أيضا في أسرتنا صورة جماعية لجدتنا مع أحفادها وأبناء أحفادها».

سأل جاجان بخبث «وهل بلغ عددهم مئة وعشرين شخصاً؟».

أجابت زوجته «لا تسخر من كلامي. بلغ عدد أبناء وأحفاد جدتي، مئة وثلاثة أفراد. وأذكر أن المصور تقاضى أربعة أضعاف الأجر العادي». وقد استشاطت غضباً، وأضافت «لسنا أسرة عقيمة». استاء جاجان من تعليقاتها، ورفع بصره عن كتابه في ذعر، وحار في الرد. فقد تراجعت رغبته الجنسية في الآونة الأخيرة. وعندما فكر ملياً، تذكر كم من مرة حمل سجادة ووسادة، وخلد إلى النوم على الشرفة بحجة شدة الحر. وقد سألها مراراً «إن الحر شديد هنا. هل تمانعين في نومي على الشرفة؟ هل تخافين؟».

في بداية الأمر، دأبت أمبيكا على الإجابة بمرح «لا شيء يخيفني». لكن شيئاً فشيئاً، وبمرور الوقت، باتت تردد نفس العبارة باستياء شديد. ولم ينتبه قط لتعكر مزاجها، ومضى كي ينام بمفرده في الشرفة. وقد أصبح ذلك السلوك نوعاً من العادة، ما لم تكن أمبيكا عائدة من زيارة طويلة إلى بيت أبيها، حيث بات يمنحها اهتماماً عاطفياً يدوم لأسبوع أو أكثر بقليل، ثم يعود إلى سابق عهده. كما شعر جاجان بالتعب والإرهاق من العلاقة الجنسية، ومن لا جدواها، وأحسَّ

بأن زوجته تشاركه نفس المشاعر والرأي. بالإضافة لذلك، قرأ في الآونة الأخيرة كتاباً يفيد أن الطبيعة لم توجد الجنس إلا من أجل تكاثر الأجناس، وأن نقطة من الدم الأبيض تعادل عشرين نقطة من الدم الأحمر، وأن تبديد السائل المنوي وما يرافقه من إرهاق عصبي يقصِّر عمر الإنسان.

ولكن، أصبح لزاماً عليه إنجاب طفل، ولم يدر ماذا يفعل لتحقيق ذلك الواجب. كما بدأت أمبيكا تتوق إلى طفل. ورأى ضرورة القيام بعمل ما، خاصة أنها بدت، في معظم الأوقات، واجمة تلومه بنظراتها. وما إن تراه حاملاً سجادته، حتى تقول بأسى «لم لا تذهب وتنام عند أقدام تمثال لولي؟ لا بد أن المكان هناك أكثر برودة». وعند سماعه ذلك التوبيخ الساخر، كثيراً ما حول الأمر إلى دعابة سمجة، وقال لها «لم يخلق التمثال لكي ينام بقربه أمثالنا». وقد بدا كلامه سخيفاً، برأيه. وفي بعض الأوقات، كان ينير المصباح، ويجذبها إليه، متخيلاً نفسه رودولف فالنتينو، عندما مثل فيلماً من إنتاج هوليوود، استعرض فيه فن معاشرة النساء.

وعلى نحو مفاجئ، قال أبوه ذات صباح «سنقصد يوم الثلاثاء المقبل المعبد المقام فوق هضبة بادري. يجب أن تأخذ إذناً بالغياب لمدة يومين عن الكلية. وسترافقنا أيضاً زوجتك». وقد أدرك جاجان، منذ صغره، بأنه ما إن يقرر أبوه تنفيذ أمر مهم، برأيه، فإنه لا جدوى من مناقشته.

في ذلك اليوم، كان جاجان في طريقه إلى الكلية. ورغم انشغال أبيه في العناية بالحديقة، في مثل ذلك الوقت من كل صباح، جاء إلى القسم الأوسط من البيت كي يطلعه على الأمر الجاد. ورغم ذلك، تجرأ جاجان وسأل «ما الداعي لذهابنا إلى المعبد؟».

قال أبوه «يُعرفُ المعبد باسم سانتانا كريشنا، ويقصدهُ الناس بحثاً عن علاج للزوجة العاقر».

احمر وجه جاجان خجلاً، وأراد تأكيد خصوبة زوجته، ووصف الصورة الجماعية الموجودة في منزل أسرتها، والتي تضم جدتها مع مئة وثلاثة من الأبناء والأحفاد. لكنه شعر بأن لسانه مربوط. فإن المرء لا يناقش أباه، ولا أمه، في مثل تلك الأشياء. وكان بدوره قد صمم على نيل شهادة البكالوريوس في الآداب في ذلك العام، كي يثبت أن الزواج لم يمنعه عن الدراسة. كما رأى أن نجاحه سينهي تحميل زوجته مسؤولية رسوبه. وقد تذكر أنه ما إن تأتي النتائج، حتى تسمع أمبيكا تعليقات وتلميحات تحملها لوماً شديداً، حتى دأبت، كلما دخلت غرفة نومها على القول «لم لا تحمل كتبك وتذهب للإقامة في فندق؟ تعتقد أمك أني أجلس دوماً في حضنك، وأمنعك من لمس كتبك».

بدت، في كثير من الأحيان، غاضبة لدرجة أنه اضطر دوماً لتهدئتها والحد من استيائها، عن طريق دعابة من اختراعه. كما ردد مراراً «يعود سبب رسوبي المتكرر لأني لا أرى أهمية للثقافة».

«أشارت أمك إلى حقيقة كوني غير متعلمة، وأني أرغب بجرك إلى مستواي».

«لماذا لا تسدين أذنيك بأصابعك عندما تتكلم أمي بهذه الطريقة؟».

«ولماذا لا تستخدم ذكاءك وتنجح في امتحاناتك؟».

قال «نعم، هذه فكرة طيبة». وكرس جلَّ وقته للدراسة بجدية والتزام. لم يعد يتأخر عن دوامه الجامعي، ولم يفوت أية محاضرة. كما سجل جدولاً بالمواد، ووضع خطة دراسية. وبات يجلس خلف مكتبه ويراجع كتبه طوال الليل. وخلال تلك الفترة من الحياة المنظمة، جاء أبوه بخطته لزيارة المعبد.

توسل إليه جاجان «ألا نستطيع تأجيل الزيارة إلى ما بعد الامتحانات؟».

حدق أبوه به، وقال «انتظرنا بما فيه الكفاية». وعندما شعر بأن لهجته تنطوي على قدر كبير من التسلط، أضاف «هذا هو الشهر الوحيد الذي نستطيع فيه صعود الهضبة. وإن بدأ موسم الأمطار، لن يكون في مقدورنا الوصول إلى المعبد. إن المكان مليء بالعلقات والطفيليات، وغيرها من الحشرات التي تظهر عند هطول الأمطار طوال عشرة أشهر في تلك المنطقة».

تطلب الوصول إلى سفح الهضبة ركوب حافلة عامة. وقد تكونت مجموعة زوار المعبد من جاجان وزوجته، وأبيه وأمه. وقد

تأثر باهتمام أبيه وقلقه، ورغبته في صعود الهضبة، رغم تقدمه في السن. كما بدت أمه في كامل سعادتها نتيجة التوصل إلى حل ينهي عقم زوجة ابنها. وكررت قولها «لا بد لكل شيء أن يتم في أوانه. ولو لم يكن الأمر كذلك، لخطرت لي فكرة الزيارة في العام الماضي، مثلاً. واضطرت للزعيق أثناء كلامها كي تغطي على صوت الحافلة. وقد جلسوا في مقعد طويل، وأمسك كل منهم بصرته. وقد شعرت أمبيكا بشيء من الخجل. وسألتْ بعض النساء في الحافلة «ما هي وجهتكم؟».

«سنقصد المعبد فوق هضبة بادري».

«حسناً، إنه الوقت المناسب للزيارة. وسترزقون بالذرية الصالحة».

قالت والدة جاجان «لست أنا. لدي ما يكفي من الأبناء». وضحكن جميعاً.

وانحنى رجل جلس بجوار المرأة، وقال «إن أكرمكم الإله، قد ترزقون بتوأمين. لقد خبرتُ ذلك». وضحك الجميع من جديد.

قالت والدة جاجان «لا يفترض تمني إنجاب توأمين، لأن تربيتهما صعبة للغاية. فقد رزق أحد أقربائنا بتوأمين سببا الجنون لأبويهما، لأن كلا التوأمين طلبا الرضاعة في نفس الوقت، أو رفضاها في نفس اللحظة. سأكون في أتم السعادة، إن رزقت زوجة ابني بطفل، وسيتبعه باقي الأطفال بالطريقة العادية».

«كم ولد لديك؟ »سألت السيدة الغريبة، وأخذا في ذكر تفاصيل عن أسرتيهما. وقد أصيب أحد الركاب بالدوار، مما اضطر سائق الحافلة للتوقف أكثر من مرة، كي ينحني خارج النافذة، ويتخلص مما سبب له الغثيان. كما جلست أمبيكا، بوصفها زوجة الابن الوحيدة في منزل حماها، إلى جانب حماتها. وقد جلس جاجان إلى جانب أبيه، والذي اتخذ هيئة رجل أعمال متجه للتفاوض على عقد شراكة.

وقد فضل جاجان صحبة زوجته على مرافقة أبيه، ولكن لم يكن من اللائق أن يجلس الرجال إلى جانب زوجاتهم. وهكذا جلست أمبيكا، من باب الكياسة، إلى جانب والدة زوجها، وأضطر جاجان للجلوس بجوار أبيه. وقد جلسوا جميعاً على مقعد طويل يمتد من أوله إلى آخره تحت النافذة الخلفية للحافلة. وفي مواجهة جاجان، جلس رجل قدِم من الغابة، وقد علَّق عقد من الخرز حول رقبته. كما أسند ذاك الرجل، على ركبتيه، قفصاً حوى طيراً مرقشاً، أطلق، من حين إلى آخر، أصواتاً شبيهةً بصوت أبواب تتحرك خلف أقفال قديمة صدئة، وغير محكمة. وعندما أطلق الطائر تلك الصيحات غطى على أحاديث الركاب (وكان عددهم يربو على الخمسين، في حين لم تتسع الحافلة سوى لخمسة وعشرين مقعداً). وقد حمل بعض الركاب بطاقات سفر، في حين دسَّ معاون السائق أجرة باقي الركاب في جيبه، وأغفل ذكرهم في سجلاته الرسمية. وقد شكلت ثرثرات

الركاب، واستفساراتهم ونصائحهم، وبكاء صغارهم أو ضحكاتهم ضجيجاً غطى عليه صياح الطائر المرقش. وقد انشغل والد جاجان في حديث مطول مع فلاح جلس إلى يمينه، حول السماد وحفر الآبار. وقد أخذ الفلاح في طقطقة حبات فول، ورمي قشورها على أرضية الحافلة. وفي ذلك الوقت، ألقى جاجان نظرة سريعة على زوجته، فأدرك أن الضجيج واهتزاز الحافلة قد أصاباها بالتعب. وتمنى لو أنها جلست إلى جواره. ولو تحقق له مراده، لقال لها «ألا ترين هذه الأشجار والهضاب؟ أليست رائعة وتضفي على المكان سحراً وألقاً؟ هل تدركين أن هذه الرحلة رتبت خصيصاً من أجلك؟ وربما أجابته في تلك الحالة «دعنا نقول إن الرحلة تمت لصالحك. لا يحتاج حملي إلى معجزة. تذكر الصورة الجماعية لأسرتنا». وعندها سيعمد لمداعبتها والضغط على ظهرها، أو شيئاً من هذا القبيل، وينتهي الموقف بشجار، أو بضحكات تنهي المشكلة على الفور. إذ رغم مرور سنوات طويلة على زواجه بأمبيكا، ما زال جاجان غير قادرٍ على توقع ردود أفعالها. فقد تأخذ الأمور ببساطة حيناً، وتضحك من أعماق قلبها. وفي أحيان أخرى ترمقه بنظرات غاضبة، وترد على مداعباته باستهجان كبير. إنها، إجمالاً، مثالاً للطيبة واللباقة، والمرح. ولكن لسانها لا يرحم أحداً، إن تعكر مزاجها.

قبل بضعة أسابيع، اشتكى أبوه من طعم المرق، وتبين أنه شديد الملوحة. وجرى استجواب فوري. صاحت الحماة «أمبيكا، هل

أضفت الملح إلى المرق؟». قالت أمبيكا بصوت مهذب من داخل المطبخ «نعم، بالطبع، يا أمي». وكانت الحماة تحمل الطعام إلى الرجال في غرفة الطعام. ولدى سماعها ما قالته زوجة ابنها، وضعت الطبق جانباً، ومضت لطلب تفسير لذلك. صاحت بأمبيكا «من طلب منك إضافة الملح؟». أجابت الفتاة بتعالٍ «لا أعرف». عند ذاك صاحت الحماة «ألا يفترض بأي شخص عاقل أن يسأل عما إذا أضيف الملح لشيء ما؟ كيف ستكون النتيجة إن أضافت عدة أيادي الملح إلى الطعام؟ لم تعد الوجبة صالحة للأكل، ولا بد من رميها في البالوعة. بهذه الطريقة يتبدد كل شيء، ويفسد داخل هذا البيت. أعرف كيف تجري الأمور...». ومن غرفة الطعام، جاء صوت والد جاجان «هاتوا مزيداً من الأرز». جلبت أمبيكا الأرز وقدمته، بينما واصلت حماتها كلامها «لا نطالب بأشياء غير عادية، فهي ليست لأمثالنا. لم ننعم برؤية حزام من الذهب، كمئات من البشر. لكن يطالب المرء بأشياء معقولة». لم تكمل جملتها حتى انفجرت أمبيكا في البكاء ورمت بطبق الأرز، وقالت «لا أبالي». ثم توارت عن الأنظار. وقد أغلقت باب غرفتها وراءها، ورفضت تناول الطعام، مما أحدث بلبلة في جميع أرجاء المنزل. وعندما ألحوا عليها كي تأكل، قالت بأنها لا تشتهي شيئاً. وبعد أيام على الحادثة، فسرت موقفها. قالت لجاجان «هل تعلم ما قلته لأمك؟ لماذا أنت مهووسة بالحزام الذهبي؟ وما علاقته بالملح أو السكر؟ ألم تشاهدي قط حزاماً ذهبياً؟»

ومنذ ذلك اليوم، أصبحت والدة جاجان مقتصدة في تعليقاتها، وخاصة فيما يتعلق بالحزام الذهبي. وأدركت الحماة ضرورة عدم الاصطدام بأميكا العصبية المزاج، السليطة اللسان.

نزلوا من الحافلة عند قرية تقع عند سفح الهضبة. وربما كانت تلك أصغر قرية على الخريطة، حيث تكونت من صفين من الأكواخ، وكشكين من الخشب عرضَ أصحابها سلعاً متنوعة تناسب زوار الهضبة، فضلاً عن ثمار جوز الهند والموز وأوراق التامول (نبات متسلق)، والأزهار.

بدا جلياً أن الرحلة أتعبت والدة جاجان التي جلست فوق صخرة كي ترتاح قليلاً، في حين انهمك الوالد في مساومات مع بائع جوز الهند محاولاً تخفيض السعر. وفي نهاية الأمر، استسلم لهم وهو يقول «فسد هؤلاء الباعة، وأصبحوا من أسوأ أنواع الاستغلاليين. وقد أتينا من مسافة ثلاثين كيلومتراً. ألا يقدروا تعبنا ومشقتنا؟». وصاح بصوت غضوب «لو عرفت الأسعار في هذا المكان، لجلبت من بيتي كل شيء».

وتدخلت الأم من مكان جلوسها «إن الاستغلال ممنوع. إن التقاليد تتطلب...».

«نعم، نعم كتب في الفيداس قبل عشرة آلاف عام، أن باعة جوز الهند يجب أن لا يستغلوا زوار هذا المعبد». ثم نظر بغضب إلى ابنه وزوجته اللذين جلسا فوق صخرة أخرى، وأخذا يتهامسان بما يفيد

بأنه لو وهب المرء خصوبة طبيعية، لما اضطُّرَ لشراء جوز الهند بسعر باهظ. وقد ارتبك جاجان بفعل نظرات أبيه، وشعر بأنه بات أكثر عقماً من أي وقت مضى. ولكن أمبيكا نظرت بتحد، وكأنها جاهزة لعرض صورة جماعية تجمع مئة وثلاثة أشخاص.

لكن، لو لم يكن جاجان جباناً لسأل أبويه «ألم ترزقا بما يكفي من الأحفاد؟ لماذا ترغبان بالمزيد من الأطفال؟ ولماذا لا تتركوني لشأني؟ «في الوقت ذاته، قالت بائعة ثمار جوز الهند «يجب أن لا يزعجك شراء بضاعتي بسعر أعلى سعر، لأنه من المؤكد أنك ستفرح عما قريب عند قدوم حفيدك». وقد سر العجوز من كلام البائعة، وسألها «كيف تأكدت من أنه سيكون ولداً، وليس بنتاً». أجابت «لا يخيبُ رجاء من يصلي في هذا المعبد، وهو يرزق بولد وليس بأنثى».

كأن الآلهة استجابت لنبوءة بائعة جوز الهند، وولد مالي. وفور ولادته، في قرية أمه، وضع فوق كفة ميزان وتم وزنه، حتى قبل أن تكْمِل القابلة تنظيفه. ثم قدِّم للإله، عند هضبة بادري، ما يوازي وزن الوليد من الذهب والفضة، إيفاءً لعهد تم قطعه خلال زيارة الجدين والأبوين للمعبد.

وعندما عادت إلى بيتها، حاملة الرضيع ذا الأشهر الثلاثة، حملت أمبيكا معها كميات وفيرة من الهدايا، كما قضى العرف عند قدوم المولود الأول.

وأقيمت مأدبة كبيرة دعي إليها أكثر من مئة شخص، لدرجة أنهم

اضطروا لتغطية أرضية أقسام البيت الثلاثة بأوراق المائدة. وكان مالي ما يزال ضعيف الجسد، وصغيراً على حمل كميات وفيرة من الذهب والمجوهرات كوَّمَها جده وجدته فوق جسده. وبعد تناول الطعام، بدا والد جاجان في غاية السعادة، وهو يمضغ أوراق التامول. وضجَّ البيت بثرثرات الضيوف وضحكاتهم. وانشغلت النساء، اللاتي انقسمن إلى مجموعات، في أحاديث شتى. وبكى الطفل، وهو يُنقل من يد إلى أخرى، بسبب عجزه عن تحمل الضجيج من حوله. وعبقت الأجواء برائحة البخور والأزهار وعطر خشب الصندل، كما يتم عادة في كل مناسبة مهمة. وقد جلس الجدان في ركن، لبعض الوقت، بعيداً عن باقي الضيوف. قال أحدهما «سيتم إيداع ألف روبية باسم مالي، وسيتم زيادتها بمبلغ مئة روبية في ذكرى ميلاده من كل عام. إننا نطبق هذا المبدأ في أسرتنا منذ عشرات السنين. ما إن يولد طفل في العائلة حتى يوضع باسمه في البنك مبلغ معلوم.

قال الآخر «نفس الشيء يتم في أسرتنا، حيث يفترض بنا تأمين مستقبل الوليد وتوفير بداية جيدة له في الحياة».

«إن ولداً جديداً في البيت يعني كنزاً حقيقياً في هذه الحياة، وما بعد هذه الحياة».

وقال والد جاجان «كنت خائفاً من احتمال أن لا يرزق جاجان بالذرية».

«لم يكن عندي أي شك في ذلك. فإن أسرتنا لا تعرف العقم».

وقد بدت على محيًا جاجان سعادة وفرح كبيران، وهو ينتقل من ضيف إلى آخر، ويجلس عند أقدام كبار السن، ويتلقى بركاتهم. وقد تبعته أمبيكا، وتلقت مباركة الجميع. سارت مرفوعة الرأس بعد أن وصلت إلى مكانة لائقة في الأسرة. وقد شعرت بفخر كبير لعلمها أنها تمكنت من إضافة شخص جديد لصورة جماعية تعلق على جدران كلا البيتين.

الفصل الثالث عشر

بينما استغرق جاجان في التفكير بالماضي، غفا عند أقدام التمثال. وقد استيقظ على صوت الطيور، وهي تحط على رأس السير لولي. تحرك ونظر إلى بيته الذي لامسه نور الصباح، واتضحت معالمه. وقال لنفسه «يبدو البيت أكثر بهاء في ضوء النهار، ولكنه لن يستعيد نور وضحكات الأيام الخوالي. ولا يوجد حالياً من ينيره، لا ابني ولا تلك الفتاة ـ ترى أي وصف يليق بها؟ وكيف سنلقبها؟ على كل حال، أين هما حالياً؟ لا أعلم شيئاً عنهما، وهما متشابهان، وليسا من نوعية الأشخاص الذين يسبغون على المكان الحبور والسرور، على خلاف أمي، أو أمبيكا عندما كانت في صحة جيدة. إنهما ينشران الكآبة في أي مكان يعيشان فيه. ويحتمل أن يكونا أسعد حالاً في غيابي».

شعر جاجان باستحالة العودة إلى ذلك البيت، وحدث نفسه «إنه ملطخ. لكن بيتي لم يلطخ، بل بيت مالي. ومن أكون كي أتذمر أو أغضب؟ أنا رجل في الستين، وقد لا أعيش أكثر من عشرة أو خمسة عشر عاماً، في حين سيعيش مالي، مع آلته لتأليف القصص أو بدونها، داخل ذلك البيت لمدة ستين عاماً أو أكثر. وهل سيكون سعيداً في شيخوخته؟ وسُرَّ جاجان للحظات قليلة، وهو يتخيل مالي في الثمانين، وخفق قلبه. لكن فكرة طارئة خطرت له «أين ستكون جريس عندما يبلغ مالي الثمانين؟ هل ستبقى على نفس الحال؟ قد يقوم مالي بإعادتها إلى بلادها. فإن ذلك هو أفضل حل ممكن، إن

كانا مصرين على رفض فكرته بإتمام مراسم الزواج الشرعي في الهضاب».

أحس بألم عند تذكر تلك الأحداث، وكأن دبوساً وخزه. «ربما تجاوزتُ مدة عيشي المفترضة في ذلك البيت. وإن عشتُ لمدة خمسة عشر عاماً أخرى، سأكون موجوداً في عالم آخر. فإن الإنسان يولد من جديد عند بلوغه الستين. ولهذا السبب يحتفل الناس بالذكرى الستين لميلادهم. وتذكر أباه وأمه وعمه وعمته، ومجموعة من الأشخاص الذين عند بلوغهم الستين أقاموا احتفالات كأنها أعراس عزفت خلالها المزامير، ودقت الطبول، وأقيمت المآدب. وقد أحب الناس إقامة الاحتفالات في مختلف أنواع المناسبات. ولكن، جاجان اكتفى من الحياة على ذلك النحو، ولم يعد يشكو من شيء. ومن جانبه، أثبت مالي أن لا ضرورة لإقامة احتفالات، أو حتى وضع العقد المقدس، الثالي، حول عنق عروسه. فلا قيود ولا التزامات ولا مسؤوليات، بل فضل السكن مع فتاته، ثم الانفصال عنها وقت يشاء. لقد جلسا داخل السيارة الخضراء متشابكي السيقان، رغم ما قاله كل منهما بحق الآخر. كما تعب جاجان من شدة التفكير في تلك الألغاز، وأدرك أن البحث عن شيء من المنطق في سلوكيات ومواقف مالي، أمر متعب للأعصاب، وشبيه بمن يسعى لقراءة رسالة كتبت بلغة غير مألوفة. ولم يعد في حاجة للإطلاع على أي شيء، ولا لفك مزيد من الأحاجي، طالما أنه لن تقام احتفالات جديدة،

ولن تعزف الموسيقى داخل ذلك البيت المغلق الماثل أمامه. وستمر الذكرى الستون لميلاده في صمت، حيث لا يحق للأرمل أن يحتفل بشيء، وليس أمامه سوى الركون إلى حياة هادئة بعيدة عن صخب المدينة ومتاعبها. ولن يعود إلى سابق عهده أبداً.

رغم ذلك، وجد ضرورة لزيارة بيته لأخذ أشياء احتاج إليها. وفي نفس الوقت فضَّل الابتعاد بهدوء، كما فعل بوذا عندما اكتسب نور الفكر والبصيرة. وقد حلت الخامسة صباحاً، وهو موعد استحمامه اليومي، منذ أن كان في صبياً في العاشرة.

وبعد مضي ساعة من الوقت، وعند الانتهاء من استحمامه وتناول فطوره، خرج من بيته، حاملاً صرة صغيرة ضمت بضعة أشياء، من بينها آلته الصغيرة لغزل الصوف يدوياً. وقد حدث نفسه «إنه التزام قطعته على نفسي أمام غاندي. لقد تعهدت بغزل بعض الخيوط الصوفية يومياً. ولا بد من تأدية هذه المهمة، سواء كنت في بيتي أو في الغابة».

هدَّأتْ أشعة الشمس والحمام البارد والعصيدة، التي تناولها، شيئاً من زهده في الحياة. وكان مفتاح بيته ما زال في يده، وقال في سره «لا بد أن أضعه في مكان ما، مع شخص ما. لا أستطيع حمله معي... لكن، لم لا. فإن المفتاح، رغم كل شيء، خاص بالباب الخلفي. لا بد أن يكون المفتاح الرئيسي في جيب مالي. وإن لم يُفتحَ الباب ثانية، سيتحمل تبعة ذلك. وعندها ستسكن الأرواح الشريرة بيته، وسيغطيه

الغبار وتملأه الفوضى». لم يتوقع جاجان حدوث شيء من هذا القبيل، لكنه رأى من قبل بيوتاً مهجورة تغيرت معالمها وانقلبت أحوالها، حيث لا بد للأرواح الشريرة أن تقيم في مكان ما. ثم ابتسم عندما تذكر جاره الفضولي المحب للاستفسار عن كل شيء «سيطرح أسئلته على أشباح ستقيم في البيت وتستولي عليه».

وقد ظل قلقاً بشأن المفتاح. «لم لا أتركه في عهدة أخي؟ عندها سأجد مبرراً لزيارته». لاحت له فكرة استئجار سيارة غفور، والتوجه إلى شارع فينياياك، وترك المفتاح في عهدة أخيه. وفي تلك اللحظة تذكر ما جرى عندما التحق قبل سنوات بحركة النضال الوطني، وكيف حرص على توديع الجميع قبل تسليم نفسه لقوى الأمن. تذكر كيف اغرورقت عينا أخيه بالدموع. وكم تأثَّر جميع أفراد أسرته بتفانيه وإخلاصه لمبادئه، وكيف خرجوا جميعاً في وداعه، رغم عدم رضاهم عن مواقفه الوطنية. تنهَّدَ من شدة الشوق والحنين إلى تلك الأيام الحافلة بالمشاعر الدافئة، وتمنى لو يقام له اليوم حفل وداع مماثل. فإن من يظهر مثل تلك المشاعر الفياضة لشاب سيدخل السجن، لا بد أن يظهر شيئاً من هذا القبيل لرجل اعتزل الحياة. ومن المحتمل أن يعبروا عن مزيد من الأحاسيس الجياشة، نظراً لأن اعتزال الحياة يعد صورة من صور الموت. إذ بالرغم من تمتع المعتزل بالقدرة على التنفس والعيش ومراقبة ما يجري في هذه الحياة، إلا أنه يصمم عادةً على الانسحاب بعيداً، والامتناع عن المشاركة في أي مظهر من

مظاهرها اليومية والعادية. لكن، لم يبق من الجيل القديم، سوى أخيه. وقد تاق لرؤيته. كما نقل له ابن العم أنه فقد جميع أسنانه، وتمنى جاجان لو يرى أخاه في صورته الحالية. اشتاق إلى صوته الأجش، وهو يطلق عبارات مقتضبة، اقتضتها شخصيته الإيجابية، وموقعه كأخٍ كبير يقود أشقاء أصغر سناً. لا بد أن يتجمهر الناس حول سيارة غفورٍ لمشاهدة من اشْتُهر بأنه زوَّج ابنه من فتاة أجنبية. وقد يبقيه أخوه واقفاً في الشارع، ويطلب منه إلقاء المفتاح من بعيد، لأنه من شأن ظل جاجان أن يلوث عتبة بيته. وقد يضطر إلى الصياح كي يعبر عن موقفه الجديد، ويقول لأخيه «سأعتزل الحياة العامة. فقد بلغت الستين، ودخلت في مرحلة فكرية جديدة». كما يحتمل أن يبحث معه أمر مالي، وعندها سيقول له «لم يقتصر الأمر على زواجه، بل من حقك معرفة حقائق جديدة. إنهما غير متزوجين رسمياً. ورغم إساءة كل منهما إلى الآخر، يجلسان متلاصقين داخل سيارة». وفي تلك اللحظة، سيصرخ أخوه «أغرب عن وجهي أيها الفاسد المسيء لسمعة أسرتنا». وفي تلك اللحظة، سيضحك المتجمهرون حول سيارة الأجرة، وسيعرقلون حركة السيارة، وسيجبرونه على التأخر عن موعد انطلاق الحافلة عند بوابة السوق. وبهذه الطريقة سيصبح رهينة الروتين اليومي، ويتبعه يوم ثانٍ وثالث. ورأى جاجان أن ما خطر له لا يعدو كونه أفكاراً غير مجدية، وقال في سره «من الأفضل إبقاء المفتاح في جيبي، وخاصة أنه خاص بالباب الخلفي».

وعند مروره بتمثال السير لولي، رأى ابن عمه راكباً دراجة هوائية، ويقودها بشكل أخرق، وقد تطايرت خصلات شعره في الهواء، وتحركت الإطارات يمنة ويسرة، وانتقلت الدراجة إلى وسط الشارع، ثم اقتربت من فتحة المجاري الجانبية. وقد استرعى ذلك المشهد أنظار جاجان الذي لم ير ابن العم قط راكباً دراجة. ثم اتجهت العجلات نحوه، وتناهى إلى سمعه جمل غير مترابطة، فتوقف إلى جانب الطريق. وقد ابتعد عنه ابن العم بضعة أمتار، وسقط من فوق السرج تاركاً الدراجة تنحدر إلى حفرة واسعة. ثم نهض في حين علت الدهشة وجه جاجان الذي سأله «ما الداعي إلى هذا الاحتفال البهلواني في الصباح الباكر؟ لقد تقدم بك العمر، وقد تقضي موتاً عند سقوطك ثانية».

قال ابن العم لاهثاً، وهو يزيل التراب عن خدوش أصابته في مرفقه «كنت مسرعاً كي أحدثك في أمر مهم، ولذا استعرت الدراجة من جاري. أرجو أن لا تمانع في تركها لبعض الوقت في بيتك، لأني لا أجرؤ على قيادتها ثانية».

قال جاجان «أقفلت بيتي، ولن أعود إليه». دفعت النبرة الجادة في صوت جاجان ابن العم كي يدخل مباشرة في الموضوع. «تعال معي. ينتظرنا المحامي، لأن مالي بحاجة إلى مساعدة فورية».

«ما الذي جرى؟».

«ألقي القبض على مالي مساء أمس، وأودع السجن...». تسمَّر جاجان

في مكانه على الطريق، وسأل بخوف شديد «يا إلهي، لماذا؟»).

«وجِدتْ نصف زجاجة من الكحول داخل سيارته».

صاح جاجان «لهذا السبب لم أتحمس لشرائه تلك السيارة المخيفة». وقد صب جام غضبه على السيارة الخضراء، إلى أن تدخل ابن العم «يمكن لزجاجة كحول أن تتسلل إلى أي مكان ...».

بحث جاجان عن وسيلة للدفاع عن ابنه «لم تفهم قصدي. تولِّد السيارة جميع أنواع الأفكار في رأس الشاب. لو لم يشتر تلك السيارة، لكان كل شيء على خير ما يرام».

قال ابن العم «اسمع، لا تقاطعني. يجب أن تخرجه على الفور من مخفر الشرطة. فلا يعقل أن يبقى طويلاً في ذلك المكان. وكان بمقدورنا أن نخرجه ليلة البارحة، لو لم تختف عن الأنظار. أين كنت؟».

قال «كنت نائماً عند التمثال». وتذكر شكوى زوجته وتذمرها كلما عزم على النوم خارج غرفته.

صاح ابن العم في دهشة «يا له من مكان مريح ومناسب للنوم العميق، في حين أمضيتُ الليل بطوله، وأنا أبحث عنك في كل مكان. كان بمقدورك إخراج مالي ليلة أمس».

«ما الذي نستطيع فعله حالياً؟ إن الفتى المسكين محتجز هناك. لن يشعر بالراحة، وقد اعتاد منذ أن كان في السابعة، على النوم في أسرَّة مريحة. كيف لي أن أخرجه من السجن؟ «وقد غمرت الدموع عينيه وحجبت بصره، وغابت عنه صورة ابن العم، فبدا كأنه رجل مشوه وقصير».

أخذ ابن العم في مراقبته بهدوء ثم قال «تعال معي، ولا تدع ذلك الشحاذ يراك باكياً بائساً على هذا النحو». كان ابن العم عملياً، ويعرف بالضبط ما يجب القيام به، ولذا لا عجب في سعي معظم معارفه لطلبه عند الحاجة. ذلك ما فكر به جاجان، وتصور ابن العم حاضراً في أية جنازة أو حفل زواج أو حادث، أو عند رفع دعوى قضائية أو ما شابهها. وسأل من جديد «في أي مخفر؟». «سيبقى في مركز الاحتجاز إلى أن تبدأ المحاكمة. انهض، وهيا نتحرك بسرعة لنرى إن ...».

شعر جاجان بالدوار، وضغط بواسطة راحتي يده على صدغيه. «لا تذكر مزيداً من التفاصيل، لا أستطيع تصور حالته تلك». وشعر بدوار، واستلقى على أرضية الشارع إلى جانب التمثال.

قال ابن العم «هيّا نرجع إلى بيتك».

أجاب بتصميم شديد «لا».

«أنت بحاجة إلى الراحة. لا تقلق. سأدبر كل شيء بالنيابة عنك...». وربَّت ابن العم بلطف على كتفيه وقال «لا ترهق أعصابك. ما الفائدة مما تعلمته في كتب الفلسفة والمنطق، إن لم تستطع تحمل تلك المحاكمة الصغيرة؟».

صاح بألم «في مركز الاعتقال... أعرف المكان، إنه قذر جداً، يبول النزلاء في ركن منه». ثم سأل، وهو يمسح دموعه «أم هل حسَّنوا الأوضاع عما كانت عليه يوم كنت سجيناً؟».

«من الطبيعي أن تكون ظروف الاعتقال قد تحسنت حالياً».

«نعم، بالتأكيد، لا بد أن تكون مختلفة عما كانت عليه في عهد البريطانيين».

وتابع ابن العم «أول ما قمتُ به هو التوجه إلى قسم الاحتجاز، والتوسل إلى السجانين هناك. وقد سمحوا لي بمقابلة الفتى وتحدثت إليه. كما تمكنت من تأمين فنجان قهوة قدمته له».

«هل أتيت له بشيء من الطعام؟ لا بد أنه جائع».

«سيلقى معاملة خاصة. أعرف قائد السجن، وسوف يقدم لنا كل ما يؤمن راحته. علمت بالأمر عند السادسة مساءً أثناء عودتي من منزل المهندس حيث ذهبت لتأمين مدرس خصوصي لابنه. وعند مروري بالقرب من مكتب البريد العام، أخبرني أحد العاملين في خدمة المهندس بما جرى. تم إيقاف السيارة الخضراء عند موقف ميمبي، حيث يفتشون عادة عن الأشياء المحظورة، وخاصة أنهم يعثرون عادة على كميات كبيرة من المشروبات الروحية بسبب كثرة المتجهين إلى الغابات. ويبدو أن شرطياً أوقف سيارة مالي، وعثر بداخلها على نصف زجاجة من الكحول. وأنت تدرك ما يحدث في تلك الحالات. فقد صادرت الشرطة السيارة فوراً، وختمت الزجاجة أمام الشهود، وألقوا القبض على ركاب السيارة وفقاً لقانون الحظر».

«من كان في صحبته في السيارة؟».

«صديقان».

«أفسده أصدقاؤه. أين توجد السيارة حالياً؟».

«لقد قادوها إلى مركز الاعتقال. وستبقى هناك إلى حين انتهاء القضية».

نهض جاجان، وأغمض عينيه وظل صامتاً، وتحركت شفتيه متمتماً ببعض الصلوات. وقال، وقد اكتشف شيئاً جديداً عن ابنه «لم أكن أعلم بأنه يحتسي الخمر».

«لا يفترض بمن يقبض عليه وفقاً لقانون الحظر، أن يكون من شاربي الخمر. يكفي أن تفوح من نفسه رائحة الكحول. ومن المعروف أن بعض أدوية الحمى تحوي على نسبة من الكحول. ويكفي لتسوية الأمر برمته، أن يشهد طبيب بأن مالي أخذ جرعتين من دواء خاص بمعالجة الحمى في صباح ذلك اليوم».

«ومن يكون ذلك الطبيب؟».

صاح ابن العم بصبر نافذ «أوه، إنك تضيع الوقت. تعال معي. سوف يتدبر المحامي الأمر بنفسه. ثق به، وضع القضية بين يديه...».

«ما الذي اقتضى وجود السيارة الخضراء بالقرب من الهضاب؟».

«لا فائدة من الاستفسار. على كل حال، ذهب مالي للقاء شركائه في المشروع التجاري في «بيت القمة» بنية التشاور في هدوء. وقد

جلس بانتظار وصول مندوب عن شركائه الأجانب».

استعاد جاجان هدوءه. «آه، شركاء أجانب! إنها بالفعل كلمات مؤثرة. لا يوجد في الهند من يعرف شيئاً عن الأعمال التجارية، بل الأجانب وحسب. حسناً، لكن كيف وصلت الزجاجة إلى السيارة؟».

«تركها أحدهم هناك. أوقف أحد الغرباء السيارة على الطريق الجبلي، وطلب نقله إلى مكان قريب، ونزل في الطريق، وربما نسي الزجاجة على المقعد».

شعر جاجان بشيء من الراحة عندما فكر بذلك الاحتمال. كما تفحص وجه ابن العم لتقدير حجم المصداقية في كلامه. لكن ذلك الرجل تحاشى نظراته، وأضاف بلهجة عادية «أصبح كل شيء ممكناً في هذه الأيام. لا تستطيع الوثوق بالناس، وأولهم الغرباء. عندما بحثت عنك ولم أجدك، اتجهت إلى جانيش راو، وهو محامينا، وأفضل المحامين في منطقتنا. ورغم أنه غارقٌ حتى أذنيه بالدعاوى، فقد قبل قضيتنا. وهو يعرف مالي، ومعجب بأفكاره وخططه. ويبدو أنه تعهد بشراء حصص في شركة مالي حال تأسيسها».

«هل يصدق المحامي بأن آلة مالي الكاتبة قادرة على تأليف القصص؟».

«لم أجد الوقت الكافي لبحث جميع هذه الأمور، ولكنه قال «لِمَ لا؟ حين ذكرت الآلة».

وأخذ جاجان في استرجاع كل ما سمعه. وقد أضاف ابن العم «ضع كل هذا جانباً، لأننا سنكسب القضية، بالتأكيد. جلسنا وبحثنا في جميع الاحتمالات، وواصلنا الحديث حتى الثانية صباحاً. لم أجد وقتاً للنوم. وعند الخامسة صباحاً، استعرت الدراجة، وقد سقطت أربع مرات قبل أن أصل إليك».

قال جاجان بلهجة أبوية «لا تركب الدراجة مرة ثانية، فقد تلقى حتفك».

تابع ابن العم «كما يعزم المحامي على دراسة سجل الشرطي الذي أوقف مالي عند مركز التفتيش. فقد يحتمل أن يكون الغريب الذي رافق مالي متواطئاً مع الشرطي. لا بد أنهم اتفقوا على أذيتك». «لماذا؟ ما الذي يدعو رجل شرطة للتحامل عليَّ؟».

قال ابن العم «بسبب مئة سبب وسبب. يبيت البعض نوايا سيئة. من المحتمل أنه طمع ذات يوم بالحصول بالمجان على بعض الحلوى من دكانك. وفي جميع الأحوال، هؤلاء الرجال المساكين يتقاضون رواتب زهيدة، ولذا يضطرون لطلب الهبات من أصحاب المحلات والتجار. وقد لا تتذكر في الوقت الحالي، لكن حاول أن تتذكر كيف هددت بإبلاغ رؤسائه».

«لم أر قط شرطياً في دكاني».

«وقد يكون من الذين أساءوا معاملتك في تلك الأيام، عندما خالفت القوانين». وقد ضحك جاجان من الفكرة.

«إن كنا سنحمل على أحد، فإن لدينا مبررات تفوق ما يحمله الشرطة ضدنا».

«حسناً، يحتمل أنك محقّ فيما قلته».

«لكن الماهاتما غاندي علّمنا وجوب عدم حمل أية ضغينة ضد أحد. على كل حال، لا بد أن الشرطي الذي سجننا قبل سنين طويلة، قد أصيب بالخرف، أو مات».

«وقد خاض مناوشة مع مالي في يوم ما. فكما تعرف، يحمل رجال الشرطة على الفتية الذين يقودون الدراجات الهوائية، أو السيارات. وليس ما نقوله إلا مجرد كلام عادي. وسوف يلقنك المحامي ما يجب قوله. يجب أن نطبق إرشاداته. وهناك شيء مؤكد، وهو ضرورة الإجابة على أسئلة المحققين وفقاً لتعليمات المحامي، وعندها سنكسب القضية».

قال جاجان باختصار «إذا كان ما تقوله صحيحاً، فإن الحقيقة ستنتصر في نهاية الأمر. وإن لم يكن ما قلته صحيحاً، لا أستطيع أن أفعل شيئاً».

«لا تقل ذلك، يجب أن نبذل قصارى جهدنا كي نخرج مالي من السجن. فقد يحكم عليه بالسجن لمدة عامين طبقاً لهذا القانون».

سأل جاجان بنبرة فلسفية «من سيخرجه من السجن، ومن سيدخله إليه؟».

وقد استفاق، في تلك اللحظة، من الصدمة الأولى، وبات يتكلم

بلا مبالاة، رغم أن صوته كان ما يزال يحمل شيئاً من الألم. وكرّر قوله «ستخرجه الحقيقة من السجن، إن كان ما قلته صحيحاً».

سارع ابن العم للقول «لكن المحامي سيعمل على تجميع المعلومات والبناء عليها من خلال الأدلة المفيدة. إنه يبحث عن وسائل وطرق. وإن تمكن من جمع معلومات حول سوء نية الشرطي، قد نرفع دعوة مضادة كي ندعم موقفنا».

في ذلك الوقت، اتضحت الصورة كاملة في رأس جاجان. وألقى نظرة سريعة على حقيبته، وحملها ثم قال «أتمنى أن يحالفك الحظ، مع محاميك ووكيلك المتميز، وذلك الشرطي المسكين الذي، لسوء حظه، أوقف السيارة الخضراء. لكن لا تنتظر مني لعب أي دور في هذه القضية. أخرِجْني من الموضوع نهائياً، وانسني. سأذهب بعيداً دون طرح مزيد من الأسئلة.

سأل ابن العم بقلق «إلى أين ستذهب؟».

«سأتجه إلى مكان جديد مختلف أمارس فيه أعمالاً لا تشبه ما كرَّرته من ممارسات طوال ستين عاماً. سألجأ إلى مكان ما، ولا أحمل معي أكثر مما يستطيع كتفي حمله. وكل ما أحتاج إليه يوجد داخل هذه الحقيبة».

«أعتقد أن دفتر الحسابات البنكي من ضمن تلك الأشياء، وهي طريقة مضمونة ومختصرة لحمل الأشياء. هل ستقيم في مكان بعيد؟».

وصف جاجان مكاناً قريباً من النهر، وقال إنه سيعتزل الحياة هناك. وقد صعق ابن العم، وقال «أعرف ذلك المكان. إنه قريب من موقع إحراق جثث الموتى. هل باعه لك الرجل، الذي يجيد صباغة شعر الرجال؟ سامحني إن قلت لك، ابتعد عنه. إنه ساحر، وعلى دراية بالسحر الأسود، ويعرض تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب».

«لا أبالي بما يقوم به. سأقيم هناك لمشاهدة الآلهة أثناء انبثاقها من الحجارة. وإن لم يعجبني المكان، سأتجه إلى مكان آخر. إني رجل حر، ولم أشعر قط بهذا القدر من التصميم وثبات الرأي. وإني سعيد بلقائك، ولكن، كنت ماضياً في طريقي، في جميع الأحوال. سيتم كل شيء في وجودي أو في غيابي. لا يتوقف العالم عندما تُقتَل شخصية مهمة، أو تموت نتيجة أزمة قلبية. افترض أن قلبي قد توقف عن الحياة، وانتهى كل شيء».

وقد سلم إلى ابن العم مجموعةً من المفاتيح. وقال له «افتح الدكان في الموعد اليومي، وقم بتشغيله. وسوف يتولى مالي، في يوم ما، إدارته. احتفظ بسافاراماان وباقي العمال، وأحسن معاملتهم. لا تطردهم. وتستطيع أن تأتي دوماً إلى المعتزل إن كان هناك أمر طارئ، أو من أجل تقديم كشف حساب. وسوف أدلك على الطريق. تجد عند بوابة السوق حافلات تنطلق نحو ميمبي بمعدل حافلة كل أربع ساعات. ويبدأ العمل عند تلك البوابة في الثامنة والنصف صباحاً. إنك رجل كثير الأشغال، ولكن أرجو أن تساعدني حالياً».

قال ابن العم، وقد تأثر بكلمات جاجان ونبرة صوته الهادئ «نعم، سأنفذ كل ما تطلبه مني. وقد طلب المحامي ألفي روبية لتسديد نفقات أولية. وسوف يخرج مالي بكفالة مالية قبل حلول المساء».

قال جاجان، وقد أخرج من حقيبته دفير الشيكات «لا يضير الإنسان أن يمضي بضعة أيام داخل السجن. وربما هذا بالضبط ما يحتاج إليه مالي». وقد أسند دفتر الشيكات على ركبته، ووقع على شيك سلمه إلى ابن العم.

سأل ابن العم «وماذا لو استلزم الأمر أموالاً إضافية؟».

«سنسددها، وهذا كل ما عندي. تستطيع مطالبتي في أي وقت تشاء. لست مسافراً إلى كوكب آخر». وقد دهش ابن العم من التحول الكبير الذي طرأ على جاجان الذي أخذ يردد، وعيناه تدمعان «لا يضير الإنسان تمضية بضعة أيام في السجن. لا أريد التأخر عن موعد انطلاق الحافلة عند الثامنة والنصف. ولا أريد طرح أسئلة أخرى، ولكن قل لي أين هي؟». ثم رفع حقيبته على كتفه.

«دبَّرَ لها أصدقاؤها عملاً في فندق صغير خاص بالنساء». لكن جاجان قاطع ابن العم لأنه لم يرغب في الاستماع إلى مزيد من التفاصيل، وقال «إن التقيت بها، أبلغها استعدادي لشراء بطاقة سفر لها، إن رغبت في العودة إلى وطنها. إنه واجب علينا الإيفاء به. لقد كانت فتاة طيبة».

نبذة عن المؤلف:

يعد آر. كي. نارايان، كاتب رواية" بائع الحلوى" من أشهر الكتاب الهنود الذين صاغوا كتاباتهم باللغة الإنجليزية، ما أهّله لنيل عدة جوائز أدبية هندية وأجنبية.

ولد راسيبورام كريشنا سوامي نارايان في عام 1906 في مدراس، وتوفي في عام 2001 عن عمر ناهز 94 عاماً. وكان الثالث بين ثمانية أبناء. وقد رعته جدته من أمه في ظل تقاليد صارمة للطبقة البراهماتية المتوسطة للتاميل. وقد ظهرت آثار تلك التقاليد والمبادئ بجلاء بين صفحات رواية" بائع الحلوى". كما تعلّم على يد جدته فن سرد الحكايات الشعبية، ومحبة الموسيقى الكلاسيكية في جنوب الهند. درس نارايان في مدرستين بمدراس وكان تلميذا جاداً، وقد أشرف والداه على تعليمه مع أخوته الثمانية. ورغم ذلك، أخفق نارايان في الانتساب إلى الجامعة مرتين متتاليتين، إلى أن قبل في جامعة المهراجا في ميسور.

نبذة عن المترجم:

ولدت ميسون جحا في سوريا، وتخرجت من قسم اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة حلب. عملت في حقل الترجمة لمدة ٢٥ عاماً في مجلة زهرة الخليج ،ومن ثم في جريدة الاتحاد الإماراتية. وقد شاركت المترجمة في عرض وتلخيص عدة كتب نشرت على حلقات في جريدة الاتحاد. كما شاركت في ترجمة أفلام وبرامج علمية ووثائقية لصالح مؤسسة العين للإعلان الإماراتية. كما نشرت لها دار حوار السورية ترجمة لرواية" الخصم" للكاتب الجنوب أفريقي "جيز إم. كويتزي" فضلاً عن عدة قصص قصيرة خاصة بالأطفال.

بائع الحلوى

تحكي روايـة" بائع الحلوى" للروائي الهندي الشهير آر. كي. نارايان حكاية رجل يدعى جاجان يقوم على تربية ابنه مالي، ويدير محله الصغير للحلويات.

يكرس بطل الرواية حياته لرعاية ابنه الوحيد بعد وفاة زوجته، فيوفر له كل ما يلزمه من طعام وشراب، واهتمام أبوي لا حد له.

ويحرص نارايان من خلال تفاصيل صغيرة وأحداث عديدة أن ينقل لنا فكرة واضحة عن عادات وتقاليد وقيم ومبادئ يتمسك بها المجتمع الهندي الملتزم. إنه يصف لنا طفولة جاجان وصباه وكيفية اختياره لزوجته، ومن ثم إقامة أفراح واحتفالات كبيرة وفقاً للتقاليد الهندية العريقة.

لقد أبدع نارايان في صياغة روايته، وهي تنضح بأفكار فلسفية عميقة، ومبادئ وقيم سلوكية تطبق معظمها في بلادنا، بوصفنا من الشعوب الشرقية الأصيلة.

الرواية شيقة وجديرة بالقراءة.








ISBN 978-9948-01-424-9
9 789948 014249